

الصراع المصري العبري والصراع الفلسطيني الإسرائيلي والمأزق الحضاري للمرجعية الدينية

(عليكم أن تستشعروا الخطر دائماً
.. حتى تتقدموا ولا تتخلفوا)

(الفيلسوف نيتشه)

في نداء منه إلى الشعب الألماني

طلعت رضوان



مكتبة بئر سيرة الورد

بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب : الصراع المصري العربي والصراع الفلسطيني

الإسرائيلي والمشرق العربي للمرجعية الدينية

المؤلف : طلعت رضوان

رقم الإيداع : 8842 / 2011

الطبعة الأولى ٢٠١١



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميلان حليم خلف بنك فيصل

ش ٣٦ يوليو من ميلان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٨٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

الإهداء

إلى كل مصرى لا يزال
يؤمن بمصريته ..

وإلى كل إنسان فى العالم
لا يزال يؤمن بخصائصه القومية ..

مقتبسات

«إن تاريخ ملوك إسرائيل وملوك يهوذا ، هو قصة ملوك همج يحكمون شعباً من الهمج» .

جورج هيررت ويلز
موجز تاريخ العالم



« لستُ أعرف لماذا لم نفكر حتى الآن في أن يكون يوم اكتشاف سر اللغة الهيروغليفية وحل رموزها عيداً قومياً لمصر ، باعتبار أن ذلك هو الحدث الذي كشف حقيقة الحضارة المصرية ووضعها في مرتبة أعلى من سواها » .

الكاتب الأستاذ / محمد صالح
أهرام ٢٠٠٢/٩/٢١ ص ١٠



«إن الفينيقيين (أهل لبنان) نقلوا الحروف الهيروغليفية إلى بلاد اليونان ، فبلوروا منها الأبجدية ، بمعنى - وبدون تزايد - أن مصر محت أمية حوض البحر المتوسط» .

و. إسحاق عبيد
أستاذ متفرغ بقسم التاريخ
جامعة عين شمس



«إنّ المصريين القدماء هم أول من عرفوا الكتابة ، ولم تسبقهم أية حضارة أخرى فى هذا المجال . أما اللغة الهيروغليفية فإنها تتميز بالكثير من العناصر الفنية » .

عالم (المصرات) (النمساوى)

(البروفيسور) (زاتسجر)

والأستاذ بمعهد (المصرات) بجامعة فيينا



«إنّ اليونانيين كانوا فى عصورهم الراقية ، كما كانوا فى عصورهم الأولى ، يرون أنهم تلاميذ المصريين فى الحضارة ، وفى فنونها الرفيعة بنوع خاص ».

عميد (الثقافة) (المصرية)

محمد حسين

مستقبل (الثقافة) فى مصر



«إنّ عقدة اليهود سبق مصر فى الحضارة » .

(العالم الكبير) (يهودى) (البرنات)

سيجموند فرويد



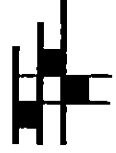
«إنّ خلاص البشرية من اليهود ، بل والتحرر الاجتماعى نفسه ، إنما هو تحرير المجتمع من اليهودية . وأنّ التحرر اليهودى فى معناه الأخير يقوم فى تحرير الإنسانية من اليهودية » .

(العالم الكبير) (يهودى) (البرنات)

كارل ماركس فى كتابه (الأسئلة اليهودية)



مقدمة



في أواخر التسعينيات من القرن العشرين أنتجت الميديا الصهيونية فيلمًا للأطفال اسمه (أمير مصر) بتمويل يهودى الديانة أمريكى الجنسية ، أخرجته المخرج الأمريكى (ستيفن سيلبيرج) الذى دافع فيه عن مبالغات اليهود فى أفران الغاز النازية فى فيلمه (قائمة شندلر) وهو الفيلم الذى أثار الكثير من الانتقادات والاعتراضات من نقاد سينمائيين عالميين معروفين بموضوعيتهم ، حيث ركز فيه على إثارة مشاعر التعاطف مع اليهود الذين أحرقتهم النازية بقيادة هتلر . وإذا كان عداء النازية لليهود وللديمقراطيين وللشيوعيين ، حقيقة لا يمكن إنكارها ، إلا أنّ سيلبيرج فى فيلمه قائمة شندلر، ركز على الاضطهاد ضد اليهود فقط ، كمبرر للهجرة من ألمانيا - بل من أوروبا كلها- إلى أرض الميعاد التوراتية - والاستيلاء على أراضى الشعب الفلسطينى .

أما فيلم (أمير مصر) الذى استخدم فيه أحدث التقنيات التكنولوجية المبهرة للكبار قبل الصغار ، فهو تكرار للأيديولوجيا العبرية المعادية لحدودنا المصريين القدماء . ومن هنا كان دافعى لكتابة فصول هذا الكتاب ، الذى قسّمته إلى قسمين : فى القسم الأول رأيت أهمية الدفاع عن الحضارة المصرية ، فى مواجهة الميديا الصهيونية التى تحاول بثتى الأساليب سرقة التراث المصرى ونسبته للعبريين بنى إسرائيل ، وذلك لترسيخ الإدعاء بأنّ بنى إسرائيل هم أصحاب الحضارة المصرية . ومن خلال متابعتى لما يُنشر فى الثقافة المصرية السائدة ، لاحظتُ أنّ كتابًا (مصريين) كثيرين يعادون تراث جدودهم . ورأيتُ أنّ هذا التوجه فى الثقافة المصرية السائدة

أخطر من مخطط الميديا الصهيونية التي قد لا ينتبه إليها إلا المتخصصون والمتابعون . ومن هنا كانت أهمية تناول الغزو الثقافي العبري الموجه ضد الحضارة المصرية ، مع تقديم أمثلة من كتابات يكتبها (مصريون) بالميلاد والنشأة والانتفاء ومع ذلك فإنها (هذه الكتابات) تعادى جذورها الحضارية ، وبالتالي فهي تُرسخ لدى القارئ المصرى الشعور بانحطاط هذه الحضارة ، وهو ما يترتب عليه شعوره باحتقارها ونفى انتسابه إليها ، والتغنى بسبب و - جاء من أسسوها (الذين هم جدوده) خصوصاً وأنّ هذا التوجه يلتقى مع - الأصولية الدينية المعادية للتراث المصرى القديم . كل ذلك يصنع فى النهاية ما يُسميه علماء الأنثروبولوجيا ب (الدونية القومية) والتمهيد ل (الفناء الحضارى والذوبان فى الآخر المعادى) وخطورة ترسيخ هذا الشعور بالدونية القومية ، أنه يعنى فقدان الانتماء للوطن الأم (مصر) وكما هو معروف ومؤكد ، فإنّ فقدان الانتماء يؤدى إلى انهيارات اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية .

وفى المقابل كان لا بد أن أقدم للقارئ بعض الأمثلة من الكتاب المصريين الذين دافعوا عن تراث جدودنا المصريين القدماء . وإذا كنتُ ذكرتُ أسماء هؤلاء الكتاب ، فإننى تعمدتُ عدم ذكر أسماء الكتاب المعادين للحضارة المصرية ، إيماناً منى بأن القضية قومية وليست شخصية .

أما القسم الثانى فهو يتناول المآزق الحضارى (لأى شعب) عندما تحكمه المرجعية الدينية فى تأسيس معنى (الوطن) مثلاً - حدث مع المرجعية العبرية التى ترتب عليها احتلال أرض الشعب الفلسطينى ، ثم التهديد بالتوسع على حساب أراضي باقى شعوب المنطقة ، لدرجة أن يُروج كتاب وسياسيون إسرائيليون كثيرون (منذ عدة سنوات - حتى كتابة هذه السطور) لمقولة أن حل المشكلة الفلسطينية يكون بتوزيع الشعب الفلسطينى على أجزاء من أرض سيناء المصرية وأجزاء من أرض الشعب الأردنى ، وكمجرد أمثلة فقط ، فقد صرح رئيس مجلس الأمن

القومى الإسرائيلى الجنرال (جيورا آيلاند) أنه ((اقترح فى عام ٢٠٠٤ على رئيس الوزراء الإسرائيلى شارون ضم ٦٠٠ كم إلى قطاع غزة من شمال سيناء ليعيش فيها مليون فلسطينى، وضم ٦٠٠ كم من مساحة الضفة الغربية إلى إسرائيل، لضمان إقامة حدود آمنة، مع منح المصريين تعويضاً إقليمياً فى النقب الجنوبى يصل إلى ١٥٠ كم وتعويضات أخرى على شكل مساعدات دولية وتنمية اقتصادية، وحفر نفق يصل مصر بالأردن من شمال إيلات، ونقل مساحة صغيرة حوالى ١٠٠ كم من أراضي الأردن إلى الفلسطينيين حتى تصبح المساحة التى يُسيطر عليها الفلسطينيون ١٠٥ ٪ من المساحة التى يُطالبون بها اليوم)) (حوار أجرته معه صحيفة هاآرتس الإسرائيلىة نُشر يوم ٤/٦/٢٠٠٦ - ونقلًا من جانبى عن مجلة مختارات إسرائيلىة الصادرة عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام عدد ١٣٩ يوليو ٢٠٠٦ ص ١١٤) وفى تعليقه على هذا الاقتراح قال وزير الخارجية المصرى (أحمد أبو الغيط) أنه ((كلام فارغ)) (أهرام - ٩/٦/٢٠٠٦ ص ١) ولكن يظل اقتراح رئيس مجلس الأمن القومى الإسرائيلى يُشكل خطرًا حقيقياً على مصر والأردن، خاصة أنه يتردد فى كتابات الكثيرين من الكتاب والسياسيين والعسكريين الإسرائيلىين أمثال اللواء الإسرائيلى (إفرايم إيتام) الذى طالب بأن ((يتم تخصيص شبه جزيرة سيناء لإقامة نصف دولة إسرائيلىة وأن تكون الأردن لإقامة النصف الثانى لدولة إسرائيل)) (نقلًا عن أ. صبحى صادق النجار - أستاذ الدراسات العبرية بالجامعة العربية - أهرام ٢/٩/٢٠٠٢ ص ١٠).

لذلك رأيتُ أن أتناول فى هذا الجزء العلاقة بين اليهودية والصهيونية، وأدلل على الأساس الأيديولوجى لإقامة دولة إسرائيل، وأن هذا الأساس مستمد من مرجعية الديانة العبرية. كما أوضحْتُ أن الصراع الحقيقى داخل المجتمع الإسرائيلى (منذ قيام دولة إسرائيل وحتى كتابة هذه السطور) هو صراع بين الآيات / الحاخامات وبين العلمانيين الإسرائيلىين الذين يرفضون المرجعية الدينية ويسعون

لإقامة دولة علمانية / ديمقراطية : ويؤيدون حق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته المستقلة . وبناءً على ذلك فإن الفريق الذي سينتصر ويجلس على مقاعد الحكم في إسرائيل هو الذي سيُشكل مصير لمنطقة .

ورأيتُ استكمالاً لهذا المحور أهمية عرض كتابين مهمين للراحل الجليل د. رشاد الشامي ، الأول عن (القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة) حيث دَلَّ فيه مؤلفه على خطورة سيطرة الأحزاب الدينية على المجتمع الإسرائيلي ، وبالتالي على المنطقة كلها . والثاني عن (الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية) .

وإذا كان إعلان الدولة الإسرائيلية تم في عام ١٩٤٨ بعد قرار التقسيم بعام واحد ، وإذا كانت إسرائيل لاتزال - بسبب سيطرة المرجعيات الدينية التي تُشجّع التوسع والاعتداء على أراضي الشعوب المجاورة لأراضي فلسطين وعدم الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، إذا كان كل ذلك يُشكل حقائق واقعية (معاشة وملموسة) فإنّ الليبراليين المصريين في العشرينيات من القرن العشرين ، أى قبل إقامة دولة إسرائيل ، تنبؤوا بخطورة المخططات الصهيونية ، سواء بالنسبة لمصر أو لفلسطين ، وهو ما رأيتُ أنْ أخصص فصلاً له ، حيث اكتشفتُ أنْ أ. عمر عنايت كتب في مجلة العصور عدد أمشير / فبراير ١٩٢٧ دراسة غاية في الأهمية ، حذر فيها من أنه إنْ لم يتنبه الفلسطينيون والعرب لما يُخطط له اليهود في المنطقة ، وحسب نص كلامه فإنّ ((فلسطين ستكون ملكاً لبنى إسرائيل)) أما مصر - في ظل نفس المخطط الصهيوني - فإنها ((ستكون كمية مهمة وعضواً أثرياً في مملكة داود الجديدة)) .



الصراع المصري العبري
والصراع الفلسطيني الإسرائيلي

القسم الأول

مصر وإسرائيل

الفصل الأول

الثقافة السائدة في مصر والتراث العبري

تمهيد

ذكرت الأستاذة سكينه فؤاد (أهرام ١٣ / ٤ / ٢٠٠٤) أنه أثناء انعقاد المؤتمر الدولي لعلم المصريات بالقاهرة في أوائل شهر برمودة / إيريل ٢٠٠٠ تقدّم أحد المشاركين (لم تذكر اسمه) يبحث ادعى فيه أنّ ((أشهر رموز وأفكار الحضارة المصرية مستوردة، وعلى رأسها الملكات (تى)، (نفرتيتى) ووالدة تحوت / موس الثالث وحورس وآمون)) أى أنّ كل هذه الرموز ليست مصرية . ومن منطلق إحساسها بمصريتها كتبت الأستاذة سكينه فؤاد ((إنّ المأساة الحقيقية تمثلت في موقف العلماء المصريين المشاركين في المؤتمر، حيث لم يتصد لهذه الخرافة إلا عالم مصرى واحد (لم تذكر اسمه) ووصفها بـ «الهراء الذى لا يملك سنداً علمياً واحداً» وبالتالي لابد أن تكون أخرى (لا علاقة لها بالعلم) وراء هذه الافتراءات)).

هذه المأساة - فى المشهد الذى روته الكاتبة الكبيرة سكينه فؤاد - تجسيد حى لغياب الإحساس بالحضارة المصرية من علماء مصريين (متخصصين) فى علم المصريات . وأنّ عالماً مصرياً واحداً فقط - من بين المصريين الحاضرين المؤتمر - هو

الذى تصدى لهذه الافتراءات التى يُروّجها جهاز الميديا الصهيونية ، بهدف سرقة الحضارة المصرية لصالح الادعاء الكاذب الذى يُروّج لمقولة أنّ بنى إسرائيل هم أصحاب هذه الحضارة ، مثل الادعاء أنّ المصرى الكبير (يوبا) والد الملكة (تى) هو النبى يوسف العبرانى . فى حين أنّ علماء علم المصريات أكدوا أنّ الملكة (تى) هى زوجة (أمنحوتب الثالث) الذى لم يكتف بخلع أرفع الألقاب فى البلاط الملكى عليها ، أى (الزوجة الملكية الكبرى) ولكنه - أيضًا - أصدر سلسلة من الجعارين التاريخية سجل عليها تذكّار زواجه من هذه الفتاة التى تنتمى إلى عامة الشعب (المصرى) وهى ابنة أحد الكهنة المصريين وأمها إحدى الكاهنات بمدينة أخميم فى مصر العليا . وكان الأب والأم يدعيان (يوبا وتوبا) ويبدو أنّهما من بلاد النوبة السفلى (أنظر كتاب المرأة الفرعونية - تأليف عالمة المصريات الفرنسية - كريستيان ديروش نوبلكور - ترجمة فاطمة عبدالله محمود - مكتبة الأسرة عام ١٩٩٩ ص ٤٧) وكذلك الادعاء بأنّ أخناتون هو النبى موسى الممثل الرسمى لبنى إسرائيل فى التراث العبرى . وأعتقد أنّ هذه المأساة هى تجسيدٌ حى لمستوى التعليم والإعلام فى مصر ، ومستوى الثقافة السائدة بعد يوليو ١٩٥٢ . ولذلك كانت الأستاذة سكيّنة فؤاد محقة عندما أضافت ((وقد أصاب العالم المصرى (الوحيد) الحقيقة تمامًا ، فقد كانت النية مبيتة لاستخدام المؤتمر المقام على أرض مصر ، لاستقاط الهوية المصرية عن حضارتها القديمة)) .

ما ذكرته الأستاذة سكيّنة فؤاد تكرر ولكن بصورة أكثر مأساوية ؛ إذ عندما استضافت مصر (مارتن برنال) مؤلف الموسوعة المهمة (أثينة إفريقية سوداء) والذى أكد فيها على أنّ مصر هى مهد الحضارة الإنسانية ، وليست اليونان كما يدعى البعض ، فى هذه الاستضافة ، وصف بعض (العلماء) (المصريين) كتاب جورج جيمس (التراث المسروق) وكتاب مارتن برنال (أثينة إفريقية سوداء) بأنهما ((زبالة فكرية)) (أنظر: شوقى جلال فى مقدمة ترجمته لكتاب (التراث المسروق - الفلسفة

اليونانية فلسفة مصرية مسروقة) المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومي للترجمة - عام ٩٦ ، هيئة قصور الثقافة عام ٢٠٠٨ ص ٣٩) بل وصل الأمر لدرجة أن آخرين (مصريين أيضًا بالاسم وأكاديميين بحكم الوظيفة) قالوا: إن الكتابين المذكورين يُدعمان الصهيونية وأن المؤلفين لهما توجهات صهيونية (المصدر السابق ص ٤٥) وهكذا تكون قمة المأساة في شكل جريمة يرتكبها (مصريون وأكاديميون) تذهب عقولهم المريضة وضمايرهم (العلمية) الميتة باعتقاد أن من يدافع عن الحضارة المصرية عميل لإسرائيل وللصهيونية العالمية . وقد ذكر لي الأستاذ شوقي جلال أسماء هؤلاء المعادين لتراث جدودهم ؛ ويعف قلبي عن ذكر أسمائهم ، لأن القضية قومية وليست شخصية .



أعتقد أن أي مصري مازالت مصر تنبض في عروقه ، قد تملكه الغضب من إدعاءات الميديا الصهيونية التي تُروّج لأكذوبة أن بنى إسرائيل هم بناء الأهرام ، بل وبناء مجمل الحضارة المصرية ، والنتيجة هي : أن مصر ملك لبنى إسرائيل .

من بين هذه الإدعاءات الفيلم الأمريكي (أمير مصر) من إخراج ستيفن سيلبيرج ، الذي روج لمبالغات الإسرائيليين عن أقران الغاز النازية في فيلم (قائمة شندلر) وهو فيلم دعائي المهدف منه أن (يتعاطف) المشاهد مع اليهود الذين أحرقهم هتلر ، وبالتالي يكون لهم الحق في استنزاف موارد الشعب الألماني (في شكل منح وقروض إلخ) تكفيرًا عن جريمة لم يرتكبها أحفاد هتلر ، ولكن أخطر ما في الفيلم هو أن ينسى المشاهد مأساة الشعب الفلسطيني الذي إحتل اليهود الصهاينة وطنه .

أما فيلم (أمير مصر) فهو ترويج لأكذوبة أن موسى نبي العبريين ، تربى مع رمسيس الثاني ، على أنها شقيقان ، وعندما يكبران يعلم موسى أنه ليس ابن

فرعون وإنما هو واحد من أبناء العبريين الذين يعملون في بناء الأهرام والمعابد تحت سياط المصريين المتوحشين . ويُركز الفيلم على أن موسى هو المصمم العبرى لكل ما أبدعته الحضارة المصرية ، ويضع في إصبعه خاتم كبير مهندسى الدولة . مع تكرار لقصة خروج بنى إسرائيل من مصر كما جاءت في كتب العبريين . وينتهى الفيلم بانتصار الخير (موسى وبنى إسرائيل) على الشر (فرعون والمصريين) وبعد خروج بنى إسرائيل من مصر، وبعد التأكيد على أن موسى وأتباعه هم بناء الحضارة المصرية، فإنّ الفيلم يُكرر ما جاء في كتب العبريين التى يُقدسونها عن العقاب الذى أنزله ربهم على المصريين ، وهو العقاب المتمثل فى انهيار مصر وتحويل أرضها ونيلها إلى دم وبعوض وذُبان إلخ . فإذا كان بنو إسرائيل هم الذين شيّدوا الحضارة المصرية ، فإنّ مصر ملكٌ لهم خاصة وأنّ إله العبريين انتصر لهم ودّمّر مصر والمصريين (لمن يريد تفاصيل أكثر عن هذا الفيلم أن يرجع إلى مقالات أ. عادل حموده - صحيفة الأهرام ٦ ، ٢٧ فبراير، ٦ مارس ٩٩) .

إنّ إدعاءات الميديا الصهيونية ضد مصر تُركز على محورين أساسيين :

الأول : أنّ المصريين القدماء غلاظ القلوب ، لا يعرفون الرحمة ، وأنهم اضطهدوا بنى إسرائيل وعاملوهم معاملة العبيد (انظر : العهد القديم، سفر الخروج ٢ : ٢٣ - ٢٥) .

الثانى : أنّ بنى إسرائيل هم المصممون والمنفذون والمشيّدون للحضارة المصرية . لم يكن فيلم أمير مصر هو البداية ، وأعتقد أنه لن يكون النهاية ، حيث أنّ تاريخ الميديا الصهيونية فى الترويج لهذين المحورين ، تاريخ قديم . وسأكتفى بذكر بعض الأمثلة :

الدور المشبوه الذى لعبه بعض الكتاب الأوروبيين الذين يتشحون بمسوح الأكاديمية وتمتلى كتاباتهم بمغالطات تاريخية وعلمية ، ولهم أهداف أيديولوجية

سياسية تفتقر إلى لغة العلم ، ويتلخص كل جهدهم في ترسيخ استبعاد أى دور للمصريين القدماء في بناء الحضارة الإنسانية ، ومن بين هؤلاء الكاتب البريطاني (جون تايلر) الذى روج (لنظرية) قال فيها أن ((بناء الأهرام كانوا من أبناء شعب الله المختار، ومن نفس السلالة التى انحدر منها إبراهيم ، وإن كانوا من أزمنة سابقة بطبيعة الحال ، أقرب إلى نوح فى واقع الأمر)) (نقلا عن كتاب قراءة سياسية للتوراة- تأليف أ. شفيق مقار- الناشر رياض الريس للكتب والنشر- عام ١٩٩١ ص ٩١) .

ومن هؤلاء أيضًا الثيوصوفى (أى العارف بالله عن طريق التجلى الصوفى) بازل ستيوارد صاحب كتاب (سراهرم الأكبر) الذى كتب ((ليس هناك ما يثير القول إطلاقاً بأن المصريين هم الذين بنوا الهرم لمجرد أن الهرم موجود فى مصر)) ليس ذلك فقط ، بل إن ((بذور عظمة مصر بذرتها حفنة من المستوطنين دخلت مصر بسلام ونظمت القيام لعمليات الانشاءات العظيمة)) وهؤلاء المستوطنون من وجهة نظر السيد ستيوارد ، فإنهم جماعة من ((الآسويين القادمين من أرض الفرات، وكانوا على مستوى رفيع من المعارف العلمية والرياضية)) وأنهم عندما دخلوا مصر ((نظموا عملية إنشاء الهرم الأكبر)) وبعد أن تم إنشاؤه ((خرجوا من مصر آخذين معارفهم معهم)) (المصدر السابق ص ٩٢) .

وقد علق أ. شفيق مقار على ذلك الكلام فكتب ((وأولئك (السوبر من) الآسويين الذين جاءوا من أرض ما بين النهرين ، هم بلا شك - حسب التجلى الصوفى الأسمى - أسلاف إبراهيم وإسحاق ويعقوب وأسلاف مستريجين بطبيعة الحال)) والنتيجة التى ترسب فى عقل القارئ الأوروبى هى أن المصريين ((كانوا متخلفين وبدائيين وعراة ، وليس أولئك الرعاة الرحل الجياع الذين تسلموا عبر حدود مصر ليأكلوا وينهبوا)) .

فى شهر مارس ١٩٧٩ أثناء مفاوضات توقيع معاهدة كامب ديفيد سأل أحد

الصحفيين رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحم بيجين عن سير المفاوضات فقال ((لقد عانيتُ في المفاوضات كما عانى جدودي في بناء الأهرامات)) وعندما جاء بيجين إلى مصر وزار الأهرام مع الرئيس السادات قال ردًا على سؤال من أحد الصحفيين ((إنني أشعر بالزهو والفخر وأنا وسط الأهرامات التي بناها جدودي)) وهنا تكون المأساة مزدوجة ، أو هي مأساة ذات وجهين مثل العملة النقدية : على أحد الوجهين ادعاء هذا الصهيوني (بيجين) بأن جدوده هم بناء الأهرام ، وعلى الوجه الآخر الصمت المزرى من كل (المصريين) الذين قرؤوا وسمعوا كلام بيجين (وخصوصًا من حضروا اللقاء مع الرئيس السادات) ولم ينطق واحد (واحد فقط) بكلمة يدافع فيها عن الحقيقة التاريخية ، ناهيك عن دفاعه عن ذاته القومية .

الأمثلة السابقة هي على سبيل المثال بالطبع ؛ لأن ما يهمنى ويهم كل مصرى هو رد فعل الثقافة السائدة في مصر على هذه الإدعاءات .

إن أى مصرى - مهما كانت درجة ثقافته - سيرد على الفور: إن هذه الادعاءات مجرد أكاذيب . وأننا نحن المصريين أحفاد جدودنا المصريين القدماء الذين شيّدوا هذه الحضارة .. إلخ ولكن نظرة متأملة في كتابات أغلب الكتاب (المصريين) توضح أن هذه الكتابات تلتقى مع الميديا الصهيونية (دون قصد بالطبع) حول محور أساسى هو احتقار الذات القومية لنا كمصريين . فإذا كان فيلم (أمير مصر) ركز على بلورة أن موسى وبنى إسرائيل هم رمز الخير، وأن الفرعون (=الملك) والمصريين هم رمز الشر، فإن صورة (الفرعون) في كتابات كثيرين من الكتاب (المصريين) لا تختلف عن صورته في الفيلم الأمريكى التمويل ، العبرى التوجه (أمير مصر) وفيما يلي بعض الأمثلة من كتابات بعض الكتاب (المصريين) وكيف ينظرون إلى الفرعون (جدهم ورمزهم القومى) .

كاتب كبير فى صحيفة قومية عرض كتاب (التجديد السياسى والواقع العربى

المعاصر رؤية إسلامية) تأليف د. سيف الدين عبدالفتاح إسماعيل . الكاتب الصحفي (المصري) أبدى إعجابه بمؤلف الكتاب والسبب أنه عرض ((الوجه الآخر للالتزام بالرابطة الإيمانية السياسية ، والذي يحول دون الانحراف بها بإتجاه الرابطة الفرعونية)) وفي موضع آخر كتب أن الرابطة الإيمانية كما عرضها مؤلف الكتاب ((تصاغ على تأسيس من قواعد إلهية ، وفي إطار من قيم تحكمها ومن ضوابط تحميها ، فلا تترك تأسيسها لأحد من البشر ، لأن محتواها الإيمان بما أنزل الله ونقيضها هو ما أسماه بالعلاقة الفرعونية)) والكاتب الصحفي (المصري) ترجم إعجابه بالكاتب بطريقة عملية إذ افتتح مقاله قائلاً ((صاحبنا هذا قلب الطاولة على رؤوس بغير حصر. ألقى قذيفة فكرية متقنة الصنع والتصميم ، طالب فيها بالتجديد من الأساس .. إلخ)) (صحيفة الأهرام ٢٩/٨/٨٩) .

كاتب صحفي آخر يكتب عن بعض رؤساء الدول الذين يصفهم بالطغيان ، فكتب عن صدام حسين ، وعن صراع زعماء القبائل في اليمن . وعن زعماء القبائل في آسيا وإفريقيا وعن (كيم إيل سونج) زعيم كوريا الشمالية (بعد وفاته) فكتب ((كيف يبكي الناس بكل هذه الحرارة دكتاتوراً رزح بحكم الطغيان على أنفاس الشعب)) الأستاذ الصحفي (المصري) في كل هذه المقالات لا يفوته تشبيه كل هؤلاء الحكام الطغاة بالطاغى الأكبر (فرعون) بل إن (فرعون) في رأيه قد لخص ((كل مناهج الطغاة)) (انظر على سبيل المثال بالطبع - مربعة اليومى في صحيفة الأهرام ١٨/٨/٩٠ ، ٩٠/٩/٩٠ ، ١٧/١/٩١ ، ٢٩/٥/٩٤ ، ٥/٨/٩٤ ، ١٩/٢/٩٩ ، ٨/٣/٩٩ ، ١٣/٣/٩٩) وإذا كان الأستاذ (المصري) لا يشعر بأى حرج (أو خدش للحياء) لكرامته القومية وهو يسب الفرعون (جده) لذلك فإن سؤالاً مشروعاً يفرض نفسه : ما الفرق بينه وبين العبريين أعداء مصر والمصريين ؟

وفي حين أن (مصريين) بعضهم يعمل بالصحافة أو يكتبون الشعر والقصة وسيناريو الأفلام والمسلسلات إلخ تسمح ضمايرهم بسب (الفرعون) مثلما فعل

الشاعر الذي كتب أغنية المقدمة لمسلسل (حدائق الشيطان) ونظرًا لأنّ بطل المسلسل طاغية ومستبد ، فإنّ الشاعر كتب بصوت الكورس (المجاميع) ((مين قال لك يا فرعون تتفرعن ؟ .. إلخ) مع ملاحظة أنّ المسلسل يشاهده ملايين المصريين والعرب ، بينما نجد أنّ الأمهات والآباء من الشعب الإيراني لا يزالون يختارون لأولادهم أسماء الأكاسرة (= ملوك) الذين حكموا فارس (إيران حاليًا) مثل (داريوش) ، (آراش) ، (كورش) إلخ رغم أنّ هؤلاء الأكاسرة وفق الحكم القيمي غير العلمي (وثنيون) وظهروا على مسرح العالم قبل ظهور الإسلام بعدة قرون (كورش الأكبر عاش وحكم في القرن السادس ق . م) بل إنّ الشعب الباكستاني شائع بينه اسم (برويز) الذي هو حفيد كسرى الأول (أنوشروان) ولست في حاجة إلى التأكيد على أنّ الإسلام هو الديانة الرسمية للشعبين الإيراني والباكستاني .

وتتعاظم المأساة عندما نجد باحثًا كبيرًا (مصريًا) له عدة مؤلفات في الفلوكلور، يخلط بين التراث العربي والتراث المصري بإعتبارهما شيئًا واحدًا . هذا الباحث لا يهاجم الفرعون بشكل مباشر، ولكنه يُكرّم مقولة أنّ الحضارة المصرية هي ((حضارة السخرة الإنشائية من أهرامات ومعابد ومقابر على طول وادي النيل ، فهي قوة عمل تقودها أسواط المشرفين .. إلخ)) وإذا كان هذا هو رأيه في الحضارة المصرية ، فلم تكن مفاجأة أنّ يكتب مُشبّهًا (كتاب الموتى) ب ((عشرات الكتب التي تزحم الأرضة عن القبر وعذابه .. إلخ)) (صحيفة الأهرام ٩٨ / ٥ / ١٠ ، ٩٩ / ٢ / ٢٨) .

إنّ (كتاب الموتى) والترجمة الدقيقة عن الهيروغليفية هي (الخروج إلى النهار) الذي وضعه جدودنا في رأي علماء علم المصريات جمع بين الفلسفة والأخلاق ، ورسم صورة للحياة الآخرة بعد الموت ، وأنّ مصير المذنب (الذي ارتكب بعض المعاصي على الأرض) أن يلتهمه (عم - موت) أي الوحش الذي يلتهم قلوب الأموات الشريرة . أما مصير الإنسان الصالح الذي لم يرتكب الآثام ، فيدخل

حقول البارو (= اللجنة) وعلى سبيل المثال كتب العالم الكبير (برستد) أن الذي خلّص كتاب الموتى من وصمة أنه كتاب سحري ((تقديره الظاهر لمسئولية الضمير)) (انظر كتاب فجر الضمير - ترجمة عالم المصريات سليم حسن - أكثر من طبعة - ص ٢٨٩) أما عالم المصريات محسن لطفى السيد فكتب في تفسيره لعبارة ((أنا الأمس وأعلم علم الغد)) الواردة في (كتاب الموتى) أن ((الأمس هو أوزير والغد هو الإله أتوم (رع) وهكذا يُشير أوزير إلى الزمان الماضي، أما (رع) فهو المستقبل، وما الماضي والمستقبل إلا جزءان لاغنى عنهما كى تتم حركته الأبدية)) (انظر كتاب ما هو كائن في العالم الآخر - طبعة على نفقة المؤلف ص ٩) وذكر أيضًا أنه لا يوجد متحف في العالم للمصريات يخلو من البرديات التى دُون عليها نص كتاب الموتى (الخروج إلى النهار) (ص ١٣) أما أ. شفيق مقار، فلأنه يحترم العلم ويكتب بلغته، فقد عقد مقارنة شديدة الذكاء بين ما ورد في (كتاب الموتى) عن قصة الخلق كما تصوّرّها المصري، وبين ما جاء في العهد القديم، وكيف أنّ العبرين سطوا على التراث المصري، في فصل ممتع بعنوان ((نهب أساطير الشعوب)) (قراءة سياسية للتواراة - مصدر سابق - ص ١٣٤) إنّ كتاب الخروج إلى النهار الشهير بـ (كتاب الموتى) الذى يراه الباحث (المصري) الذى يخلط بين التراث المصرى والتراث العربى ويعتبرهما شيئًا واحدًا، والذى وصف كتاب الموتى بعشرات الكتب التى تزحم الأرضفة عن القبر وعذابه.. إلخ هذا الكتاب الشهير بـ (كتاب الموتى) عبارة عن بردية باسم صاحبها المرحوم (آنى) فى الفصول الأولى نتعرف على المحكمة التى ستحاكم روح المرحوم (آنى) يرأس المحكمة الإله أوزير. وأعضاء المحكمة ٤٢ قاضيًا يُمثلون محافظات مصر القديمة. يقف المرحوم آنى (كل متوفى فى مصر القديمة كان يُطلق عليه أوزيرأى المرحوم) أمام القضاة مرتلاً ((يا قلب أُمى لا تقف ضدى شاهدًا. لا تفترى علىّ كذبًا أمام الإله)) وفى الختام يقول الإله تحوتى ((إنّ أفعاله وُجدتْ صالحة فى الميزان العظيم. الأوزير آنى لم يرتكب إثماً ولم يصنع

شرًا . إنَّ عم - موت (الوحش الذى يلتهم قلوب الذين ارتكبوا الآثام) لن يكون له سلطة عليه) .

الميزان فى قاعة المحكمة فى إحدى كفتيه ريشة ماعت (إلهة العدالة) وفى الأخرى قلب المتوفى ، والمعنى الرمزى هنا أن يكون القلب خفيف الوزن مثل الريشة ، لم تُثقله الخطايا . ورمز آخر هو أن القلب والريشة متساويان . وفى الفصول الأخيرة تدخل الروح حقول اليارو (= الجنة) ونرى أنى وهو يقود زوجًا من الثيران . ونراه وهو يحصد ثمار القمح ويقول ((أريد أن أكون قويًا عساي أن أحرث هناك وأصنع كل شىء كنتُ أصنعه على الأرض)) (أنظر ترجمة عالم المصريين محسن لطفى السيد ، الذى وضع النص الميروغليفى وترجمته إلى اللغتين العربية والإنجليزية - مطابع روزا ليوسف ص ٤٩٢ ، عام ٢٠٠٤ على نفقته الخاصة ، وأعادت الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة طباعته عام ٢٠١٠) والمعنى أن الحياة فى حقول اليارو (= الجنة) صورة طبق الأصل من حياة المصرى على الأرض ، حياة تعتمد على العمل وبصفة خاصة الزراعة التى مهّدت لنشأة الحضارة . وهنا نلاحظ أن صورة الجنة عند جدودنا المصريين القدماء مختلفة تمامًا عن صورة الجنة فى تراث شعوب أخرى ، حيث تُصوّر الذين دخلوا الجنة وهم يأكلون ويشربون ويتمتعون بحور العين والغلمان المخلدين ، وبدون أى عمل .

وتصل الفلسفة فى بردية أنى إلى معنى إنسانى عميق ، إذ عندما يسأل أنى عن المتع الجنسية ، يرد عليه الإله (آتوم) : ((إنك سوف تحيا بسلام . لقد أعطيتك التجليات بدلا من الماء والهواء والمتع الجنسية . وهذا القلب عوضًا عن الخبز والحنك (= البيرة وهى المشروب الشعبى فى مصر القديمة) والمعنى هنا أن المتع فى حقول اليارو (الجنة) متع روحية .

وفى الفصل رقم ١٢٥ يُرتل المرحوم أنى الاعترافات الانكارية وعددها ٤٢ اعترافًا ويتضح منها حرص المصرى القديم على نبذ رذيلة الكذب التى تمقتها

الشعوب المتحضرة في عصرنا الحالى وتعتبرها من الكبائر وذلك بعد آلاف السنين من كتابة بردية أنى الذى يقول لإله أبيدوس ((التحيات لك يا من تمقتُ الكذب)) وأكثر من ذلك نجد في اللوحة العاشرة نصاً بالغ الأهمية (لم أعثر على مثيل له - وفق قراءاتى - في كل الشرائع والفلسفات) إذ أنه يُساوى بين رذيلة الكذب وفضلات الكائن الحى ، ووفق نص البردية فإنَّ ((الآلهة المصرية تمقتُ البراز والكذب)) كما أن البردية تُدين رذيلة أخرى وهى جريمة التلصص على الآخرين فيقول أنى ((أنا لم أسترق السمع)) وتشمل الاعترافات تجريم الاعتداء على حقوق الغير وتجريم الزنا والسرقه وعدم الاعتداء على مياه النيل بالتسبب في تلوثها إلخ .

وخيال كاتب البردية يتضح من فكرة الصعود إلى السماء بواسطة (سلم) متخيل صنعه الإلهان (رع) و(حورس) وفي رصده لظاهرة الشروق والغروب ، فإنَّ (رع) يغرب في صورة (أوزير) وأوزير يُشرق في صورة (رع) ثم أصبح أوزير هو الأمس و (رع) هو الغد . كما يُبدع مركباً للصباح رمزاً للخلود ومركباً للمساء رمزاً للأبدية وهما وجهان لشيء واحد هو الخالق السرمدى . وفي اللوحة رقم ١٦ نجد المرحوم أنى يركع في بركة ماء نبتت فيها شجرة جميز مورقة وداخل فروع الشجرة نرى إلهة السماء (نوت) وهى تصب الماء على راحة المرحوم أنى . أى أنَّ خيال كاتب البردية (أنسن) الإلهة (نوت) في حركة صب الماء ، كما أضفى عليها صفات الرحمة والمودة بالصورة المجسدة وليس بالكلمات . ومن الخيال البديع تحوّل المرحوم أنى إلى طائر يُحَوِّم حول قريته ليرى منزله ويُشاهد أهله . ويبدو أنَّ المرحوم أنى اشتاق إلى زوجته (توتو) التى نراها معه في اللوحة رقم ٣٤ وهى تحمل باقة طويلة من أزهار اللوتس . وفي اللوحة رقم ٢٨ نرى رأساً لإنسان يخرج من زهرة اللوتس ، وهو رسم رمزى يُمثل بزوغ الشمس يومياً وفق عقيدة (منف) وتُسمى (نفرتوم) أى الحسن التام ، أو الجمال المكتمل وفق الترجمة عن الهيروغليفية. والرسم يرمز إلى ضمان بعث المتوفى ، وأنه يستطيع أن يتحوّل إلى زهرة لوتس . والخيال

يرسم صورة بديعة للإله الذى يرى كل شىء فى الوجود ، إذ أن ((وجهه فى قفاه))
وتُشير البردية إلى أن جدودنا عرفوا تقسيم العمل والنظام الحسابى والأعداد الكبيرة
مثل الحديث عن ملايين السنين .

إن بردية (الخروج إلى النهار) تؤكد على أن موت الإنسان على الأرض ما هو
إلا موت الجسد ، أما الروح الطاهرة التى لم ترتكب الآثام المنصوص عليها فى
الاعترافات الإنكارية ، فسوف تعيش فى حقول اليارو . وأن الروح تنتقل من حياة
إلى حياة أخرى شبيهة بالحياة فى الحقول المصرية على أرض الواقع . وهذا الخيال
ينفى افتراءات أعداء القومية المصرية وأعداء الحضارة المصرية الذين يزعمون أنها
(حضارة موت) وعن العلاقة الجدلية بين الحياة والموت ، ذكر عالم المصريات
الكبير سليم حسن ، أن اللغة المصرية القديمة لم تعرف لفظة (الموت) وكان المصرى
القديم يستخدم للتعبير عنها لفظة (الغرب) وكان ((الغرب عند قدماء المصريين
مكان الخلود ، والشرق مكان الولادة)) (الأدب المصرى القديم - ج ٢ -
مطبوعات كتاب اليوم - الصادر عن مؤسسة أخبار اليوم - ديسمبر ١٩٩٠ - ص
٧٩) كما أن العلاقة بين الحياة والموت ، استمدتها مصر القديمة من ظاهرة شروق
الشمس ثم غروبها ثم شروقها من جديد ، وكذلك من ظاهرة تجدد فيضان النيل
كل عام إلخ . وعن تلك العلاقة الجدلية بين الحياة والموت قال الأديب
الكبير (أندرية مالرو) وزير الثقافة الفرنسية عندما كان فى مصر فى صحبة وزير
الثقافة ثروت عكاشة ((إن ما بحثت عنه مصر فى الموت ، هو (تحديداً) القضاء على
الموت ٠٠ إننى باسم فرنسا أشكر مصر التى كانت أول من ابتكر الخلود)) (أنظر
كتاب مصر ولع فرنسى - تأليف روبرت سوليه - ترجمة لطيف فرج - مكتبة الأسرة
- عام ٩٩ ص ٣٣٦) كما أن أصحاب هذه الحضارة اخترعوا أول أبجدية فى العالم
القديم وأول تقويم مازال العالم المعاصر يعتمد عليه . وأسسوا علوم الطب
والهندسة والفلك والرياضيات . وأبدعوا فى فنون الرسم والنحت والأدب

القصصى ، وصياغة منظومة من الأساطير انتقلت إلى الكثير من الأدب العالمى . كما أنّ الأساطير المصرية امتزج فيها طين الواقع بفضاءات الخيال كما فى بردية الخروج إلى النهار الشهيرة ب (كتاب الموتى) وهى البردية التى لم ير فيها الباحث (المصرى) سوى أنها تتحدث عن القبر وعذابه مثل عشرات الكتب الملقاة على الأرضة .

كذلك نجد أستاذًا آخر يحمل درجة الدكتوراه وله عدة مؤلفات فى العلوم الإنسانية يُردد مقولة أنّ الحضارة المصرية ((حضارة سخرة)) وينظر للأهرام على أنّ ((الوف البشر ظلوا يعملون عشرات السنين لينشئوا قبرًا لإنسان واحد)) انظر: كتابه «الحضارة» دراسة فى أصول وعوامل قيامها وتطورها - سلسلة عالم المعرفة الكويتية - عدد ٢٣٧ - سبتمبر ١٩٩٨ ص ١١) .

إنّ من يُروّجون لمقولة أنّ الحضارة المصرية (حضارة سخرة) يتجاهلون الدراسات العلمية التى أكدت أنه تم اكتشاف مدينة للعمال ، وتم العثور على كشف بأسماء العمال ، بها بيانات عن كميات الطعام بل والعطور التى توزع عليهم . والأهرام - فى دراسات علماء علمى الآثار والمصريات - معجزة معمارية ، اعتمد المصريون فى تشييدها على علوم الهندسة والفلك والرياضيات . وردًا على إدعاءات السخرة كتب السير (فلنדרز بترى) أنّ ((العمل كان يجرى أثناء موسم الفيضان ، أى بين أيلول وأكتوبر ، وهو الوقت الذى تُزرع فيه الأرض ويكون معظم الأهالى بلا عمل)) وأنّ الأهرامات ((شيدها بناؤون مهرة وكانوا يسكنون فى مباني وجدها (بترى) غرب هرم خفرع)) (أنظر كتاب «أهرام مصر» تأليف أ. أ. س إدواردز - ترجمة مصطفى أحمد عثمان - هيئة الكتاب المصرية - سلسلة الألف كتاب الثانى رقم ٢٧٢ عام ٩٧ ص ٢١٢ ، ٢١٣) وتؤكد عالمة المصريات (مرجريت مري) ذات الحقيقة وتُضيف أنّ الملك (= الفرعون) استخدم هؤلاء العمال فى عملية البناء ((وأمدهم بالطعام فى أسوأ فترة من العام ، وأنّ بقايا المستعمرة القائمة حول

هرم خفرع تُشير إلى أنه كان يتعهدهم كذلك بالسكنى . وأن هيرودوت ذكر أن العمال كانوا يحصلون على الطعام الطيب)) (أنظر كتاب « مصر ومجدها الغابر » ترجمة محرم كمال - هيئة الكتاب المصرية - سلسلة الألف كتاب الثانى رقم ٢٩٠ عام ٩٨ ص ١٣ ، ٣٩ ، ١١٢ ، ٢٠٩ ، ٢١٤) .

وبينما يرى الأساتذة الدكاترة الأكاديميون (المصريون) أن الحضارة المصرية (حضارة سخرة) يرى المتخصصون فى الحضارة المصرية عكس ذلك ، من بينهم (على سبيل المثال) العالم المصرى د. محمود سلام زناتى الذى كتب ((كانت الحرب المصدر للأرقاء بجانب التجار السوريين . وقد تمتع الأرقاء فى مصر بوضع قانونى واجتماعى يفضل وضعهم فى كثير من المدينيات القديمة ، فقد كان الرقيق ، شأنه شأن الأحرار، يتمتع بحالة مدنية رسمية . فبالنسبة للأمور الجارية ، كان يتخذ اسماً مصرياً ، وإن كان يُسجل فى مكاتب التوثيق باسمه . وكان يتمتع ببنوة شرعية ، حيث كان اسم أبيه واسم أمه يُدونان فى السجل المدنى . كما كانت تُدون جنسيته . وكان يُدون على وثيقة تحقيق شخصيته اسم ماله أو من تصرف فيه . ورغم انتشار الرق فى عصر الدولة الحديثة ، لم يبلغ يوماً نسبة مرتفعة إذا قيس بمجموع السكان)) وذكر د. زناتى أيضاً أن من بين الشواهد على عدالة الحكام فى مصر القديمة ، ما كتبه ديودور الصقلى الذى ذكر أن ((عادة المصريين كانت تجرى فى حالة وفاة أحد ملوكهم ، بأن يوضع فى آخر أيام الحداد النعش الذى يضم رفاته أمام مدخل القبر ، وأن تُشكل محكمة لتنظر فيما قدم المتوفى من أعمال فى هذه الدنيا . وأباحوا لمن شاء أن يتهمة أمام الكهنة ، فتؤبنه معددة مناقبه وألوف الناس الذين اجتمعوا لتشييعه يُنصتون ويشاركون فى تأبينه ، إذا كان المتوفى قد قضى حقاً حياة مجيدة . أما إذا كانت حياته على العكس وضيفة تصايحت الجاهير)) وأضاف ديودور أن كثيراً من الملوك حُرِّموا من حق الدفن الرسمى الذى تُحَوِّله لهم الشرائع نتيجة ((لاعراض الشعب)) ولهذا ((كان من يخلفونهم على العرش يُقيمون العدل

خوفًا من العار الذي يلحق بأجسادهم بعد الموت ، ومن اللعنة الأبدية كذلك . فالحرمان من الدفن طبقًا للطقوس المرعية ، وما كان يستتبعه ذلك من لعنة أبدية ، كان يُشكل جزاءً يتهدد الملك الذي ينحرف عن الجادة ويسقط في حماة البغى (والفساد) وليس عجيبًا أن يقول ديودور الصقلي بعد ذلك في وصف ملوك مصر ، من واقع المعلومات التي تراءت إليه ((أنهم لم يكونوا يعيشون على نمط الحكام المستبدين في البلاد الأخرى ، فيعملون ما يشاؤون تبعًا لأهوائهم ، غير خاضعين لرقابة ما ، فقد رسمت لهم القوانين حدود تصرفاتهم ، لا في حياتهم العامة فحسب ، بل في حياتهم الخاصة ، وأسلوب معيشتهم اليومية كذلك . وأن الملك لم يكن في قدرته أن يقضي في المخاصمات وفق ميوله الشخصية ، وإنما وفق ما تنص عليه القوانين في كل حالة)) .

وذكر د. زناتي أنه تم العثور في قبور الأسرة السادسة على بعض النصوص بها اعترافات وزراء هذه الأسرة ، منها ((كنتُ أقضي بين الطرفين على نحو يُرضيهم)) ، ((لقد قضيتُ بين الطرفين على نحو يُهدئهم)) كذلك جاء في نقوش مقبرة أحد وزراء الدولة الوسطى أنه كان يُصدّق على مستندات الحدود ، فيفصل بذلك بين مالك الأرض وجاره ، وأن كلماته كانت تُؤلف بين الأخوة ، فيعودون إلى بيوتهم في سلام . وذكر ديودور الصقلي أيضًا أن عادة المصريين ((كانت تجري بتنصيب أفضل الرجال من أحسن المدن قضاة عموميين ، فكانوا يُتقون من كل مدن هليوبولوس وطيبة ومنف عشرة قضاة ، ويجتمع هؤلاء الثلاثون ويتخبون من بينهم أفضلهم رئيسًا للقضاة ، ثم ترسل المدينة قاضيًا آخر ليشغل مكانه)) وأكد ديودور على أن النظام القضائي في مصر القديمة ((عرف نظام الاستئناف أمام محكمة أعلى)) وأن ((القضاء في مصر كان مدنيًا ولم يكن دينيًا)) .

أما العالم الكبير (ماسبيرو) فكتب أن ((المرأة المصرية من الطبقة الدنيا والمتوسطة أكثر احترامًا وأكثر استقلالًا من أية امرأة أخرى في العالم)) وكتب العالم

(ماكس ميلر) : ((لم يكفل أى شعب قديم أو حديث للمرأة مركزاً قانونياً مماثلاً فى سموه ، كما كفله لها سكان وادى النيل)) وذكر العالم (باتوريه) : ((كل الشعوب القديمة ، فى الغرب كما فى الشرق ، يبدو أنها اجتمعت حول فكرة واحدة : أن تجعل من المرأة كائنات أدنى من الناحية القانونية . أما مصر فإنها تعرض لنا منظرًا جد مختلف ، فنحن نجد فيها المرأة مساوية للرجل من الناحية القانونية ، لها نفس الحقوق وتُعامل بنفس الكيفية)) وبعد أن نقل د. زناى هذه الفقرات من علماء متخصصين فى الحضارة المصرية ، كتب ((لقد تمتعت المرأة فى مصر (الفرعونية) بمكانة فى المجتمع والأسرة لم تبلغها المرأة لدى شعب من الشعوب القديمة ، بل فى كثير من المجتمعات الحديثة ، فلم يعرف المصريون فكرة انفصال الجنسين ولا حجاب المرأة ، بل كانت المرأة تغدو وتروح فى حرية وتتحدث مع من تشاء وتخرج بين الناس سافرة الوجه . وكانت تُسهم بنصيب كبير فى الحياة الاجتماعية)) .

وذكر د. زناى ((فى مصر القديمة هناك من الدلائل ما تُشير إلى أن الزوج والزوجة ، كانا يُعاملان ، بالنسبة للحق فى الطلاق ، على قدم المساواة ، فكانت للزوجة حرية الانفصال عن زوجها ، كما كانت للزوج حرية الانفصال عن زوجته ، وذلك عكس الكثير من الشرائع القديمة التى لم تكن تُساوى بين المرأة والرجل ، حيث كان الطلاق حقًا مطلقًا للرجل)) وفى مصر القديمة ((فى حالة الطلاق يرد الطرف الراغب فى الانفصال الحقوق المالية للطرف الآخر ، لا فرق بين المرأة والرجل)) كذلك فإن ((القانون المصرى سمح بزواج الأرملة ، لا سيما من النساء ، وهو أمر كان يُخالف ما جرت به بعض المدينيات القديمة التى كانت تحظر على الأرملة عقد زواج جديد)) كما أن ((القانون فى مصر القديمة كان يعترف لل بنت بحق ميراث يساوى تمامًا حق الابن)) .

وإذا كانت عقوبة الإعدام هى أشد وأغلظ العقوبات لمن يقتل غيره ، فإن جدودنا المصريين ابتكروا عقوبة أشد من الإعدام وأكثر قسوة من الإعدام ، خاصة

لمن يقتل أحد الأشخاص من ذوى الرحم ، مثل أن يقتل الأب ابنه أو العكس إلخ ، هذه العقوبة الفريدة رصدها ديودور الصقلى الذى ذكر أن الأب الذى يقتل ابنه ، لم تكن تُوقع عليه عقوبة الموت ، وإنما عقوبة أخرى هى ((أن يحتضن الأب القاتل جثة ابنه القتيل ثلاثة أيام وثلاث ليال تحت إشراف حراس رسميين)) وذكر ديودور أن النساء اللاتى يقضى ضدهن بالموت ((فإن العقوبة لا تُنفذ فيهن إذا كنّ حبالى . وقد نقل كثير من مدن اليونان هذا القانون)) وذكر د. زناتى أنه بعد دخول (= غزو) العرب مصر ((أخذت المرأة المصرية) (المسلمة) تفقد شيئاً فشيئاً من حريتها واستقلالها . أما المرأة القبطية (يقصد المسيحية) فقد ظلت محتفظة بحريتها واستقلالها زمناً غير قصير)) (لمزيد من التفاصيل أنظر : «تاريخ القانون المصرى فى العصور: الفرعونى والبطلمى والرومانى والإسلامى» تأليف د. محمود سلام زناتى - أستاذ تاريخ وفلسفة القانون وعميد كلية الحقوق بجامعة أسيوط - ط عام ١٩٨٥ - من ص ٥٠ - ٤٧٤) .

وقد ارتبط بمبدأ العدالة الاجتماعية ، فى الحضارة المصرية ، خاصية أخرى لصيقة بهذا المبدأ ، أى احترام الصغير للكبير ، حتى لو كان الصغير رئيساً للكبير ، وفى هذا السياق جاء فى نصائح الحكيم المصرى (أنى) : ((لا تبقى جالساً عندما يكون آخر واقفاً ، إذا كان أكبر منك سناً ، ولو كنت أعظم منه مقاماً)) وفى تعميق هذا المعنى الإنسانى النبيل ذكر هيرودوت (القرن الخامس ق. م) والذى زار مصر وقضى بها عدة سنوات ، أن المصريين فى زمنه ((كانوا يأخذون أنفسهم فعلاً بهذا المبدأ الأخلاقى)) وقال ((يشبه المصريون أهل (سبرطة) وحدهم دون سائر اليونانيين فى وجه آخر: إذا قابل الصغار منهم الكبار أفسحوا لهم الطريق وتنحوا جانباً . وإذا أقبل عليهم الكبار قاموا من مقاعدهم)) (أنظر : هيرودوت يتحدث عن مصر - ترجمه عن الهيروغليفية د. محمد صقر خفاجة - هيئة الكتاب المصرية - عام ٨٧ ص ١٨٦ ، ١٨٧) وكانت ذروة العدالة فى الحضارة المصرية ، أن القانون

الجنائي والمدني في مصر القديمة ، لم يكن يُفرّق في العقوبة على أساس الوضع الاجتماعي أو الطبقي للجاني ، بمعنى تطبيق مبدأ المساواة التامة على الغنى والفقير ، على الوزير والخفير . وفي هذا السياق ذكر عالم المصريات الكبير جيمس هنري برستد ، أنّ الأساس الخلقى اللازم للعدالة كان معدومًا كلية في الحضارة البابلية ((حتى أنّ دستور قانون (حمورابي) كان يقضي في العدالة حسب المركز الاجتماعي للمدعى أو المذنب . أما الانعدام التام للفوارق الاجتماعية أمام القانون الذي هو من أرقى مظاهر الحضارة المصرية ، فلم يكن معروفًا في بابل)) وكان العالم الكبير برستد موقفًا عندما نقل للقارئ المادة المنصوص عليها في قانون حمورابي التي نصّت على ((إنّ كل العقوبات والأحكام القضائية تُدرّج حسب مراكز المذنبين الاجتماعية أو مكانة المتخاصمين الاجتماعية)) وكان تعليق برستد ((وهذه الحقيقة تُفسر لنا على الفور، السبب الذي من أجله نعتبر أنّ ما أضافته المدنية البابلية إلى إرثنا الخلقى في غربي آسيا ، في حكم العدم)) أما عن القانون الجنائي والمدني في مصر القديمة فذكر ((إنّ المنزلة الاجتماعية أو المرتبة العالية لم تعط المصري القديم أية ميزة في نظر القانون . وكان الفرعون يُنبّه على وزيره الأكبر بألا يُظهر احترامه للأفراد بصفة كونهم أمراء أو مستشارين . أى أنّ هذا المبدأ كان من صلب دستور الدولة المصرية قديمًا . أما عند البابليين فكانت العدالة الاجتماعية التي هي بعينها الأساس الذي يقوم عليه الرقي الخلقى ، ناقصة جدًّا ، بل معدومة بالمرة ، وعلى ذلك لم تُساهم مدنيّتهم مساهمة جوهرية في تاريخ آسيا الغربية الخلقى)) (فجر الضمير - ترجمة سليم حسن - مكتبة مصر - دار مصر للطباعة - سعيد جودة السحار و شركاه - وهيئة الكتاب المصرية - مكتبة الأسرة عام ٩٩ - ص ٣٣ ، ٢٣٦ ، ٣٦٨) .

وبينما نجد علماء علم المصريات يُجمعون على تطبيق مبادئ العدالة في الحضارة المصرية ، نجد - في نفس الوقت - أنّ مؤرخي الحضارات القديمة ، يُجمعون على

أن الحضارات القديمة التي تزامنت - نسبياً - مع مصر لم تعرف مبادئ العدالة بين مواطنيها . وفي هذا السياق ذكر العالم المصري د. إمام عبدالفتاح إمام: أن من العيوب الخطيرة في النظام السياسي والاجتماعي في أثينا : (١) لم يكن مفهوم الشعب مُحددًا تحديداً صحيحاً ، بل اقتصر الأمر على الأثينيين واستبعد الأجانب والرقيق (= العبيد) والنساء (٢) لم تكن الحرية الشخصية مكفولة (حرية الانتقال وحرمة المسكن وحق الأمن) (٣) حرية الفرد بالمعنى الدقيق لم يكن لها وجود (حرية العقيدة - الملكية.. إلخ) ذلك أن ((الدولة كانت تُسيطر على الأفراد سيطرة تامة ، فلا بد للفرد أن يعتنق دين الدولة ، كما أن أملاك الفرد وثروته لا بد أن تكون تحت تصرف الدولة. كما أن اليونان فهموا معنى مصطلح (الشعب) فهماً قاصراً ، فجعلوه يعنى مجموع المواطنين الأثينيين المذكور الأحرار ممن بلغوا سن العشرين ، وبذلك أخرجوا النساء والمقيمين والعبيد من مفهوم الشعب . بل إن أفلاطون فهم الشعب في النظام الديمقراطي على أنه مجموع الغوغاء أو الدهماء ومن على شاكلتهم . ولهذا السبب كان حكم الشعب عند اليونان ذا تطبيق محدود جداً ، فلم تكن السلطة السياسية في الواقع في يد الأغلبية ، وإنما كانت في يد المواطنين (الأحرار) وحدهم ، وهم فئة محدودة لا تتجاوز عُشر سكان المدينة في بعض الروايات على أحسن الفروض . وهذا الفهم القاصر ذاته لمصطلح (الشعب) هو الذى ساد الديمقراطية الرومانية ، إذ كان المواطن الروماني الحر الذكر هو وحده الذى يحق له الاشتراك في إدارة شؤون الدولة السياسية. وفضلاً عن ذلك ، فقد استطاعت الإمبراطورية الرومانية أن تُخضع لسيطرتها الجزء الأكبر من العالم المعروف وقتئذ ، وأن تُحوّل أسرى الحروب إلى عبيد ، بل أن تُحوّل أعداداً غفيرة من أبناء الشعوب المهزومة إلى عبيد . وكانت النتيجة أن بلغ عدد العبيد في الإمبراطورية الرومانية عام ٢٤ ق. م نحو ٢٠ مليون نسمة مقابل ٢١٤ ألف نسمة فقط من المواطنين «الأحرار» .

في هذا النظام الاجتماعي والسياسي ، الذي ميّز بين أبناء الشعب الواحد وقسمهم إلى (أحرار) و(عبيد) كان من الطبيعي أن يُباع الفيلسوف أفلاطون في سوق العبيد في عهد الطاغية (ديونسيوس) وشاء قانون المصادفة أن يتعرّف أحد تلاميذ أفلاطون عليه ، فاشتراه وأعتقه. ورغم ذلك فإن أفلاطون (الفيلسوف الكبير) يعتبر الديمقراطية من ((أنظمة الحكم الفاسدة ، وجعلها تحتل المكانة قبل الأخيرة في دورته لأشكال الحكومات الفاسدة ، بل جعل الطغيان - وهو أشد أشكال الحكم فسادًا وسوءًا - نتيجة مباشرة للديموقراطية)) كما هاجم أفلاطون فكرة المساواة (بين المواطنين) رغم أن المساواة واحدة من أهم أركان الديمقراطية. أما أرسطو (الفيلسوف الكبير) فهو ((يُحذر من مخاطر الديمقراطية ويؤكد أنها نظام من الحكم يؤدي إلى عدم الاستقرار السياسي)).

وفي ضوء ما تقدم كان من الطبيعي أن يكون عدد (العبيد) أكبر من عدد (الأحرار) ولذلك يرى الفقيه القانوني الفرنسي (بارتلمى) في كتابه (القانون الدستوري) أن عدد العبيد كان يبلغ في مدينة أثينا ٢٠٠ ألف ، في حين أن عدد المواطنين (الأحرار) لم يكن يزيد على ٢٠ ألفًا ، أي أن عدد العبيد يبلغ عشرة أمثال عدد المواطنين (الأحرار) (د. عبد الحميد متولى - الوجيز - حاشية رقم ٢٣) وجاء في مدونة (جوستينيان) أن عادة أمراء الجيوش جرتْ بعدم قتل الأسرى إبقاءً على حياتهم ، وهؤلاء يُطلق عليهم ((ملك اليمين)) أو يُباعون إلى الغير باعتبارهم عبيدًا أو يكون الشخص عبدًا بمولده (مدونة جوستينيان في الفقه الروماني ، نقلها إلى العربية عبدالعزيز فهمي - عالم الكتب بيروت - ونقلًا من جانبى عن د. إمام عبدالفتاح إمام - الديمقراطية والوعى السياسي - نهضة مصر - يناير ٢٠٠٦ - الصفحات ١٦، ٢٤، ٣٧، ٦٠، ٦٣، ٧٨، ٧٩، ١١١) في هذا الواقع الاجتماعي والسياسي الذي شهدته اليونان القديمة وروما القديمة ، الواقع الذي وضع البذرة الضارة للتمييز بين البشر على أساس الثنائية الشريرة (عبد / سيد) في هذا الواقع

اللاإنساني لم تكن مصادفة أن يتم (صلب) ستة آلاف إنسان وصمتهم روماب (العبيد) وذلك على طول الطريق من كابو capual إلى روما بعد (النصر) الروماني (أنظر: أثينا إفريقية سوداء- تأليف مارتين برنال - مجموعة مترجمين - المجلس الأعلى للثقافة- عام ٩٧ ص ٧٠٥) وهو الواقع الذي لم تعرفه الحضارة المصرية بشهادة علماء علم المصريات وشهادة المؤرخين الذين زاروا مصر القديمة وعاشوا فيها لعدة سنوات . وبينما تم في اليونان إعدام الفيلسوف سقراط ، ويبيع الفيلسوف أفلاطون ، فإن علماء علم المصريات والمؤرخين توقفوا عند ظاهرة غاية في الأهمية ، وهى أن الحضارة المصرية ، لم تعرف أى شكل من أشكال اضطهاد الحكماء (= فلاسفة) مثلما حدث في اليونان ، رغم العثور على برديات تتقد فكرة (الآلهة) بل وتشكك في وجودهم (برمستد - فجر الضمير - مصدر سابق - ص ١٧٥ ، ١٨٢ ، ١٨٧) بل أكثر من ذلك شهدت الحضارة المصرية فترة أطلق عليها عالم المصريات الكبير أدولف إرمان ((عهد الإلحاد)) (أنظر: ديانة مصر القديمة - ترجمة د. عبد المنعم أبوبكر، د. محمد أنور شكرى - مكتبة الأسرة - عام ٩٧ ص ١٢٦ ، ٣٩٣ ، ٤٤٧) وعن التشكيك في الآلهة المصرية نقل الشاعر د. حسن طلب عددًا من النصوص المصرية من واقع البرديات التى تؤكد على وجود (فلسفة مادية) لا تؤمن إلا بظواهر الطبيعة والواقع (انظر رسالته للدكتوراة في كتابه «أصل الفلسفة - حول نشأة الفلسفة في مصر القديمة - وتهافت نظرية المعجزة اليونانية -» عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - عام ٢٠٠٣ من ص ١٥٦ - ١٦٢) ومع ذلك لم يحدث أن تم إعدام أحد من هؤلاء المتشككين في وجود الآلهة المصرية ، بينما تم إعدام الفيلسوف سقراط بتهمة ازدراء الآلهة اليونانية والترويج لآلهة أجنبية ، الآلهة المصرية تحديدًا ، وهو الأمر الذى جعل أدولف إرمان أن يكتب أن ((الآلهة اليونانية قد تمصرت)) (المصدر السابق - ص ٤٣٧) فإذا كان هذا هو المشهد الحضاري في مصر ، فلماذا يُصر كتاب (مصريون) على وصف الحضارة المصرية بأنها (حضارة

سخرة) ؟ هل هناك سبب آخر غير فقدان الانتفاء لتراثهم وغير درجة عالية من الدونية القومية ، أفقدتهم الحد الأدنى من الموضوعية (ناهيك عن الحس القومي) وذلك عكس (كل) الكتاب في (كل) دول العالم ؟ إنَّ (الموضوعية) و(الحس القومي) لا غنى عنهما لأى باحث تكون (الحقيقة) هى قبلته الوحيدة ، ولأنَّ الشاعر حسن طلب امتلك الموضوعية والحس القومي ، لذلك ذكر أنَّ الحضارة المصرية لم تعرف السخرة ، ولم تعرف عبودية الشعب للفرعون (= الملك فكتب ((إنَّ التاريخ الحضارى المصرى يُكذب هذا الوصف ، ويجعلنا نقطع بأنَّ المصريين ، حتى فى أدنى طبقاتهم ، لم يكونوا مجرد عبيد للفرعون ، والبحوث التى تشيع عكس ذلك مغرضة ، أو هى على الأقل غير خالصة لوجه العلم)) (د. حسن طلب - مصدر سابق - ص ٢٩) وإذا كنتُ أستبعد مخاطبة أصحاب الأفكار سابقة التجهيز، فإننى أتوجه إلى أصحاب العقول الحرة المتجردة من أية أيديولوجيات ، ليقرؤوا معى ما كتبه الفيلسوف أفلاطون فى (الجمهورية) ورأيه فى الحرية حيث نص على ((إنَّ أقصى ما تصل إليه الحرية من تطرف فى مثل هذه الدولة (= المدينة الفاضلة التى كان يطمح فى وجودها) هى أن يمدو العبيد من الرجال والنساء ، الذين يُشترىون بالمال ، متساوين فى حريتهم مع ملاكهم الذين اشتروهم)) وكان د. فؤاد زكريا الذى ترجم (جمهورية أفلاطون) على حق عندما ذكر فى الهامش ((كان العبيد فى أثينا يتمتعون بحرية نسبية ، تفوق تلك التى كانوا يتمتعون بها فى سائر مدن اليونان . ولنلاحظ جيداً أنَّ أفلاطون يحمل بشدة على هذا النوع من الحرية ، مؤكداً أنه أسوأ مظاهر الديمقراطية)) (جمهورية أفلاطون - ترجمة د. فؤاد زكريا - المؤسسة العامة للتأليف والنشر - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - عام ١٩٦٨ - ص ٣١٤) هذا هو الوضع فى أثونان ، التى يُسبَّح بعظمتها كثيرون من (المصريين) الذين يُهاجمون الحضارة المصرية ، حضارة جدودهم ، ويتهمونها بالعبودية ، دون أى دليل من علم المصريين أو علم اللغويات ، وإنما بتأثير التراث العبرى المعادى لمصر.

كما نجد أن المسئول عن ملحق الجمعة بصحيفة الأهرام يوافق على نشر (نص) مسرحي لا علاقة له بالإبداع الأدبي لأحد الكتاب بعنوان (محكمة فرعون) وهذا ال (نص) كله إساءة للفرعون (الجد الأعلى والرمز القومي لكل المصريين) والكتاب لا يفرق بين ما هو ديني وما هو تاريخي ، في عمل - المفترض أنه عمل أدبي - وتكون قمة المأساة أن يكون ممثل الدفاع عن الفرعون هو (أبوبكر محمد الحاتمي الطائي المعروف باسم ابن عربي) (صحيفة الأهرام ٤ / ١٢ / ٩٨) .

أما الضابط اليساري (يوسف صديق) الذي كان السبب في نجاح انقلاب يوليو ٥٢ وأحد الذين غدر بهم عبدالناصر الذي أمر باعتقاله واعتقال السيدة زوجته وبعض أقاربه . انتقل يوسف صديق من سجن الأجانب إلى السجن الحربي ، وفي المعتقل شعر الرجل بمرارة الغدر ، ولأنه كان يُجيد كتابة الشعر ، كتب قصيدة وصف فيها عبد الناصر بالدعي اللعين ، المضلل ، الجبار ، الذي سجن النساء ولم يحترم وقار الشيوخ . وتكون ذروة إحساسه بالمرأة وهو يكتب :

أعرضي يباح ويُلقى به على ناظريك بقاع السجون

وكل رجالي غدرت بهم أكل رجالي من المجرمين ؟

والقصيدة كلها ترجمة ذاتية لأحاسيس ومشاعر الرجل (يوسف صديق) تجاه عبد الناصر الذي أحكم قبضته على الحكم وغدر بالشرفاء أمثال يوسف صديق وخالد محي الدين ، فكتب يوسف صديق هذه القصيدة في السجن الحربي في شهر يونيو ٥٤ عن هذا الحاكم الطاغى (عبدالناصر) ويختار لقصيدته عنوان (فرعون) ثم يستخدم هذا الرمز ثلاث مرات في أبيات القصيدة ، قارئاً عبدالناصر الطاغى بالفرعون (الطاغى الأعظم) (انظر كتاب «أوراق يوسف صديق» - هيئة الكتاب المصرية - ص ٢٧٨) .

أما عبدالناصر الذي شَبَّهه يوسف صديق ب (الفرعون) فإنه يُعلن أنه برىء

(ومعه الشعب المصرى كله) من هذه التهمة (الفرعونية) حيث وقف أمام الشعب السورى فى ساحة الجلاء ، أمام قصر الضيافة فى دمشق يوم ٩ مارس ٥٨ ليقول: ((كنا نشعر بكم فى هذه المنطقة من العالم وقد عزلونا عنكم وأرادوا أن يُقيموا فى مصر بلدًا يتنكر لعروبتة وينتمى إلى الفرعونية)) وفى خطاب ٥٩ / ٧ / ٢٢ قال - والعالم كله يسمعه - ((واستطعنا أن نرى أن الدعوة الفرعونية التى حاول الاستعمار (هكذا) أن ييثرها بيننا ضمن الدعوات الأخرى التى حاول أن ييثرها بين الأمة المصرية (لاحظ - عزيزى القارئ - التناقض) إنما هى محاولة زائفة يحاول الاستعمار بها أن يُقسّم الأمة العربية ليقضى عليها جزءًا جزءًا ويقضى على العرب والقومية العربية ليحل محلها قوميات أخرى)) (مجلد مجموعة خطب عبدالناصر القسم الثانى - فبراير ٥٨ إلى يناير ١٩٦٠ - طبعة مصلحة الاستعلامات ص ٥٥ ، ٤٦٨).

كان عبدالناصر صريحًا ومباشرًا وهو يُعلن عداؤه للشيوعيين (مصريين ولبنانيين وسوريين وعراقيين) وكانت المفردات التى استخدمها فى كل خطبه لا تخرج عن المعانى التالية : إنَّ الشيوعيين عملاء لتعاونهم مع الاستعمار والمسيهونية (وهى تهمة عقوبتها الإعدام) وفى خطاب ٥٩ / ١٢ / ٢٣ (المصدر السابق من ص ٦٩٣ - ٧٠٥) استخدم صيغته المفضلة ((الشيوعيين العملاء)) ٢٦ (ستة وعشرين مرة) أما باقى المفردات فهى إطلاق الصفات التى تمس الكرامة الإنسانية مثل الوضاعة والسفالة .. إلخ ووفقًا للمصدر السابق الصادر عن مصلحة الاستعلامات ، فإنَّ الصفحات التى هاجم فيها الشيوعيين تعدت الأربعين صفحة ، مع ملاحظة أن هذه الصفحات تُغطى الفترة من فبراير ٥٨ إلى يناير ١٩٦٠ فقط .

كان من الطبيعى أن يكون للشيوعيين الشرفاء الذين تعرّضوا للاعتقال

والتعذيب في معتقلات عبدالناصر، أن يكون لهم موقف من هذا الحاكم المستبد المعادى لأبسط حقوق الإنسان ، أى حقه في الاعتقاد . فكيف وصف (بعض) الشيوعيين عبدالناصر؟ في شهادته عن تجربة اعتقاله في سجن القلعة ، ذكر الشاعر أحمد فؤاد نجم (المتهم بالانتماء لأجد التنظيمات الشيوعية) أنه اكتشف وجود كتابات مخفورة على جدران الزنزانة . كان من بينها العبارات التالية ((إنَّ غداً لناظره قريب)) ، ((لينصرن الله من ينصره)) ، ((إنَّ فرعون علا في الأرض)) وكتب أحمد فؤاد نجم أنه بدأ يتعرف على سكان المكان (أى زملائه الشيوعيين) من هذه الكتابات المخفورة على جدران الزنزانة ، والتي من بينها ((إنَّ فرعون علا في الأرض)) (انظر نص الشهادة - صحيفة الميدان ٩ / ٢ / ٩٩ ص ٧) .

إنَّ درس علاقة عبدالناصر ببعض الشيوعيين (أو العكس) يؤكد أن ثمة لغة مشتركة جمعت بين الجلاد والضحية ، وكانت هذه اللغة المشتركة هى احتقار الذات القومية ، وتمثل ذلك الاحتقار في شخص جدهم الأعلى فرعون (أيا كان اسمه) وبمراعاة أنه جد كل المصريين .

كذلك يحلو لكاتب كبير كما تصفه الثقافة السائدة أن يُردد (بين الحين والحين) مزاعم بنى إسرائيل المعادية للمصريين ، فكتب أن ((النبى موسى عليه السلام خرج بقومه اليهود هارباً إلى سيناء ، بعد أن قتل مصرياً انتقاماً لواحد يهودى)) وذكر أيضاً أن رمسيس الثانى قتل كل أطفال اليهود إلّا واحداً)) (انظر على سبيل المثال - صحيفة الأهرام ٦ / ٣ / ٩٩ ، ٦ / ٤ / ٩٩) .

إنَّ هذا المثال يُثير التساؤل التالى : لمصلحة من التركيز (في صحيفة سيارة واسعة الانتشار) على تشويه صورة الفرعون العظيم رمسيس الثانى ، وتقديمه للقارئ على أنه سفاح لا يتورع عن قتل الأطفال ، في خلط متعمد بين ما هو دينى وما هو تاريخى . بل إنَّ هذا الصحفى (الكبير) عندما كتب عن واقعة أن موسى قتل مصرياً انتقاماً لواحد يهودى فهو يتبنى التراث العبرى ، ويُردد ما جاء في العهد القديم ، حيث

نص على ((وحدث في تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج إلى إخوته لينظر في أفعالهم، فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته ، فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أن ليس أحد فقتل المصري وطمره في الرمل)) (خروج ٢ : ١١-١٣) والسؤال الذي لم يتوقف أمامه هذا الكاتب الصحفي (الكبير) هو : إذا افترضنا صدق ما جاء في العهد القديم ، وأن المصري كان يضرب العبراني ، فهل مجرد (الضرب) يُبرر القتل ؟ خاصة وأن القاتل نبي مرسل من الإله العبري ؟ كما أن هذا الصحفي بتبنيه لنصوص العهد القديم ، زائد على ما جاء في القرآن العظيم ، إذ جاء فيه عن موسى

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ مُوسَى وَهَذَا مِنْ

عَدُوِّهِ فَاسْتَفْتَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴿ [القصص: ١٥]

ففي هذه الآية الكريمة لانجد أي ذكر لحكاية أن ((رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً)) كما جاء في العهد القديم ، وإنما مشاجرة بين رجلين ، كما أن موسى شعر

بالندم بعد أن قتل المصري ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي

ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاعْفُ رِي ﴿ [القصص: ١٥ ، ١٦] بل وأكثر من ذلك ما جاء في سورة طه

﴿ وَقُلْتُ نَفْسًا فَنَجَّيْنِكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَوَّضْنَاكَ ﴿ طه: ٤٠ ﴾ وذكر الإمام أبو جعفر محمد بن

جرير الطبري أن موسى عندما دخل المدينة وجد رجلين يقتتلان ، أحدهما من شيعة

موسى ، أي من بنى إسرائيل ، والآخر من القبط . قال (موسى) رب إنى ظلمتُ

نفسى فاعفُ رلى فغفرله إنه هو الغفور الرحيم . فأصبح (موسى) يترقب خائفاً أن

يؤخذ ، فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه أى يستغيثه (قال له موسى إنك

لغوى مبين) ثم أقبل لينصره فلما نظر إلى موسى قد أقبل نحوه ليطش بالرجل الذى

يقاتل الإسرائيلي قال الإسرائيلي ﴿ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمِينِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ

تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿ (تاريخ الطبري المعروف بتاريخ الأمم

والملوك - مؤسسة الأعلمى للمطبوعات - بيروت - لبنان - ط ٤ عام ١٩٨٣ ج ١

ص ٢٧٥ ، ٢٧٨) السؤال الثانى هو : لماذا يُزايد صحفى (مصرى) على القرآن

العظيم وعلى ما ذكره الطبري في تاريخه ، ويتوقف بصفة خاصة أمام العهد القديم ، مُردّداً ما ذكره أنّ موسى قتل المصري انتقاماً لواحد يهودي ؟ مع ملاحظة أنّ الصياغة في التوراة غامضة ، حيث أنّ النص لم يذكر أسباب الانتقام .

والسؤال الثالث هو : لماذا يُردد صحفي (مصري) أنّ رمسيس الثاني قتل كل أطفال اليهود في تبني واضح لأكاذيب بنى إسرائيل ؟ ولا يذكر (مثلاً) ما جاء في سفر التثنية ((وهو الكلام الذي كلم به موسى جميع إسرائيل)) (الإصحاح الأول) ففي هذا السفر يقول موسى لبنى إسرائيل أنه عند الدخول إلى مدينة لمحاربتها وقبلت الصلح ، فإنّ أبناء الشعب المغزوي يتحولون إلى عبيد لبنى إسرائيل . أما في حالة رفض الصلح ، يقول موسى ((وإنّ لم تُسألك بل عملت معك حرباً فحاصرها . وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك)) (تثنية ٢٠ : ١٠ - ١٥) ولماذا لم يذكر ((وكلم الرب موسى قائلاً احص النهب المسبب من الناس والبهائم ، أنت وألعازر الكاهن ورؤوس آباء الجماعة ، ونصف النهب بين الذين باشروا القتال)) (عدد ٣١ : ٢٥ - ٢٨) ولماذا لم يذكر التحريض الصريح على سرقة المصريين (خروج ٣ : ١٨ - ٢٢) وآيات التحريض على القتل والسلب والتخريب في العهد القديم يصعب حصرها خشية التكرار ، وإنما ذكرت الأمثلة السابقة لأعيد صياغة السؤال : لماذا تحرص الثقافة السائدة (والأستاذ الصحفي جزء منها) على تصوير ملوك مصر (الفراعنة وفق التعبير العبري) على أنهم قتلة أطفال اليهود ؟ ولماذا لم يُفكر كتاب تلك الثقافة في رد فعل أحفاد بنى إسرائيل المعاصرين وهم يقرأون هذا الكلام ؟ ولماذا لا يُشير هؤلاء الكتاب إلى أنّ العهد القديم به آيات عديدة تنص صراحة على أنّ إله العبريين (قتل كل بكر في أرض مصر من بكر الناس إلى بكر البهائم) (خروج ١٢ : ٢٩ ، خروج ١٣ : ١٥ ومزمور ٨٧ : ٥١) وهي مجرد أمثلة بالطبع .

في عام ١٩٥٤ أنتجت السينما الأمريكية فيلم (الوصايا العشر) من إخراج سيسل دى ميل ، وهو تكرار فاج للأيديولوجيا العبرية المعادية للحضارة المصرية . ومنذ ذلك التاريخ لم تُقدّم السينما المصرية فيلمًا واحدًا يرد على أكاذيب وفجاجة سيسل دى ميل ، وإنما شاهد المصريون (وبالطبع شعوب أخرى) فيلم (المهاجر) من إخراج (مصرى) تصفه الثقافة السائدة بالموخرج العبقري ، ومع ذلك فإنه لم يفعل شيئًا مختلفًا عما فعله دى ميل ، وإنما قلّده تقليدًا حرفيًا وتبنى توجهاته ، وليته اكتفى بذلك ، إنما زائد عليه .

إنّ بطل فيلم المهاجر (رام) يُمثل شخصية يوسف بن يعقوب (وهو ما تؤكدته التترات باللغة الفرنسية) والفيلم تكرار فاج لأكاذيب بنى إسرائيل كما وردت في العهد القديم ضد مصر ، فالمصريون في الفيلم وحوش ، تُعبر وجوههم عن القسوة وفي أيديهم السياط ، والفرعون أبله والفنان المصري مصاب بداء اللواط (وهي عادة عبرية ولم تعرفها الحضارة المصرية ، ومارسها العبريون باعتراف كتابهم الذي يُقدّسونه) وفي المقابل فإنّ رام (= النّبي يوسف) هو الذي علم المصريين الزراعة . ويُركّز الفيلم على أنّ ثمة قطعة أرض عجز المصريون عن زراعتها ، فلماذا ب (رام / يوسف) هو الذي يقود فريق العمل ، وفي نهاية الفيلم تنجح خطته العبرية ، وتتحول الصحراء الجرداء إلى جنة خضراء بفضل عبقرية رام / يوسف . في إسقاط واضح على ما فعله الإسرائيليون في سيناء بعد إحتلالها عقب كارثة بؤونة / يونيو ٦٧ ، وبالتالي فإنّ رسالة الفيلم هي : أنه لا مفر من الاستعانة بالخبرة الإسرائيلية ولا بأس من العمالة المصرية .

إنّ مخرج فيلم المهاجر زايد على ما جاء في العهد القديم وعلى ما جاء في القرآن العظيم ، إذ لا يوجد أى ذكر فيهما على أنّ يوسف علّم المصريين الزراعة ، وإنما كان دوره في (هذين المصدرين اللذين اعتمد المخرج عليهما متجاهلا المراجع العلمية والمؤرخين المعاصرين للأحداث وعلم المصريات) هو تخزين الغلال فقط لمواجهة

سنوات القحط ، ففي القرآن العظيم ﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ﴾ [يوسف] وفي شرحه لهذه الآية الكريمة ذكر الطبري ما يلي ((في قوله (أى يوسف) اجعلنى على خزائن الأرض ، قال على حفظ الطعام ، إنى حفيظ عليه ، يقول إنى حفيظ لما استودعتنى عليه بسنى المجاعة فولاه الملك ذلك)) (المصدر السابق ج ١ ص ٢٤٣) وهو ذات المعنى الذى ورد فى العهد القديم (تكوين ٤١ : ٣٣-٣٦) .

يقول المثل الشعبى ((فاقد الشيء لا يعطيه)) فإذا كان يوسف ، باعتراف العهد القديم ، مجرد راعى غنم (تكوين ٣٧ : ٢) فإن السؤال هو : كيف يمكن مخاطبة العقل البشرى فى العصر الحديث وإقناعه بالتزوير (وهو تزوير ضد النصوص التى اعتمدها المخرج وضد وقائع التاريخ وضد المنهج العلمى) بأن راعى الغنم علم الزراعة الزراعة ؟

إن التوجه الأيديولوجى يختلف عن لغة العلم ، كتب أ. شفيق مقارآن ((سجلات التاريخ توقفنا على أن المصريين لم يعرفوا نظام صوامع الغلال وتخزين الغلال من أقدم العصور فحسب ، بل وعرفوا أيضاً نظام تخزين المياه ، والمثال الحى على ذلك فرعون الأسرة الثانية عشر أمنمحاتب الثالث (١٩٥٩-١٩١٠ ق. م) وخزان المياه العظيم فى منخفض الفيوم . أما الحبوب - كالدرة والشعير ، لا القمح وحده - فهذا ما كان المصريون يفعلونه فيما يخصها ، منذ عهد المملكة القديمة)) ونقل أ. مقار عن عالم المصريات الكبير أدولف إرمان ما يلي ((فى نهاية الحصاد ، كان مستخدمان من مستخدمي المزرعة ، هما (كاتب الصوامع) و(كيال الغلال) يأتیان وبعد أن يؤدى كل منهما عمله ، فيكيل الكيال أكوام الغلال ، ويقوم كاتب الصوامع بتسجيل ذلك . كانت الغلال تؤخذ إلى الصوامع ، وكانت الصوامع - على مرالعصور - تُبنى على نفس النسق)) وأضاف إرمان أن ((المصريين كانوا يزرعون الخضر . وقد ذكر العهد القديم على السنة الخارجين من مصر عندما جاعوا

في القفر وافتقدوا قدور اللحم والسّمك وغيره مما كانوا يأكلونه في أرض مصر (مجانًا) وأنّ المصريين زرعوا مختلف الخضروات والقمّاء والبصل والثوم (البطيخ)) وكان تعقيب أ. مقار ((فالمصريون- كما ترى- لم يكونوا بحاجة إلى عبد عبراني من البدو الرحل الرعاة كيوسف ليُعلّمهم (حكمة) تخزين الغلال في سنى الوفرة ، ليكون لديهم احتياطي منها في سنى الشح ، وهم الذين أعطوا العالم أول حضارة عرفها التاريخ عندما تعاملوا ، في وطن مستقر مع النيل ، وعرفوا أهمية السياسة الزراعية وسياسات أخرى)) (شفيق مقار- المصدر السابق - ص ٨٩) .

إنّ فيلم المهاجر يُجسّد مأساة الهجوم على الحضارة المصرية ، هجوم لم يعد قاصرًا على الميديا الصهيونية (سيسل دى ميل ، ستيفن سبيلبيرج وغيرهما) وإنما يأتي الهجوم من فنان مصرى ، كان تاريخ السينما المصرية ينتظر منه أن يرد على المخرجين المذكورين ، فإذا به يمشى وراءهما ، مردّدًا أكاذيب بنى إسرائيل . كنا نتظر من المخرج (المصرى) أن يرد على هذه الأكاذيب ، خاصة أنّ فيلم (الوصايا العشر) الأمريكى يزيد الجرح إيلاّمًا ، فهذا الفيلم تم تصويره في مصر عام ١٩٥٤ (أى بعد انقلاب يوليو بعامين) وأنّ ((مجاميع الكومبارس كانت من جنود الجيش المصرى)) (نقلا عن الناقد السينمائى أ. مصطفى درويش في كتابه أربعون سنة سينما- صندوق التنمية الثقافية- عام ٢٠٠٣ ص ١٠١) والدرس هنا أنّ ضباط يوليو تصرّفوا مع الشركة المنتجة لفيلم (الوصايا العشر) بأحد احتماليين لاثالث لهما: الأول تكليف أحد المختصين بقراءة ومراجعة سيناريو الفيلم ومتابعة تصوير المشاهد ومراحل تنفيذ الفيلم وبالتالي وافقوا عليه ، وإما أنهم لم يهتموا أصلا (سواء بقراءة السيناريو أو الاطلاع على مضمون الفيلم إلخ) مع أنّ هذا حق أصيل لمصر بمراعاة أنّ التصوير تم على أرضها ، ومع ذلك سمح ضباط يوليو باستخدام جنود الجيش المصرى في فيلم معادى للمصريين . وأيّا كان أحد الاحتمالين ، فإنّ المسئولين في هذه الفترة الخالكة من تاريخ مصر، قد شاركوا في ارتكاب جريمة

إنتاج فيلم أمريكي تعتمد صانعوه تشويه الوجه الحضاري لمصر. وإذا المخرج المصري (العبرى) لم يُفكر في الرد على أكاذيب سيلبيرج مخرج فيلم (أمير مصر) أو على أكاذيب سيسل دى ميل مخرج فيلم (الوصايا العشر) فإن عالمة المصريات (الفرنسية) الكبيرة كريستين نوبلكلور ذكرت في كتابها عن (رمسيس الثانى) والذي طبع منه مليون نسخة ((عندما أرى أفلاماً مثل (الوصايا العشر) تُصوّر المصريين وهم يدوسون فوق رقاب العبيد الساميين، أشعر بالغضب. فهذا كذب وافتراء)).

وقرأتُ هجوماً من كاتب سيناريو مصرى على فيلم (أمير مصر) ولكن انصبَّ هجومه على استبعاد أن يكون رمسيس الثانى هو فرعون الخروج فكتب أن ((فرعون الخروج هو الفرعون السادس من ملوك الهكسوس تحديداً)) (أهرام ٩٩/٣/٦) أى أن هذا السيناريست (المصرى) يعتبر الدفاع عن الوطن وطرد اليهود الذين احترقوا الجاسوسية لحساب الهكسوس ضد مصر، وصمة عار يجب نفيها عن الفرعون المصرى ، ويُقدّم هذا الشرف للهكسوس . وهنا تجدر الإشارة إلى الملاحظات التالية :

* لم يستقر علماء المصريات على اسم الفرعون الذى طرد بنى إسرائيل من مصر .
* الفرعون (أيا كان اسمه) الذى طرد بنى إسرائيل من مصر ، هو واحد من الملوك العظام ، ويجب على كل مصرى أن يفخره للأسباب التالية :

سمح بسلامتك الأول لليهود أن يتدققوا على مصر ، وأن يُنشئوا لأنفسهم مستعمرة خاصة بهم ، بل سمح لهم أن يُقيموا معبداً لإلههم (يهوه) بل إنه بفضل تسامح المصريين ورعاية صدورهم ، عاش اليهود في مصر (أنظرد. محمد بيومى مهران- تاريخ الشرق الأدنى القديم- دار المعارف بمصر عام ١٩٧٦ ج ٣ ص

٣٢٥ ، ٣٨٤) بعد هذا العطاء والتسامح من المصريين ، ماذا حدث ؟ ((وهكذا انتهت الأمور باليهود أن نسوا مصر أنها أطعمتهم من جوع وأوتهم من تشرد وكستهم من عرى ، فردوا لها الجميل نكراناً ، وكانوا عليها للفرس أعواناً وفي حاميتهم جنوداً)) وكان لابد أن تزداد كراهية المصريين لليهود ((بعد أن رأوهم بعد أطول إقامة في البلاد خونة وجواسيس ومثار فتن ودسائس وأذناناً لأعداء البلاد)) (د. محمد بيومي مهران - المصدر السابق ص ٣٨٠).

يمتلئ العهد القديم بالتناقض بين اعتراف بنى إسرائيل بفضل مصر عليهم وبين العداء لمصر وشعبها . فنجد أن (كل) جماعة بنى إسرائيل تتذمر ضد موسى وهارون والسبب ((وقال لهما بنو إسرائيل ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع)) (خروج ١٦ : ٢ ، ٣) وكذلك ((فعاد بنو إسرائيل وبكوا وقالوا من يطعمنا لحماً . قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله في مصر مجاًئاً والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم)) وأيضاً ((إنه كان لنا خير في مصر)) وأكثر من ذلك ((أليس خيراً لنا أن نرجع إلى مصر)) (عدد ١١ : ٤ - ٦ ، ١٨ عدد ١٤ : ٣ وأنظر أيضاً عدد ٢٤ ، ٢٥) هذا الاعتراف الصريح من بنى إسرائيل بفضل مصر عليهم ، يقابله عداء بشع ضد مصر والمصريين ، وليس له أى تبرير على المستويين التاريخي والإنساني ، من ذلك - كمثال - ما جاء في سفر حزقيال ((وتكون أرض مصر مقفرة وخرية ، فيعلمون إنى أنا الرب ، وأجعل أرض مصر خرباً خربة مقفرة من مجدل إلى أسوان إلى تحم كوش . وأجعل أرض مصر مقفرة في وسط الأراضى المقفرة ومدنها في وسط المدن الخربة تكون مقفرة أربعين سنة وأشتت المصريين بين الأمم وأبددهم في الأراضى .. إلخ)) (حزقيال ٨ - ١٦).

هؤلاء هم بنو إسرائيل ودورهم المخرب والمعادى لمصر باعتراف كتابهم الذى يقدسونه ، وإذا كان البعض لا يؤمن إلا بالمرجعية الدينية ، فهذا هو العهد القديم ينص على ((ثم قال الرب لموسى قل لهارون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين ،

على أنهارهم وعلى سواقيهم وعلى آجامهم وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دماً ، فيكون دم في كل أرض مصر ، في الأخشاب وفي الأحجار)) وبعد أن أطاع موسى وهارون أمر ربهما العبري ((تحوّل كل الماء الذي في النهر دماً ومات السمك الذي في النهر وانتن النهر فلم يقدر المصريون أن يشربوا ماءً من النهر . وكان الدم في كل أرض مصر)) (خروج ٧ : من ١٩ - ٢٢) .

والإله العبري المنحاز لبنى إسرائيل لم يكتف بأَنْ جعل الدم في كل أرض مصر ، وإنما أطلق الضفادع والبعوض والدمامل والجراد و(الذبان) إلخ على كل المصريين ، ليس في الحقول والنهر فقط ، وإنما داخل البيوت وفوق المخادع والأسرة (أى في غرف النوم) هذا بخلاف قتل مواشى المصريين لأنّ الرب ((يُميّز بين مواشى إسرائيل ومواشى المصريين)) (خروج ٩) .

هذا الانحياز لبنى إسرائيل من الإله العبري وصل لدرجة القضاء على كل المصريين ((فدفع الرب المصريين في وسط البحر، فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيوش الفرعون الذى دخل وراءهم في البحر، لم يبق منهم ولا واحد)) (خروج ١٤ : من ٢٦ - ٣١) وكذلك ((قال موسى يقول الرب إننى نحو نصف الليل أخرج وسط مصر فيموت كل بكر في أرض مصر، من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الجارية التى خلف الرحى وكل بكر بهيمة ويكون صراخ عظيم في كل أرض مصر لم يكن مثله ولن يكون مثله أيضاً)) والإله العبري قبل أن يقتل المصريين ، وحتى لا يُخطئ بين بيوتهم وبيوت بنى إسرائيل ، فإنه يطلب من الآخرين ما يلي ((ويكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها ، فأرى الدم وأعبر عنكم ، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر ويكون لكم هذا اليوم تذكّاراً فتعيدونه عيداً للرب ، في أجيالكم تُعيدونه فريضة أبدية)) (خروج ١١ : ٤-٧ ، خروج ١٢ : ١٣ ، ١٤) .

وقبل تنفيذ هذه المعجزة ، فإنّ الإله العبري يُحرّض بنى إسرائيل صراحة على

سرقة المصريين فقال ((فلماذا سمعوا لقولك تدخل أنت وشيوخ بنى إسرائيل إلى مصر وتقولون له إله العبرانيين إتقانا . فالآن نمضي سفر ثلاثة أيام في البرية ونذبح للرب إلهنا ، ولكنى أعلم أن ملك مصر لا يدعوكم تمضون ولا بيد قوية . فأمد يدي وأضرب مصر بكل عجائبي التى أصنع فيها . وبعد ذلك يُطلقكم . وأعطى نعمة لهذا الشعب فى عيون المصريين . فيكون حينها تمضون أنكم لا تمضون فارغين . بل تطلب كل امرأة من جاريتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم . فتسلبون المصريين)) (خروج ٣ : من ١٨ - ٢٢) .

وصل العداء إذن لدرجة الجاسوسية والتحريض على السرقة وتحويل المياه والأرض إلى دم ، بل والإبادة ، وهو ما عبّر عنه العهد القديم إذ نص على ((فخلص الرب فى ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين . ونظر إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطئ البحر)) (خروج ١٤ : ٣٠ ، ٣١) وكذلك ((... فإنه كما رأيت المصريين اليوم لا تعودون ترونها أيضاً إلى الأبد . الرب يُقاتل عنكم وأنتم تصمتون)) (خروج ١٤ : ١١ - ١٤) وفى القرآن العظيم ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ [البقرة] وإذا كان علم المصريين يؤكد أن بنى إسرائيل عملوا مع أعداء مصر (مع الحيثيين ومع الهكسوس إلخ) ضد جدودنا المصريين القدماء ، ورفضوا الاندماج فى المجتمع المصرى الذى أمّن حياتهم ، ورفضوا العمل فى البناء والتشييد ، واعتبروا أن (العمل اليدوى) إهانة لا تليق بهم ، إزاء كل هذه الحقائق التى تمتلئ بها كتب علم المصريين ، ماذا كان يُتظر من أى حاكم وطنى غير طردهم من مصر ، وليس التمسك بهم كما يدعى العبريون ؟

وإذا كانت الميديا الصهيونية تتعمد تشويه صورة جدودنا الذين شيّدوا أول حضارة إنسانية ، فإن التليفزيون (المصرى) فعل نفس الشيء ، والأمثلة كثيرة ، منها مسلسل (لا إله إلا الله) ورسائله الهجوم على مصر ، وهو ما جعل الشاعر الكبير أحمد

عبدالمعطي حجازي أن يكتب مقاله الشهير في صحيفة الأهرام (الهكسوس يغزون التلفزيون المصري) وكذلك مسلسل آخر للأطفال كتبت عنه المواطنة (منال غالب) أنه (من أجل ما رأيت في برامج التلفزيون الرمضانية، برنامج قصص الأنبياء . وقد أهلت نفسي وأطفالى للتفرغ لمشاهدة العرض . وكنا في كل حلقة وكأننا نجوب معها العصر الذي تروى عنه بكل مؤثراته ، ونحطم الأصنام ونحارب فرعون وجنوده ، ولهذا استمتعنا به كباراً وصغاراً . تحية للتلفزيون على هذا البرنامج الممتع)) (بريد الأهرام ١٠ / ١ / ٩٩) .

إننى أطرح هذا السؤال وأترك إجابته لضير القارئ : ما الفرق بين ما يُقدّمه التلفزيون (المصري) وما تُقدّمه الميديا الصهيونية ؟ لقد رأينا بريد الأهرام يحتفى برسالة مواطنة (مصرية) لأنها شاهدت الحرب ضد ((فرعون وجنوده)) وتحرص على أن يجلس أطفالها معها لمشاهدة قتل جدودهم واحتقار رموزهم القومية . وإذا كان هذا هو الإعلام الرسمي ، فهل يمكن الحديث عن أى انتفاء لأى مصرى لوطنه مصر ؟

إن احتقار الذات القومية ، المتمثل في سب الفرعون ، خط مشترك لدى العديد من الكتاب (المصريين) الذين كتبوا عن ((فرعون الطاعى المستبد)) ولأنّ المسألة قومية وليست شخصية ، سأكتفى بذكر مصدر النشر ونقط بدل اسم الكاتب (... أهرام ٩٠ / ٩ / ٧ ، ... الأهالي ٩٢ / ٥ / ٢٠ ، ... الأهالي ٩٤ / ٧ / ٢٠ ، ... أهرام ٩٤ / ٢ / ١٢ ، ... أهرام ٩٨ / ١٢ / ٣٠ ، ... أهرام ٩٩ / ٣ / ١ ، ... أخبار اليوم ٩٩ / ٣ / ٢٠ ومع ملاحظة أنّ هذه الأمثلة ليست على سبيل الحصر ، وملاحظة أننى تعمّدتُ استبعاد الاستشهاد بالكتاب الذين يؤمنون بأنّ مرجعيتهم الوحيدة هى المرجعية الدينية ، بمراعاة أنّ موقف هؤلاء الكتاب لا يحتاج إلى دليل ، فهم بسبب مرجعيتهم الدينية مع الفكر العبرى المعادى مصر ، ولذلك تعمّدتُ التركيز على الكتاب الذين يُفترض أنهم يُفرّقون بين المرجعية الدينية والمرجعية

المؤسسة على العلم والتاريخ ، ولكن تبين أنّ أولئك لا يختلفون عن هؤلاء .

تعمّدت استخدام تعبير (الثقافة السائدة) ولم أستخدم (كل) الثقافة في مصر ، لأنّ الأمانة العلمية تقضي بالاعتراف بوجود بعض الكتاب المصريين الذين يحترمون لغة العلم ، التي سلّحتهم بإطار معرفي ، جعلتهم يُقدّرون خصوصية مصر وحضارتها ومن أمثلة ذلك أنّي نظمتُ سلسلة ندوات في أتيليه القاهرة عام ١٩٨٣ تحت عنوان رئيسي (صحيحة لغويًا وليس رئيسي) هو (أبعاد الشخصية المصرية بين الماضي والحاضر) تحدث فيها كل من : أ. فتحى رضوان ، أ. السيد ياسين ، د. نعمات أحمد فؤاد ، د. سيد عويس ، د. فؤاد مرسى ، د. عبد الحميد يونس ، د. حسين فوزى النجار . كان الملفت للنظر - وأنا أراجع هذه الندوات لطبعها في كتاب - أنّ كل هؤلاء الكتاب أجمعوا على أنّ الحضارة المصرية هي مهد الحضارات الإنسانية ، وأنّ فكرة (الضمير) نشأت في مصر ، وأنّ هذه الحضارة كانت فيها الأسرة والمرأة والطفولة من المقدسات ، هذا بخلاف أنّ المصريين القدماء هم أول من أبدعوا علوم الهندسة والطب والفلك إلخ بالإضافة إلى فنون النحت والرسم وكتابة القصة ووصايا الحكماء إلى أبنائهم إلخ كما أجمعوا على أنّ الحضارة المصرية لم تكن حضارة سخرة أو عبودية (كما يدعى العبريون) وذكر أكثر من محاضر أنّ العبيد لا يُدعون .

وإذا كان فيلم (أمير مصر) تم إنتاجه عام ١٩٩٨ فإنّ د. حسين فوزى النجار حذر في عام ١٩٨٣ من ((تزييف المعرفة التي يقوم بها الإسرائيليون ، فإنهم يقومون بإنتاج فيلم سينمائي يُثبتون فيه أنهم بناء الأهرام)) وهو نفس الشيء الذي حذرت منه د. نعمات أحمد فؤاد (انظر نص الندوات في كتاب أبعاد الشخصية المصرية بين الماضي والحاضر - إعداد وتقديم طلعت رضوان - هيئة الكتاب المصرية عام ١٩٩٩) .

ومن الكتاب الذين دافعوا عن الحضارة المصرية د. ميلاد حنا الذي كتب أننا

نحن المصريين لم نتمتع في دراسة تاريخنا القديم بالقدر الكافي . ونوّه إلى الحقيقة التي يتغافل عنها كثيرون وهي أنّ مصر ليس بها كلية أو قسم مصريات . وما كتبه د. ميلاد حنا في هذا الشأن يُساهم في تعميق إحساس المصري بمصريته ، ولكنه هدم ما كتبه - في ذات المقال - إذ ردّد مقولة أنّ المصري الكبير (يوبا) والد الملكة (تى) هو يوسف النبي العبري (أهرام ٩٧/٩/٢) إنّ ترسيخ الإدعاء بأنّ بعض الأنبياء العبريين مصريون ، يُشجع الميديا الصهيونية التي يُسعدّها أن يكتب كاتب مصري مؤيدًا توجهاتها التي تسعى إلى تأصيل مقولة أن بنى إسرائيل هم بناء الحضارة المصرية ، وإنّ كان د. ميلاد حنا لم يقصد بالطبع الوصول إلى هذا الهدف ، فإنّ العبرة في أثر هذا الكلام على القارئ ، لهذا كان من المهم الرد على هذا الادعاء ، فكتبت د. نعمات أحمد فؤاد مقالًا مهمًا فنّدت فيه هذا الزعم ، وكداها دائمًا ذكرت المراجع العلمية التي تؤكد نفى هذه المزاعم ، وذكرت أنّ ((عقدة اليهود- كما يقول عالمهم فرويد- سبق مصر في الحضارة)) (أهرام ٩٧/١٠/١٥) .

وعندما تجددت ادعاءات الميديا الصهيونية في الترويج لأكذوبة أن اليهود هم بناء الأهرام ، كتبت د. نعمات أحمد فؤاد سلسلة مقالات فنّدت فيها هذه الأكاذيب بمرجعية من المؤرخين المعاصرين للأحداث وعلماء علم المصريات (أهرام ٩٨/٢٣، ١٦ سبتمبر ٩٨) .

وفي الوقت الذي هلّلت فيه الثقافة السائدة لفيلم المهاجر، فإنّ بعض النقاد الذين يحترمون لغة العلم ، كتبوا نقدًا للفيلم يتسم بالموضوعية ، منهم الناقد السينمائي أ. أحمد يوسف الذي كتب دراسة مهمة اختلف فيها مع لغة التمجيد السائدة التي لم يهتز ضميرها ، ولم يتوقف عقلها أمام معادة الفيلم للحضارة المصرية، ولا للتزوير في التاريخ ، ومن هنا كانت أهمية هذه الدراسة المنشورة في مجلة اليسار في العديدين نوفمبر وديسمبر ٩٤ .

وخفّف من حزني أنّي قرأتُ للطالب الجامعي (حسام فتح الله) الذي كتب بعد

أن شاهد فيلم (أمير مصر) رسالة طويلة ، تنم عن وعى قومى يفتقده كثيرون من (كبار) الكتاب . ومن بين ما جاء فى رسالته ((إذا ربطنا بين فكرة الفيلم وبين الإدعاءات المتكررة بأن اليهود هم الذين بنوا الأهرام ، بل وبنوا حضارة مصر ، لوجدنا أن هناك يدًا خفية تغزل بمهارة شديدة خيوط مؤامرة لتهويد حضارة مصر ، وإرجاع مجدنا وحضارتنا إلى اليهود . ومن خبث من هم وراء هذا الفيلم ، أنه فيلم كرتون . فإذا كنتُ أنا الشاب ٢١ عامًا قد انبهرتُ به ، فماذا يفعل هذا الفيلم بالأطفال فى أنحاء العالم ؟ بالطبع سينهر الأطفال ويصدقون ما ورد بالفيلم على أنه حقيقة ، ونجد أنفسنا بعد جيل أو اثنين قد أخذنا هذه الإدعاءات على أنها مسلمة لا تحتاج لجدال)) (انظر نص الرسالة - بريد الأهرام ٢٥ / ١ / ٩٩) .

ورغم أن المفكر الكبير المرحوم أ. خليل عبدالكريم متخصص فى التراث العربى والإسلامى ، إلا أنه وهو يكتب يكون بصره وتكون بصيرته دائمًا على مصر ، واكتشفتُ أنه فى (كل) كتبه يعقد مقارنة بين الحضارة المصرية وبين العرب الذين غزوا مصر ، وعلى سبيل المثال فإنه فى كتابه (العرب والمرأة) وبعد أن أثبت الوضع المزرى للمرأة العربية ، عقد مقارنة بينها وبين المرأة فى الحضارة المصرية ، ولأنه عالم يحترم لغة العلم ، فقد اعتمد على مجموعة من المراجع المتخصصة التى تناولت وضع المرأة فى مصر القديمة . أما عن السبب الذى فرق وميّز بين الوضع الإنسانى للمرأة المصرية ، والوضع المتدننى للمرأة العربية ، فإنه ((بكل بساطة الفرق بين الحضارة ، بل أعرق حضارة عرفها التاريخ وبين البداوة)) (انظر كتاب العرب والمرأة - دار الانتشار العربى ، دارسينا للنشر - عام ٩٨ ص ٢٢٩ ، ٢٣٠) ومن المفكرين المصريين الذين دافعوا عن الحضارة المصرية ، الراحل الجليل بيومى قنديل ، وخاصة فى كتابه (حاضر الثقافة فى مصر - أربع طبعات على نفقته الخاصة) وكذلك كتابه (دفاع عن تراثنا القبطى - الصادر عن دار ميرت للنشر - عام ٢٠٠٨) وكذلك مؤلفات د. مرفت عبدالناصر التى دافعت فى كل كتبها عن الحضارة

المصرية ، من واقع علم المصريات ، وليس بدافع حسها القومي فقط ، ومن بين كتبها على سبيل المثال (لماذا فقد حورس عينه - قراءة جديدة في الفكر المصري) الصادر عن دار شرقيات عام ٢٠٠٥ ، وكتاب (معنى الوطن) الصادر عن نهضة مصر - عام ٢٠٠٩ ، وكتاب (نقش البردي) الصادر عن نهضة مصر - عام ٢٠٠٧ ، موسوعة (مصر في عيون العالم) للشباب في عشرة أجزاء الصادرة عن دار الكتاب المصري ، ودار الكتاب اللبناني ثم أعيد نشرها ضمن مشروع مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٧ ، وموسوعة (الفن المصري القديم) للناشئين في عشرة أجزاء الصادرة عن دار الكتاب المصري ، ودار الكتاب اللبناني ثم أعيد نشرها ضمن مشروع مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٥ ، وموسوعة (تاريخ الأفكار) للشباب الصادرة عن نهضة مصر - ثلاثة أجزاء الصادرة عن نهضة مصر - عام ٢٠٠٧ مع مراعاة أن ما ذكرته على سبيل المثال بالطبع .

إذا كان بنو إسرائيل نجحوا في احتلال فلسطين ، مسلحين بمرجعتهم الدينية ، فإنهم يستهدفون الاستيلاء على مصر ، مُدججين بذات المرجعية ، فهم إلى الآن لزالوا يفرضون على أولادهم أن يُردّدوا في المدارس وفي صلواتهم في المعابد ، ما جاء في العهد القديم ((في ذلك اليوم قطع الرب مع إبراهيم (إبراهيم فيما بعد) ميثاقاً قائلاً لنسلك أعطى هذه الأرض ، من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات)) (تكوين ١٥ : ١٨) وإله العبريين يُوزع أراضي الغير على بنى إسرائيل وبالجملية ، ويجد القارئ في سفر التكوين وحده آيات عديدة ، منها على سبيل المثال ((وكان في الأرض جوع غير الجوع الأول الذي كان في أيام إبراهيم . فذهب إسحق إلى أبي مالك ملك الفلسطينيين إلى جرار . وظهر له الرب وقال لا تنزل إلى مصر . أسكن في الأرض التي أقول لك . تغرب في الأرض . فأكون معك وأباركك . لأنى لك ولنسلك أعطى هذه البلاد)) (تكوين ٢٦ : ١ - ٥) وأكثر من ذلك فإن أى أرض

تطأها أقدامهم هي ملك لهم طالما أن مرجعيتهم الدينية التي يتمسكون بها تقول لهم صراحة ((وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلّم يشوع بن نون خادم موسى قائلا : موسى عبدى قد مات . فالآن قم أعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم أى لبني إسرائيل . كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيه كما كلّمْتُ موسى . من البرية ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات . جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير.. إلخ)) (يشوع ١ : ١ - ٥) .

إن بنى إسرائيل المعاصرين لم يكتفوا بالمرجعية الدينية للاستيلاء على أراضي الغير، وإنما يزايدون على تلك المرجعية بإدعاء أنهم بناء الحضارة المصرية ، والترويج للكثير من الأكاذيب مثل أن (يوسا) هو يوسف وأن أخناتون هو موسى . وهى إدعاءات يُكذّبها التاريخ والعلم . وإذا كانت هذه هى إرادة الميديا الصهيونية ، فأين (إرادتنا) نحن المصريين ؟

إن الأمثلة المذكورة بعاليه ضئيلة قياسًا على الكم الهائل من الأمثلة التى تحت يدى ، وكانت النتيجة مرعبة ، وهى أن الثقافة السائدة فى مصر، تُقاوم الهجوم على الحضارة المصرية ، بل وعلى القومية المصرية بالعبرى ، أى على أرضية التراث العبرى المعادى لمصر، شعبًا وحضارة . ويعف ضميرى عن إتهام أى كاتب بالعداء لمصر، ولكننى فى نفس الوقت أقدم السيادة للعقل الحر، وأن العبرة بما هو مدوّن ووصل إلى يد القارئ ، وليست العبرة بالنيات . وتكمن المأساة فى أن كثيرين من الشرفاء يكتبون بلغة العاطفة مرة أويحسابات الأيديولوجيا مرات ، ضد لغة العلم، ويتخلون عن عقولهم ، عندما يخلطون بين ما هو تاريخى وما هو دينى ، وأن الكاتب الذى يسمح ضميره أن يسب ويهجو (الفرعون) ويعتبره النموذج الأكبر لكل الطغاة لا يحترم لغة العلم ، ناهيك عن الدرجة التى وصل إليها من الدونية القومية .

إن ترديد إدعاءات بنى إسرائيل يستدعى استنفار كل الكتاب المصريين ،

بالإضافة إلى جهازى التعليم والإعلام ، للتصدى والرد على الميديا الصهيونية ، وهذا التصدى لن يكون ذات جدوى ، طالما أن الثقافة السائدة تقاوم إدعاءات الصهيونية الدينية بالعبرى (أى أنها مؤمنة بالتراث العبرى المعادى لمصر) بل إن هذه المقاومة بالعبرى تُضاف إلى وصيد العبريين أعداء مصر. وأرى أن المقاومة الجادة يجب أن تمر من خلال ترسيخ احترام علم المصريين ، وأن يكون مادة أساسية فى كل مراحل التعليم ، من الابتدائى إلى الجامعى ، كما تفعل دول الشعوب المتحضرة ، ولن تكون إلا بتعليم اللغة المصرية القديمة بمراحلها الثلاث (الهيروغليفية والديموتيقية والقبطية) وأعتقد أنه لو تمت الاستجابة لهذا المطلب القومى ، نكون قد ضمنا- خلال عشرين أو ثلاثين عامًا- تخريج أجيال تعى تاريخها وتراثها ، وبالتالي تكون هذه الأجيال مسلحة بإطار معرفى- على أسس علمية- ويتأكد لديهم اليقين العلمى أن الحضارة المصرية التى أبدعها جدودهم ، كانت مهد الحضارات الإنسانية ، وأن الفراعين (= الملوك) كانوا وطنيين ، وكانوا يدافعون عن مصر فى الصفوف الأولى ، مثلهم مثل أى جندى (فى المتحف المصرى- قسم المومياوات- جثة الفرعون العظيم سقنن- رع وعلى وجهه وفى صدره آثار الجروح التى نتجت عن مشاركته الجنود فى محاربة الهكسوس) وسوف يترتب على هذا الوعى احترام وتبجيل جدودهم كما يفعل الإيرانيون وغيرهم من الشعوب ، وبالتالي لن يسمح ضمير أى مصرى بأن يسب جدوده ، كما تفعل الثقافة السائدة حاليًا .

إن الإطار المعرفى المدعم بأسس علمية ، هو بداية الطريق لاحترام ذواتنا القومية .



الفصل الثانى

مصر

والتراث العبرى

عرض صحفى بجريدة الأهرام (١٣/١١/٩٧ ص ٣) ملخصاً لمحاضرة ألقاها د. مراد محمد الدش أستاذ مساعد الهندسة الإنشائية بجامعة عين شمس . والعرض يتسم بالإعجاب والانبهار، لأن المحاضر قدّم تفسيراً مختلفاً لأحداث التاريخ المصرى القديم ((يحمل مفاجأة علمية ضخمة تتعلق بمكان عبور موسى . وكان تحوتس الثالث هو فرعون مصر آنذاك الذى بغى وتجبر .. إلخ)) وهذه المفاجأة (العلمية) الضخمة تُثير الملاحظات التالية :

كل الشعوب المتحضرة (اليونانيون ، الصينيون ، اليابانيون إلخ) يحترمون تراثهم ويُقدّسون جدودهم الذين حكموا بلادهم فى العصور القديمة ، وهؤلاء الحكام ينطبق عليهم الحكم القيمى غير العلمى (وثنيين) بمراعاة أنهم عاشوا قبل ظهور الإسلام بآلاف السنين . وأن الأحفاد فى قرننا الحالى يُطلقون أسماء هؤلاء الجدد على أبنائهم . فلماذا ينفرد (المثقف) المصرى بهذه الدونية المتمثلة فى سب جدوده وتشويه تاريخهم الوطنى فى الدفاع عن مصر ضد الغزاة ؟

إنّ هذا الاحتقار ضد رموزنا القومية يشترك فيه أغلب الكتاب (المصريين) وبدأ بعد كارثة أيب / يوليو ١٩٥٢ عندما امتلك عبدالناصر جرأة شطب اسم مصر، وأصبحت هوية المصري الحروف الثلاثة الشهيرة (ج . ع . م) وهو الفعل الذي لم يتركه الغزاة ، بدءًا بالهكسوس وحتى الإنجليز. ومنذ ذلك التاريخ أصبح من النادر أن تجد مثقفًا في قامة لطفى السيد أو طه حسين أو سلامة موسى أو درية شفيق أو سعاد الرملى أو منيرة ثابت إلخ الذين كانوا يدافعون عن مصر مهد الحضارة الإنسانية .

إنّ تحتمس الثالث الذى اتهمه د. مراد الدش بالبغي والتجبر، هو واحد من الفراعنة (= الملوك) العظام وعلى سبيل المثال كتب عنه (ولترامرى) أنّ ((شهرة انتصارات تحتمس الثالث في سوريا كانت كافية لردع أية فكرة ثورية في كوش)) وأثناء حكمه ((وصلت إدارة النوبة إلى أعلى المستويات . وأنّ العمل في مناجم الذهب والطرق التجارية قد تمتعاً بالأمان فلم تقلقها إغارات البدو)) (انظر كتاب : مصر وبلاد النوبة - ترجمة تحفة هندوسة - عام ١٩٧٠ من ص ١٩٢ - ١٩٥) وكتب (جان يويوت) أنّ تحوتمس الثالث ((استمر يحكم أكثر من ثلاثين عامًا ، كانت كلها سنوات مجد وازدهار عظيمين)) وأنه تمكن من ((جعل فينيقيا في متناول الجيوش المصرية عندما أقام في بيرو نقر (ضاحية منف) ترسانة بحرية بنى فيها أسطولاً عظيماً لنقل الجيوش)) وروى المؤلف تفاصيل انتصار تحتمس الثالث على ملك قادش في معركة مجدو (تلك المدينة الحصينة) بفضل التكتيك العسكرى الباهر. وبعد معركة مجدو ((قام مندوبو دولة أشور بزيارته ، كما أرسل ملوك خاتى وبابل الهدايا للفرعون بعد عبوره الفرات ، ثم قدّم ملوك عازى وألاخ فروض الطاعة للفرعون ، وهكذا تمكن في أواخر حكمه أن يعلن بحق أنّ حدود إمبراطوريته تمتد من كاروى جنوباً إلى نهارين شمالاً ، كما كان يتوجّه أحياناً إلى النقب ليتعقب البدو ويقمع التمردات التى كانت تتوالى تباعاً)) (أنظر كتاب : مصر الفرعونية - ترجمة سعد زهران - الناشر مؤسسة سجل العرب - سلسلة الألف

كتاب الأولى عام ١٩٦٦ ص ١٠٨ ، من ١١٥-١١٧).

وجاء في (معجم الحضارة المصرية) أن تحتمس الثالث أثبت أنه فاتح عظيم ، فقد هزم عصابة من الأمراء السوريين في مجدو ، وقضى على مقاومة الممالك العظمى والصغرى في فلسطين وسوريا ، في حملات سنوية ، وأوقف زحف الميتاني ، تلك الدولة العراقية الشمالية التي زحفت حتى نهر الفرات ، وثبت أقدام المصريين فيما بين الشلال الأول والرابع للنيل . وهذه الانتصارات منقوشة على جدران معبد آمون بالكرنك ، تُثنى على فتوحاته وأعماله الدينية الخيرة . وأن مقصورته بالكرنك وبعض الآثار الطيبة الأخرى ومقابر موظفيه الجميلة ، تُفصح عن عظمة مؤسس أعظم حقبة في تاريخ مصر)) (تأليف مجموعة من علماء المصريات - ترجمة أمين سلامة - مكتبة الأسرة - عام ٩٦ ص ٩٦ ، ٧٩).

أما د. محمد يومي مهران فذكر أن تحتمس الثالث ((أعظم الفراعين المحاربين على الإطلاق فيما اعتقد)) (تاريخ الشرق الأدنى القديم - مصدر سابق - ج ٣ ص ١٥٧ ، ٢٢٧).

وعن هذا الفرعون العظيم كتبت عالمة المصريات (مرجريت مري) أنه في عهده ((كانت القضايا المدنية متعلقة في الغالب بالأراضي والوراثة ، وتتم محاكماتها أمام الوزير . ولما كانت كلها في الغالب لفئة من الناس لها مكانتها ، كان لزاماً على الوزير أن يكون قاضياً منصفاً . وقد أشار تحتمس الثالث إلى أهمية ذلك عندما عين (رخ - م - رع) لهذا المنصب فقال «إن المحاباة رجسٌ ضد الإله» ونبه على الوزير الجديد بأن يُعامل الصديق والغريب والغنى والفقر على قدم المساواة «لأن الرهبة الحقيقية للأمير هي في عدالته»)) وكتبت أيضاً أن المصريين أحبوا هذا الفاتح العظيم حُباً جماً)) (أنظر كتاب : مصر ومجدها الغابر - ترجمة محرم كمال - هيئة الكتاب المصرية - سلسلة الألف كتاب الثاني - رقم ٢٩٠ - عام ٩٨ - ص ٩١ ، ٩٢ ، ٢٢١).

هذا هو تحتمس الثالث في علم المصريات ، ولكنه من منظور أستاذ الهندسة

الإنشائية فهو الفرعون الذى بغى وتجبر لأنه اضطهد بنى إسرائيل وبالتالي ((هبط الوحي على موسى وتلقى رسالة ربه ليؤدب فرعون مصر.. إلخ)) وهنا تجدر الإشارة إلى الملاحظات التالية :

لم يستقر علماء علم المصريات على اسم الفرعون الذى طرد بنى إسرائيل من مصر . كما أن د. الدش اعترف بأن بنى إسرائيل فى عهد إمنمحات الثالث حاولوا ((السيطرة على الاقتصاد المصرى وجلبوا الهكسوس وساعدوهم فى السيطرة على البلاد. وتحول الهكسوس إلى مرتزقة يُسيطرون على المنطقة الشرقية لمصر، وحكموا فيها بدعم من بنى إسرائيل ، وعانى الشعب المصرى أشد المعاناة على يد بنى إسرائيل والهكسوس حتى تولى أحسن الأول مقاليد الحكم وعكف على وضع الخطط لطرد الهكسوس وكسر شوكتهم ومسانديهم من بنى إسرائيل ، حتى استطاع طرد الهكسوس الغزاة وكسر شوكة بنى إسرائيل . وجاء أمنحوتب الأول الذى تعقبهم وطاردهم فى كل مكان)) هذا هو نص كلام د. الدش الذى إتهم تحوتمس الثالث بالبغي والتجبر ، أضعه أمام القارئ ليحكم على هذه العقلية التى تشبث وتُردد خرافيف بنى إسرائيل .

ولا ينقطع انشغال المتعلمين (المصريين) فى البحث عن (فرعون) الخروج . وقبل الإدعاء بأنه تحتمس الثالث ، كان السائد أنه رمسيس الثانى ، ولكن الرحلة التى قطعها هذا الملك العظيم من القاهرة إلى باريس أخرستهم . والحكاية أن الرئيس الفرنسى ديستان طلب من الرئيس السادات أن يسمح لبعض (العلماء) أن يأخذوا مومياة الفرعون الشهير ويُقدّمونها فى عرض مسرحى فى باريس ، وبعد ذلك كانت الحجة أو الحيلة هى العلاج . كان وراء هذا العلاج المزعوم التأكد من أن رمسيس الثانى هو فرعون الخروج ، وذلك من خلال الفحص المعملى ، لمعرفة ما إذا كان قد مات غريقاً أم لا . والنتيجة بالطبع هى تشويه المومياة .

وذكراً . سعيد أبو العنين أن جريمة خروج المومياة من القاهرة ، كانت بإلحاح

من طبيب مغربي يهودي ، كان يُعالج محمود أبو وافية ، عدل الرئيس السادات . وللأمانة فإنّ د. جمال مختار رئيس هيئة الآثار في ذاك الوقت (ديسمبر ١٩٧٥) رفض عرض الرئيس الفرنسي وقال له ((هذا شيء صعب . فهذا الملك هو من ملوك مصر العظام . ومن غير المقبول أن تسافر الجثة لتعرض في فرنسا . وهل توافقون سيادتكم على أن نأخذ منكم التابوت أو حتى غطاء تابوت نابليون بونابرت ، لنعرضه هنا في مصر؟ وذكر د. جمال مختار أنه اتصل بيوسف السباعي (وزير الثقافة وقتها) ونقل له مخاوفه عن ردود الفعل التي يمكن أن يُحدثها سفر المومياء إلى باريس . ولكن يوسف السباعي لم يفعل شيئاً . ثم لجأ د. جمال مختار إلى رئيس الوزراء أيامها (عمدوح سالم) لإقناعه برفض فكرة خروج المومياء من مصر، ولكن عمدوح سالم لم يهتم بالأمر. وللأمانة أيضاً فإنّ أستاذة فرنسية في كلية العلوم عارضت الرئيس ديستان . وقالت إنّ هذا عبث . وأنّ هذه المومياء التي يريدون إخراجها من مصر لعرضها في فرنسا هي لواحد من أعظم ملوك مصر . وأنها سوف تقود مظاهرة تُندد بهذا العبث إذا لم يتراجع الرئيس ديستان . وكان لإثارة القضية على هذا النحو أثره الكبير، فقد تراجع الرئيس ديستان وبعث برسالة إلى الرئيس السادات أعلن فيها أنه تراجع عن فكرة عرض المومياء في باريس . ونشرت الصحف الفرنسية رسالة ديستان إلى السادات .

ولكن بعد تدخل أبو وافية تغير الموقف ووافق الرئيس السادات على سفر المومياء . وكان أكثر المُصرين على خروج المومياء من مصر هو الطبيب الفرنسي (بوكاي) الذي كانت له علاقات واسعة بكثير من الشخصيات المرموقة في العالم (العربي والإسلامي) وكان يعرف الكثيرين من الشخصيات المستولة في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر . وتبعاً لذلك صدرت توصيات من كبار المسؤولين ومن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالاحتفاء به ومساعدته وتلبية طلباته وتسهيل مهمته (العلمية) .

وإذا كانت الثقافة السائدة في مصر لم تهتم بخروج مومياء رمسيس الثانى من مصر، فإنّ صحيفة (الهيرالد تريبيون) كتبت أنّ الضجة التى أثّرت فى الإعلام الفرنسى حول مرض الفرعون وضرورة علاج المومياء إلخ، لم تكن سوى حيلة لإخراج الملك رمسيس من مصر، لوضعه تحت الفحص والبحث والدراسة، لمعرفة أسرار هذه الشخصية. وتعتمد موسى ديان أنّ يزور مومياء الفرعون العظيم فى المستشفى، وأخذ يتقرعلى أصابع قدميه بعصا المارشالية، وقال له بكلّ أحقاد اليهود ((أخرجتنا من مصر أحياء. وأخرجناك منها ميتاً)) ووصلت ذروة 'المأساة فى التقرير المصور فى التليفزيون الفرنسى، ومدته ٢٠ دقيقة. فى هذا التقرير المصور ظهرت المومياء عارية تمامًا بعد أن نزعوا اللقائف الكتانية التى كانت تحميها. وكان المذيع الفرنسى شديد التعصب لخرافى بنى إسرائيل، فقال لنمشاهدين ((إليكم فرعون مصر الشهير. إليكم ملك ملوك الفراعنة. إليكم الملك رمسيس الثانى. إليكم الفرعون الذى طارد اليهود قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام. الفرعون الذى اضطهد بنى إسرائيل وسخرهم فى أعمال البناء والتشييد وسقاهاهم سوء العذاب)) هذا التقرير المصور فى التليفزيون الفرنسى، هز ضمير الشعب الفرنسى وفى المقدمة المثقفين الفرنسيين، الذين توجه عدد كبير منهم إلى السفارة المصرية فى باريس وسجلوا رفضهم واستنكارهم لهذا العمل المشين الذى أساء إلى شخصية تاريخية عظيمة.

كتبت عالمة المصريات كريستين نوبلكور فى كتابها عن رمسيس الثانى والذى طبع منه مليون نسخة أنّ ((التوراة ظلمت رمسيس وكل ما قالته عنه غير صحيح. وظلمت مصر والمصريين)) وأنّ التوراة كتاب مليء بالقصص والحكايات التى جُمعت من هنا وهناك. وأنها لا يمكن أن تُعد وثيقة تاريخية وبصفة خاصة بالنسبة لمصر)) وكتبت ((إننى أرفض الافتراء على التاريخ وعلى الملك رمسيس. وأنّ الإدعاءات اليهودية على الملك رمسيس هى محض افتراء وليس لها أى أساس من

الصحة . إنّ سفر الخروج يُشير إلى وقائع لا يوجد لها أى أثر في كل ما وجدناه من كتابات ونقوش مصرية ، على الرغم من أنّ هذه الكتابات والنقوش كانت ترصد تفصيلات صغيرة جدًا لا تقارن بخروج مئات الآلاف من البلاد . هناك في سجلات الحدود تسجيل لكل حركات المرور عبر الحدود ، حتى إنّ راعيًا ومعه ٤٠ رأس غنم يعبر الحدود ، كان عبوره يُرصد ويُسجل . وإذا كنتُ في كتابي عن رمسيس الثاني قد تحدثتُ عن خروج اليهود من مصر ، فقد فعلتُ ذلك للأمانة العلمية . إنّ واجب عالم المصريات أن يقول رأيه بأمانة . إنّ ما تقوله التوراة من أن المصريين كانوا يُسخرون اليهود لضرب الطوب ، يجعل أى دارس لتاريخ مصر القديمة يتسّم . إنّ ضرب الطوب في مصر قديم قدم الزمن . وأنا أرفض تمامًا الافتراء على التاريخ لإدانة فترة أو زمن بعينه . ولم يكن الفراغة قساة ، لأنّ الساميين الذين كانوا يفدون إلى مصر للعمل بها ، كانوا يعيشون حياة هائلة . هذه هي حقائق التاريخ الثابتة . إنّ الشعب المصرى يتمتع بحكمة هائلة لا أجدها في الشعوب الأخرى . كما يتمتع بنظرة فلسفية للأمور . وعندما أرى أفلامًا مثل فيلم (الوصايا العشر) تُصور المصريين وهم يدوسون فوق رقاب العبيد الساميين ، أشعر بالغضب . فهذا كذب وافتراء)) هذا هو رأى عالمة مصريات فرنسية عن جدودنا المصريين القدماء . و ذكرتُ أنه عند نقل تابوت الملك رمسيس إلى مركب بالنيل تتجه به إلى القاهرة ((وقف المصريون على الشاطئ عند الأقصر وكأنهم يُشاركون في جنازة عصرية . فالنساء يولولن من الحزن وينشرن الغبار على شعورهن . والرجال يُطلقون النار من البنادق)) .

بعد أن أثبتتُ الفحوص الطبية والمعملية أنّ مومياء رمسيس الثاني ليس بها أية آثار تدل على الغرق ، وبالتالي ليس هو فرعون الخروج ، فلماذا بالطبيب الفرنسى (بوكاى) يركب رأسه العبرى في اتجاه مومياء الفرعون العظيم مرتبّاح ، وأنه هو الغريق وبالتالي فهو فرعون الخروج ، ولكن د . جمال مختار رفض هذا الرأى وقال إنّ

(بوكاي) ليس موضع ثقة وليس مؤهلاً علمياً .

من هو مرنبتاح ؟ لقد اضطر هذا الملك في العام الخامس من حكمه إلى إرسال حملة عسكرية للدفاع عن حدود مصر الغربية ، بعد علمه أن رئيس قبيلة الليبو (ليبيا) غزا حدود مصر الغربية ومعه زوجاته وعددهن ١٢ زوجة ، الأمر الذي فسره مرنبتاح أن هذا الغزو يعنى الاستيطان في وادى النيل . فأعد جيشاً قوياً من المشاة والمركبات الحربية . واستطاع في معركة دامت ٦ ساعات أن ينتصر على (اللوبيين) وأن يأسر ٩ آلاف منهم . وذكرت النقوش المصرية التى ترجع إلى عهده تفاصيل هذه الحرب على أحد جدران معبد الكرنك . وفى أعقاب هذا النصر كُتبت (أنشودة الانتصار) التى ورد فيها عبارة ((وإسرائيل قد انقطعت بذرتها)) ويرى عالم المصريات د. عبدالعزيز صالح أن لوحة إسرائيل التى تتضمن أنشودة النصر قد اعتبرت إسرائيل من ((نزلاء فلسطين)) وأن مرنبتاح فى هذه اللوحة لم يذكر تتبعه لهم ، وهو ما يؤكد أن بنى إسرائيل دخلوا فلسطين قبل عهده ، وأنهم خرجوا من مصر - بالتالى - قبل عهده . وإذا كان مرنبتاح حكم مدة ١٠ سنوات ، فمعنى ذلك أنه عاش ٥ سنوات فى الحكم بعد خروج بنى إسرائيل . وأن هذا الأمر ((يتناقض مع قول التوراة بأن (فرعون) قد غرق فى البحر الأحمر. بل ويتنافر مع قول القرآن العظيم بأن (فرعون) غرق وأن جثته قد انتشلت لتكون آية لمن خلفه . قال تعالى: ﴿فَأَلَيْتُمْ نَتِيجَكُمْ يَدَيْكُمْ لِكُتُوبِكُمْ لِمَنْ خَلَقَكُمْ آيَةً﴾ . وأكثر من ذلك فإن جثة مرنبتاح (فرعون الخروج حسب تفسيرات بعض اليهود) موجودة وقد عُثر عليها فى طيبة الغربية ، أى بالبر الغربى للأقصر، وهم يقولون أنه غرق فى البحر الأحمر ولم تظهر جثته)).

رغم كل هذه الحقائق لجأ الطبيب (بوكاي) إلى التلفيق ليؤكد أن مرنبتاح هو فرعون الخروج وأنه مات غريقاً إلى آخر هذه الخرافيف . وكانت الكارثة الأكبر - كما ذكرنا . سعيد أبو العنين - أن بعض المجلات المصرية نشرت هذا التلفيق ووضعت

صورة (بوكاي) على الغلاف (لمزيد من التفاصيل انظر كتاب الفرعون الذي يُطارده اليهود بين التوراة والقرآن - تأليف سعيد أبو العنين - سلسلة كتاب اليوم - مؤسسة الأخبار - عدد مايو ٩٧).

بعد فشل الجري وراء تحتمس الثالث ووراء رمسيس الثاني ووراء مرنبتاح ، استدار الدماغ العبري لبحث عن ملك آخر ليكون هو فرعون الخرج ، فقال إنه أمنحوتب الثالث (صحيفة القاهرة - ٢٠٠٧ / ٨ / ٧) وهكذا يتطوع دماغ باحث (مصري) ليؤكد خرايف بنى إسرائيل عن ملوكنا العظام . فهذا الملك هو ابن تحتمس الرابع ، وبلغت الإمبراطورية المصرية في عهده أوج مجدها . وكانت تعتمد على سياسة خارجية ماهرة . وكان من جراء تحاشي الدولة القيام بأعمال حربية ، أن سنحت للأمراء الوطنيين في آسيا الفرصة كي ينكثوا بولائهم . فبدأ النفوذ الحبشي يقوى على حساب مصر . وقد اعترف أمنحوتب الثالث بآتون كإله شخصي (قبل أخناتون) ولكنه استمر يُكرم قدامى آلهة وطنه (معجم الحضارة المصرية - مصدر سابق - ص ٥٧)

الملاحظ أن الباحثين (المصريين) المنشغلين بمن هو فرعون الخرج ، يعتمدون على المرجعية الدينية ، وهي مرجعية لاتصلح لأي بحث علمي ، يعتمد على البرديات وكتب المؤرخين وعلماء المصريات وعلماء اللغويات ، والأهم إجادة اللغة المصرية القديمة . كما أنهم لايتوقفون أمام ذواتهم ليسألوا أنفسهم : أليس هذا البحث العبثي عن من هو فرعون الخرج ، هو أحد هموم الصهيونية الدينية ؟

وفي هذا السياق دأب كثيرون من الكتاب (المصريين) على ذكر أن اسم مصر ورد كثيراً في العهد القديم (انظر: صحيفة القاهرة ٢٠٠٨ / ٦ / ٣٠ كمثال) وأن اسم مصر تردد ٥٦٠ مرة . مشكلة هذه الكتابة أنها تهتم بالكم ولا تراعى أهداف

هذا التكرار لاسم مصر، خاصة أنّ التكرار له صبغة أيديولوجية معادية لمصر.

ورد اسم مصر لأول مرة في الإصحاح ١٢ من سفر التكوين ، الذى ذكر أنه كان جوع في الأرض ، لذلك انحدر إبراهيم (إبراهيم فيما بعد) إلى مصر. وقال لساراي (سارة فيما بعد) امرأته قولى إنك أختى ، ليكون لى خير بسببك . ولما ذهبت ساراي إلى بيت فرعون ، صنع إلى إبراهيم خيراً بسببها . وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وجمال . ثم تكون المفاجأة أنه في الآية التالية مباشرة نقرأ ((فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة إبراهيم . فدعا فرعون إبراهيم وقال ما هذا الذى صنعت بى . لماذا لم تُخبرنى أنها امرأتك ؟ لماذا قلت هى أختى حتى أخذتها لى لتكون زوجتى ؟ والآن هو ذا امرأتك (مكتوبة هكذا) خذها وإذهب . فأوصى عليه فرعون رجالاً فشيّعوه وامرأته وكل ما كان له)) (الآيات من ١٠ - ٢٠) والسؤال هو: لماذا غضب الرب وأنزل ضرباته العظيمة على الفرعون وبيته ، رغم أنه وثق في كلام إبراهيم على أنّ ساراي أخته وبالتالي أخذها الفرعون كزوجة وأعطى لأخيها مهرها ؟ سؤال تتجاهله الثقافة السائدة ، ناهيك عن التفكير فيه . كما تتجاهل أنّ عمر ساراي عند دخولها مصر كان ٦٥ سنة وفق رواية التوراة . وتتجاهل أنها قادمة من صحراء جرداء بعد رحلة صفتها فيها الرياح وغطت وجهها بالرمال ، فأئى جمال هذا الذى ادعته التوراة في وجه ساراي حتى تسبى فرعون مصر، وبالتالي خشى عليها زوجها (إبرام) من أن تفتن بجمالها ملك مصر، فأمرها أن تدعى أنها أخته (أخت إبراهيم) وليست زوجته ؟ وهل مصر خلّت من البنات الجميلات ليختار ملك مصر من بينهن زوجة له ؟ وهل كان (الفرعون) أعمى البصر والبصيرة ليتزوج من امرأة عجوز قادمة من الصحراء الجرداء وعلى وجهها وجسدها آثار الجوع (وفق رواية التوراة أيضاً) ؟ أسئلة مسكوت عنها ، ناهيك عن التفكير فيها .

في المرة الثانية نجد أنّ مصر هى جنة الرب (١٣ : ١٠) وبعد ذلك بإصحاحين

فإن الرب يهب مصر (وغيرها) إلى بنى إسرائيل . فإذا انتقلنا من سفر التكوين إلى سفر الخروج ، نجد تصاعداً دراماتيكيًا فيقول الرب لموسى اذهب إلى مصر فإني معك ((فأمد يدي وأضرب مصر بكل عجائبي)) وأثناء خروج بنى إسرائيل من مصر ، فإن إلههم العبرى يُخزّضهم على سرقة المصريين (٣ : من ٦ - ٢٢) هذا غير تحويل كل مظاهر الطبيعة والجماد في مصر إلى دم (٧ : من ١ - ٢١) بعد ذلك ينزل الرب بنفسه ليُدمر مصر (١١ ، ١٢) .

لا يتوقف الكتاب الذين استبدلوا الدماغ العبرى بالدماغ المصرى (في اللغة العربية تُلحق الباء بالمتروك ، وإن كان المصريون يُفضلون العكس رغم وعيهم بهذه القاعدة اللغوية) لا يتوقف الكتاب (المصريون) الذين فضلوا الدماغ العبرى على الدماغ المصرى ، أمام الآيات التى تتحدث عن ندم العبريين بعد خروجهم من مصر ، حيث كانوا يأكلون اللحم والسّمك إلخ بالمجان ، ورغبتهم فى العودة إلى مصر ليموتوا فيها (خروج ١٤ ، ١٦ وسفر العدد من ١١ - ١٤) .

بعد هذه الأمثلة (وهى قليلة جدًا) عن اسم مصر فى العهد القديم ، ألا يكون السؤال مشروعًا عن هدف الكتاب (المصريين) من الإشارة إلى أنّ التراث العبرى اهتم بذكر اسم مصر ، وهل الهدف هو ترسيخ التشوهات التى لحقت بجدودنا المصريين القدماء ؟ وإذا كانت هذه التشوهات تُخدم المشروع العبرى المعادى لمصر ، فلماذا تلجأ الثقافة السائدة إلى تثبيتها فى عقول الأجيال الجديدة من أبنائنا المصريين ؟ وهل هؤلاء الكتاب قرأوا العهد القديم ؟ أم اكتفوا برصد عدد المرات التى ورد فيها اسم مصر ؟ وإذا كانوا قد قرزوه ، فلماذا لم يتوقفوا أمام التعارض الواضح بين لغة التراث العبرى ، ولغة العلم ؟ خاصة علم المصريّات الذى ينفى كل مزاعم بنى إسرائيل عن مصر فى العصور القديمة . وإذا كان التراث العبرى معاديًا لمصر ، فالكارثة الحقيقية هى تبنى غالبية المتعلمين المصريين لهذا التراث . وأنا أقول (المتعلمين) ولا أقول (المثقفين) لأنّ التعريف العلمى للمثقف أنه ((طليعة روحية

لشعبه)) طليعة تحرص على الدفاع عن الخصائص القومية لشعبها ، وتحرص على الرد على أى هجوم أو أى عداوة لتاريخ شعبها ، خاصة إذا كان هذا الهجوم وهذا العداوة ، ذات توجهات أيديولوجية وبعيدة كل البعد عن لغة العلم .



الفصل الثالث

أولاد حارتنا بين الإبداع الأدبي والنص الديني

للأديب الكبير نجيب محفوظ كتاب بعنوان (أولاد حارتنا) أثار سخط الأصوليين المسلمين والمسيحيين واليهود ، إذ أنّ الرموز عنده يسهل على أى تلميذ التوصل إلى مقابلها التراثى ، مثل رمز الإله (= الجبلأوى) ورمز الأنبياء عليهم السلام (جبل = موسى) ، (رفاعة = عيسى) ، (قاسم = محمد) ووقعت المؤسسات الدينية فى حيص بيص ، فأولاد حارتنا (الكتاب) لو نُشر على نطاق واسع ، فهو تكريس طيب للفكر الدينى عن قصة (خلق العالم) ولكنها تنتهى بموت الجبلأوى (الإله) فىلّى أى جانب تنحاز المؤسسات الدينية ؟ انحازت إلى جانب المصادرة ، لأنه لا يُعقل أن توافق على موت الجبلأوى . بالإضافة إلى أنّ الفكر الدينى عن قصة خلق العالم لن يخسر كثيراً من قرار المصادرة . فإذا كانت الأصول موجودة (التوراة والأنجيل والقرآن العظيم) فما قيمة النسخة المقلدة ؟

وإذا كان الكتاب وقفوا مع حرية التعبير وطالبوا بإلغاء قرار المصادرة (وهذا رأى أيضاً) فإنّ أحدًا منهم لم يهتم بما فى الكتاب من هجوم على جدودنا المصريين القدماء ، فى تكرار لما

جاء في الكتب (المقدسة) على النحو الذى سأذكره . وأنا أعتمد على طبعة دار الآداب - بيروت - الطبعة الأولى - يناير ١٩٦٧ . ومع ملاحظة أننى سأقصر كلامى على فصل (جبل) لعلاقته بمصر . أما من يود قراءة دراستى الكاملة فإننى أحيله إلى مجلة فصول - ربيع ١٩٩٢ أو إلى كتابى (أنساق القيم فى الإبداع المصرى) هيئة قصور الثقافة - سلسلة كتابات نقدية - عدد رقم ١٠٣ مايو ٢٠٠٠ .

شخصية جبل فى أولاد حارتنا هى صدى لشخصية النبى موسى فى التراث العبرى . فالطفلان (موسى وجبل) لقيطان . ولكى يكون التطابق تاماً ، فإنهما لقيطا ماء (فى التوراة على حافة النهر) وفى أولاد حارتنا ((فى حفرة مملوءة بمياه الأمطار)) (قارن سفر الخروج - الإصحاح الثانى وأولاد حارتنا ص ١٣١) وفى التوراة فإن ابنة ملك مصر (الفرعون حسب الاستخدام العبرى) هى التى رأت الطفل وسمعت بكاءه ورقّت له وقالت ((هذا من أولاد العبرانيين)) (خروج ٢ : ٦ ، ٧) وفى أولاد حارتنا فإن هدى هانم (زوجة الأندى ناظر الوقف) هى التى رأت الطفل وسمعت بكاءه فرق قلبها إلخ . وكما تربى موسى فى بيت الملك المصرى (الفرعون) كذلك ينشأ جبل . وكما قتل موسى رجلاً مصرياً كذلك يفعل جبل . وإذا كان أحد العبريين يتشكك فى موسى (فى اليوم الثانى للقتل مباشرة) ويقول له ((أمفتكر أنت بقتلى كما قتلت المصرى)) (خروج ٢ : من ١١ - ١٥) فإن دعبس (وهو من آل حمدان مثل جبل) يقول لجبل ((أتريد أن تقتلنى كما قتلت قدره ؟)) (أولاد حارتنا من ١٣٧ - ١٤٠ ، ١٥١) .

وإذا يُصور العهد القديم لقاء موسى بربه إله العبريين ، وأنها تكلما سويًا عن ذل شعب بنى إسرائيل فى مصر ونزول الإله ليُنقذهم من أيدي المصريين ، فإن أولاد حارتنا - لأنها ليست رواية ، بل صدى لما جاء فى العهد القديم - لا تُفوّت الفرصة وتصور لقاء جبل بجده الجبلاوى . فى هذا اللقاء فإن الجبلاوى (رمز الإله

العبري) يُحرّض جبل على الثأر من ناظر الوقف (أى الفرعون) ومن الفتوات التابعين له (أى باقى المصريين) الذين يذلون ويضطهدون أسرة آل حمدان ، وهى الأسرة التى تمثل الامتداد لسلالة الجبلاوى ، أى العبريين . يقول الجبلاوى لحفيده جبل ((أنت يا جبل ممن يركن إليهم ، وآى ذلك أنك هجرت النعيم غضباً لأسرتك المظلومة ، وما أسرتك إلا أسرتى ، وهم لهم فى وقفى حق يجب أن يأخذوه ، ولهم كرامة يجب أن تصان ، وحياة يجب أن تكون جميلة . وعندما يسأله جبل ((كيف السبيل إلى ذلك ؟)) فإن الجبلاوى يرد عليه قائلاً ((بالقوة تهزمون البغى . وتأخذون الحق . وتحبون الحياة الطيبة)) (قارن سفر الخروج - الاصحاحين ٣ ، ٤ وأولاد حارتنا من ص ١٧٦ - ١٧٨) .

وكما يذهب موسى إلى (الفرعون) من أجل بنى إسرائيل ، كذلك يذهب جبل إلى ناظر الوقف من أجل آل حمدان . تقول زوجة الناظر لجبل (وهى التى التقطته وربته) : ((علمت بلا شك بعفونا عن آل حمدان إكراماً لك)) فيرد جبل عليها ((الحق يا سيدتى أنهم يُعانون ذلاً لعن من الموت ، وقد قُتل منهم من قُتل)) فيقول الأفندى ناظر الوقف ((إنهم مجرمون . وقد نالوا ما يستحقون)) فيرد جبل عليه ((المجرمون حقاً هم الفتوات)) (ص ١٨٤) أى أن المجرمين هم المصريون . وقارن أيضاً بين وصف العهد القديم للمصريين والفرعون فى سفر الخروج فى أى إصحاح تشاء ، ووصف أولاد حارتنا للفتوات وناظر الوقف فى فصل (جبل) لتكتشف بسهولة ويسر التطابق التام بين الرمز والمرموز إليه ، وأن الكتاب الثانى ما هو إلا صدى للكتاب الأول) حتى سيطرة موسى على الشعبين نجد شبيهاً لها عند جبل (قارن سفر الخروج - إصحاح ٤ وأولاد حارتنا من ص ١٩٠ - ١٩١) .

فى العهد القديم نقرأ كيف انتصر موسى على المصريين ((فقال الرب لموسى مد يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين . على مركباتهم وفرسانهم . فمد موسى يده على البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة والمصريون هاربون إلى لقائه . فدفع

الرب المصريين في وسط البحر. فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر. لم يبق منهم ولا واحد. وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم. فخلص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين. ونظر إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطئ البحر. ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين)) (خروج- إصحاح ١٤ الآيات من ٢٦ - ٣١) فكيف كان انتصار جبل وآل حمدان على ناظر الوقف والفتوات التابعين له ؟ إنَّ (زقلط) الفتوة تمثل سلطة ناظر الوقف ، يهجم هو ورجاله الفتوات على بوابة آل حمدان (آل جبل سلالة الجبلأوى) وعندما يصلون إلى الدهليز الطويل الممتد وراء باب الحوش ، يحدث التتابع مع النص التوراتي . يقول الكاتب ((وما كادوا يتوسطون الدهليز حتى مادت أرضه بهم بغته وهوت بمن عليها إلى قاع حفرة عميقة)) (ص ١٩٦) فهل هناك شبهة تجن عندما أقول إننا لسنا إزاء عمل أدبي ، بل مجرد صدى لما سطره العبريون عن تاريخهم كما أرادوه ؟ لنقرأ كيف يُصوّر الكاتب نهاية زقلط (رمز سلطة البطش عند المصريين) كتب ((وتشبت يدا زقلط بجدار الحفرة يريد أن يثب بالضبط كحال الفرعون وهو يحاول رفع رأسه قبل أن يغرق) وقد تجلى الحقد في عينيه وراح يُغالب الإعياء والخور ويزفر أنات كالخوار)) (لاحظ التشبيه بالحيوان وبعد ذلك ((انهالت عليه النبايت حتى تهاوى إلى الوراء وتراخت يده عن الجدار فسقط في الماء وفي كل راحة من راحتيه قبضة من طين)) (ص ١٩٦) بعد هذه الهزيمة لمثل البطش والظلم (أى المصريين) فإنَّ شاعر آل حمدان يصيح ((هذه عاقبة الظالمين)) (لاحظ اللغة الدينية) ثم يقول المتجمهرون من آل حمدان ((إنَّ جبل قد أهلك الفتوات كما أهلك الثعابين)) (١٩٦ ، ١٩٧) والتآتب يتشكك في ذكاء القارئ ، ويخشى أن يكون التقابل التوراتي قد أفلت منه ، فيعاود تذكيره على لسان رفاعة في الفتمل المعنون باسمه ، قال رفاعة ((ليت الدهليز بقى لنا . إنه

دهليز مبارك . إذ فيه تقرر النصر لجبل على أعدائه)) (ص ٢٦٧) .

بعد هذا الانتصار الساحق لجبل كتب المؤلف ((هاجم الجميع (من آل حمدان) بيوت الفتوات فاعتدت الأيدي والأرجل على أهاليهم حتى فروا بأرواحهم وهم يتحسسون أقفيتهم وخدودهم مصعدين التأوهات سافحين الدموع)) وهذا غير نهب البيوت بكل ما فيها (ص ١٩٧) فإذا كنا إزاء عمل أدبى ، فإن العقل الحر يتساءل ، كيف يتحول الفتوات الوحوش الجبابرة ، إلى جنناء ضعفاء يتلقون الصفعات ويتحسسون أقفيتهم إلخ دون أدنى مراعاة لعامل التحول الدرامى للشخصيات ؟ كما لو كنا نشاهد فيلمًا سينمائيًا هابطًا لا يراعى أبسط قواعد الدراما .

ويستبدل كتاب (أولاد حارتنا) بخروج العبريين من مصر كما جاء فى التوراة ، انتصار آل حمدان بزعامة جبل وهزيمة ناظر الوقف والفتوات (المصريين) بل إن ناظر الوقف ((يقف أصفر الوجه ذليلاً ثم يوافق على شروط جبل ويعلن موافقته على استرداد حقوق آل حمدان)) وأكثر من ذلك يعلن أن جبل هو الذى سيدير الوقف إن أراد (ص ٢٠٠) فبدلاً من خروج العبريين من مصر كما ينص التراث العبرى ، تتم السيطرة والسيادة لآل حمدان على الحارة (وهذا أول خروج عن النص العبرى فى أولاد حارتنا) وعندما يقول دعبس (من آل حمدان) : ((ولم لا يكون الوقف كله لنا ؟)) فإن جبل يرد ((أمرنى الواقف (أى الجبلاوى) باسترداد حقكم لا باغتصاب حقوق الآخرين)) وفى هذا خروج على النص التوراتى الذى يُعيد الكاتب تدوينه ، فالتوراة تُخَرِّضُ العبريين صراحة على نهب المصريين إذ جاء النص صريحاً ((فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين . بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم ويناتكم فتسلبون المصريين)) (خروج ٣ من ١٨ - ٢٢) فهذه دعوة صريحة للعبريين ، عندما تخرجون من مصر لا تمضون فارغين . ويكون ذلك بالطبع من خلال ((سلب المصريين)) وهذا الخروج على النص التوراتى يُحسب لكتاب (أولاد

حارتنا) ولكن بعد هذا الخروج على النص التوراتي تعود (أولاد حارتنا) فتستدرك الموقف ، فبعد أن أعلن جبل أن الواقع أمره باسترداد حقوق آل حمدان (لاحظ الاسم الذى يُذكر بك بآل عمران) لا باغتصاب حقوق الآخرين ، إذا به يرد على (دعبس) : ((ومن أدراك أن الآخرين سيأخذون حقوقهم)) قائلا ((لا شأن لى بذلك وإنك لا تكره الظلم إلا إن وقع عليك)) (ص ٢٠٠) إن هذا التحول من النقيض إلى النقيض تم فى الصفحة ذاتها . إن جملة ((أمرنى الواقع باسترداد حقكم لا باغتصاب حقوق الآخرين)) تبدو - رغم الإسقاط الظاهر - كصياغة أدبية ، ولكن لأن الكاتب مهتم بإعادة تدوين الفكر العبرى ، يشعر أنه ضبط نفسه متلبساً بالخروج على النص ، لذلك يُسارع - فى الصفحة ذاتها - إلى ضبط الشخصية على البوصلة الموضوعية لها سلفاً ، لذلك تأتى جملة ((لا شأن لى بحقوق الآخرين ، وإنك لا تكره الظلم إلا إن وقع عليك)) مناقضة لما قبلها. بل هى شديدة القسوة على الإنسان ، لأنها تُشبهه بأدنى وأحط الكائنات الحية. فأنا لا أعرف - ولكننى مستعد لتصوّر أن الدودة قد لا تشعر بألم دودة أخرى ملاصقة لها ، ولكننى أعرف أن الإنسان - الكائن الوحيد المتطور من مرحلة إلى مرحلة أرقى - يتألم ويشعر بالظلم الواقع على الآخرين ، حتى وإن لم يمسه هذا الظلم (برنارد شو، برتراند رسل ، جان بول سارتر إلى آخر أسماء الفلاسفة والمبدعين والمفكرين العظام الذين قادوا الحملات ضد الاستعمارين الإنجليزى والأمريكى ، لصالح تحرير الشعوب من هذين الاستعمارين مثل الشعب المصرى والشعب الفيتنامى إلخ) والمسألة فى ظنى - ومن واقع صفحات أولاد حارتنا- أن الكاتب أراد أن يؤكد أن جبل يُدافع عن آل حمدان فقط ، كما كان موسى يُدافع عن العبريين فقط .

وعندما يقول دعبس لجبل ((إنك لا تبغى الفتونة . سأكون أنا الفتوة)) فإن جبل يصيح ((لا فتونة فى آل حمدان.. ولكن ينبغى أن يكونوا فتوات جميعاً على من يطمع فيهم)) (ص ٢٠٢) وهذا هو الخروج الثالث على النص التوراتى فى فصل

(جبل) إن البشرية كانت تتمنى أن يتحقق الجزء الأول من كلام جبل ((لا فتونة في آل حمدان)) ولكن الحاصل غير ذلك تمامًا ، فالجزء السامى من العبريين الذين اختلطوا وعاشوا في أوروبا ، تجمّعوا وقرّروا الاستيلاء على أى مكان ولو بنزع السكان الأصليين عن طريق الإبادة . فكروا في الاستيلاء على سيناء ، ثم فكروا في أوغندا . وأخيرًا نجحوا في الاستيلاء على فلسطين بعد المجازر والمذابح المعروفة . وحتى لا يظن القارئ أن هناك شبهة تجنّ أو شبهة تعسف في التفسير ، فإننى أرجو أن يُراجع معى الأمثلة السابقة والتالية : يقول جبل لأهله ((إنكم أحب أهل الحارة إلى جدكم (الجبلاوى) فأنتم سادة الحارة دون منازع)) (ص ٢٠٢) إن هذه الجملة توقظ - وفق قانون التداعى الحر - مقولات العبريين عن ((شعب الله المختار)) وفي العهد القديم نقرأ ((طوبى للأمة التى الرب إلهها الشعب الذى اختاره ميراثًا لنفسه)) (المزامير - مزمو ٣٣) وكذلك نقرأ ((فالآن إن سمعتم لصوتى وحفظتم عهدي تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب)) (خروج ١٩ / ٥) وفي القرآن العظيم نقرأ ﴿يَتَّبِعْ إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧، ١٢٢] .

وبدأ ب شديد يُصر الكاتب على المباشرة دون أدنى موارد ، فيجعل شخصيتين من آل حمدان يتشاجران ، فيفقا أحدهما عين الآخر . كانت المشاجرة بسبب النقود . قال حمدان لجبل ((سيرد دعبس النقود إلى كعبلها)) فصاح جبل بأعلى صوته ((فليرد إليه بصره أولاً)) قال رضوان شاعر آل حمدان ((ليت في الإمكان رد البصر)) فقال جبل وقد أظلم وجهه كالسمااء الراعدة البارقة ((ولكن في الإمكان أن تؤخذ عين بعين)) ويُصر جبل على رأيه ويقوم بنفسه ويضرب دعبس (المعتدى) ويُطوّقه من الخلف ويأمر كعبلها (المعتدى عليه) قائلاً ((قم فخذ حقك)) وعندما يقوم كعبلها متردداً فإنّ جبل يصيح فيه وينظر إليه نظرة قاسية ويقول ((تقدم قبل أن أدفئك حيًا)) فيقوم كعبلها فعلاً ويفقا عين دعبس على مرأى من الجميع

(ص ٢٠٧، ٢٠٨) إن أية شخصية من الشخصيات الشريرة في الأدب العالمي لم تصل في دنائها إلى هذه الدرجة من القسوة ، بل إن القارئ يتعاطف معها ويحبها (راجع شخصيات «تورتيلافلات» لـ «جون شتاينبك» وشخصيات ديوستوفيسكي ، وشخصيات ديكنز وبصفة خاصة في روايته البديعة «الصغيرة دوريت» وهذه نماذج على سبيل المثال بالطبع) والمشكلة أن كاتب (أولاد حارتنا) لا يُبدع أدباً ، وإنما يُعيد كتابة الفكر العبري ، وفي المثال الأخير يريد أن يؤكد على جزء من شريعة العبريين : ففي التوراة نقراً ((وإن حصلت أذية تعطى نفساً بنفس . وعيناً بعين . وسناً بسن . ويداً بيد إلخ)) (خروج ٢١ من ٢٣ - ٢٥ وفي القرآن العظيم انظر سورة المائدة / ٤٥) فهل هناك شبهة تجزئ في وضوح التطابق التام بين موسى وجبل ؟ وأن آل جبل وآل حمدان سلالة الجبلاوى هم اليهود العبريون ؟ وبالتالي فإن ناظر الوقف والفتوات هم المصريون المجرمون المعتدون ؟! إن الأمثلة كثيرة أرباً بنفسى من تكرارها . وإنما أختتم بنموذج أخير من فصل جبل حيث يدور حوار حول شخصية الجبلاوى : هل هو جد الجميع أم جد آل حمدان فقط ؟ ترديداً لما جاء في العهد القديم ((تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب)) (قارن أولاد حارتنا ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ مع سفر الخروج ١٩ / ٥) .

إن كتاب أولاد حارتنا ألقى على كاهل تاريخ النقد الأدبي مجموعة من التساؤلات :

- ١- ما الذى دفع كاتباً مثل نجيب محفوظ ، خاض أجمل متعة يمر بها الفنان ، أى لحظات الخلق والإبداع ، ليكتب عملاً لا علاقة له بالفن والأدب ؟
- ٢- لماذا يتطوع كاتب مصرى ، سبق له أن ترجم كتاب (مصر القديمة) تأليف جيمس بيكر عام ٣٢ وكتب رواية (عبث الأقدار) عام ٣٩ ورواية (رادوييس) عام ٤٣ ورواية (كفاح طيبة) عام ٤٤ أى أنه اقترب من تاريخ الحضارة المصرية ،

وبالتالي فإنني أفترض افتراضاً مشروعاً ، أنه كان يعرف - أو يجب عليه أن يعرف - أن لغة العلم (وخاصة علم اللغويات وعلم المصريات) تختلف عن اللغة الدينية ، وبالتالي هناك اختلافات شديدة التباين بين ثقافة المصريين الزراعية وثقافة العبريين الرعوية ، وعرف - بالتأكيد - وهو ينقل عن العهد القديم ، التوجه الأيديولوجي المعادي للمصريين ، ليتأكد من حجم العداء الموجه ضد جدودنا ، وأن إله العبريين حوّل أرض مصر إلى خراب ، والبيوت والزرع والنهر إلى دم . فلماذا يتطوع كاتب (مصرى) ليُعيد تدوين كتاب (العهد القديم) ؟ في حين أن المواطنة الأيرلندية (كاثرين ماك أنثير) أقامت دعوى قضائية أمام محكمة دبلن العليا طالبّت فيها بحظر تداول العهد القديم لأنه أساء إلى مصر والمصريين ومجمل الحضارة المصرية ، التي كانت مهد الحضارات الإنسانية !! والعداء العبري ضد مصر لا يفترضه أحد ، فرغم التناقض الواضح في الآيات العبرية التالية ، فإنّ العقل الحر يلتقط المغزى بسهولة ، فقد نصّت صراحة على ((قال بنو إسرائيل لموسى ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر؟ أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين كفّ عنا فنخدم المصريين . لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية. فقال موسى للشعب لا تخافوا . فقفوا وانظروا خلاص الرب الذي يصنعه لكم اليوم . فإنه كما رأيتم المصريين لا تعودون ترونهم أيضاً إلى الأبد . الرب يُقاتل عنكم وأنتم تصمتون)) (خروج ١٤ : ١١ - ١٤) وفي القرآن العظيم خطاب إلى بنى إسرائيل ينص صراحة على ((وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون)) (البقرة / ٥٠) .

٣- إنّ الأدب يربأ بنفسه عن إطلاق الأحكام القيميّة على الشخصيات ، ولكن بمراعاة أنّ (أولاد حارتنا) صدى ل (العهد القديم) ولمجمل التراث العبري المعادي لمصر ، فإنّ ناظر الوقف (أى الملك المصرى / الفرعون) رجل ((فاقد الشرف)) (ص ١٩٩) أما إذا انتقلنا إلى التاريخ فإنّ علماء علم المصريات أكدوا من

واقع البرديات أن ملوك مصر العظماء (الفراعنة وفق التسمية العبرية) كانوا يموتون في ساحة القتال دفاعاً عن شرف الوطن ، ولم يُحاربوا من داخل القصور كما يفعل الزعماء المعاصرون لنا ، وإنما كانوا أمام الصفوف الأولى مثلهم مثل أى جندي . ولمن يريد مثالا حياً فعليه أن يذهب إلى المتحف المصري - قسم المومياوات - ليشاهد جثة الملك العظيم سقنن - رع ليعرف عدد الطعنات التي تلقاها على وجهه وصدره .

٤- إن علماء علم المصريات أكدوا على أن العبريين عملوا بالتجسس ضد مصر لصالح الغزاة - مرة مع الهكسوس ومرة مع الحيثيين - كما أكدوا - من خلال البرديات - على أن ملوك مصر سمحوا لبنى إسرائيل الرعاة الرحل الهاربين من القحط والمجاعة - باقتطاع الأراضي الزراعية على الحدود ، ليزرعوا ويعيشوا حياة كريمة ، وهذه سمة من سمات الشعوب المتحضرة ، شعوب الثقافة الزراعية التي تعرف مجتمع (الوفرة) ولكن العبريين أصحاب الثقافة الرعوية ومجتمع (القحط والندرة) قابلوا إحسان المصريين بأبلغ إساءة : التزوير الذي يؤكد الحقد . وفي هذا السياق ذكر د. رشاد عبد الله الشامي أن فرعون (= ملك) مصر طلب من بنى إسرائيل العمل ((كسائر المصريين في الزراعة وصناعة البناء اللتين كانتا الصناعتين الرئيسيتين في مصر ، وأضافوا (أى بنى إسرائيل) على أمانيتهم ورغباتهم قدسية إلهية تستر ما يخفونه من تأمر على أبناء الشعب المصري ، وجعلوا (يهوه) إلههم القبلي ينكل بالمصريين في صورة عمليات انتقامية بشعة ، ردًا على جميل الإقامة لخمس قرون نعموا خلالها بخيرات مصر ، وهى الخيرات التي ندموا على تركها عندما عانوا الأهوال والجوع والتشرد في التيه)) (انظر كتابه : الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية - سلسلة عالم المعرفة الكويتية - عدد ١٠٢ - يونيو ١٩٨٦ - ص ١٢) .

٥- إن فتوات أولاد حارتنا (= المصريين في العهد القديم) ظلمة ، عتاة ، مجرمون ، وحوش ، غلاظ القلوب ، فهل هذه الأوصاف تنطبق على جدودنا ؟ لنستمع إلى رأى العالم سيجموند فرويد الذي وصف المصريين القدماء ب (الوداعة) ووصف

الساميين ب (الهمج) (أنظر كتابه موسى والتوحيد- ترجمة عبد المنعم الحفنى- ص ١٠٩) هذا هو عالم (موسى الديانة) ولكنه احترم وانحاز إلى لغة العلم قبل ديانته . وقبله بعدة قرون ذكر المؤرخ الإغريقى هيرودوت (٤٨٤-٤٢٥ ق. م) الذى زار مصر فقال عن جدودنا المصريين فى كتابه الثانى- فقرة رقم ٣٧ بأنهم ((يزيدون كثيراً عن سائر الناس فى التقوى)) (مصدر سابق - ص ١٢٤) .

٦- إن التاريخ المصرى الممتد شهد الكثير من الأحداث والغزوات ، ينتظر المبدعين الذين ينطلقون من أرضية مصرية ، تتوخى لغة العلم والأمانة والموضوعية (وهى لغة لا تتحقق إلا إذا كان عقل المبدع خالياً تماماً من جرثومة الأيديولوجيا ، سواء سياسية أو دينية أو عاطفية) فيكون لدينا العشرات من الأعمال الإبداعية على مستوى (جسر على نهر درينا) أو (النهر الهادئ) أو (المسيح يصلب من جديد) أو (مائة عام من العزلة) إلى آخر هذه الأعمال الخالدة . إن المبدع المصرى منعزلٌ عن تاريخه ، وما زالت رائعة سعد كاوى (السافرون نياماً) شاخنة وحدها تشهد على هذا الانعزال .

إن كتاب (أولاد حارتنا) يُثير الأسى على المستويين : الإبداعى والتاريخى . وإذا أعترف بأننى أحترم الكاتب الكبير نجيب محفوظ - الإنسان والمبدع- كما أننى لا أسمح لنفسى بالاقتراب من منطقة (ضمير الآخر) وبالتالى أرفض استخدام أسلوب الاتهامات ، كذلك فإننى لا أقيم وزناً لما فى (النيات) بمعنى إذا قال أحد أن الأستاذ نجيب محفوظ لم يقصد شيئاً مما ذكرته ، فإن الرد بسيط : إنما العبرة بما هو مدوّن على الورق ووصل إلى القارئ وليست العبرة بالنيات . وصدق أرسطو فى قوله الحكيم ((أفلاطون حبيب إلى قلبى .. ولكن الحقيقة أحبُّ إلى من أفلاطون)).

أن (أولاد حارتنا) كتاب مشكلة فى تاريخ المصادرة ، رفضه الكهنوت الدينى وتجاوز عنه نقاد الأدب ، من منظورين مختلفين ، فهل نأمل فى مناخ ليبرالى يسمح بالإفراج عن الكتاب ، ليكون القارئ - وحده - هو الحكم على الكتاب وهو القيم على نفسه ؟

الفصل الرابع

سرقة الآثار المصرية مع غياب النجس القومي

تمتلك مصر ثلثي الآثار على مستوى العالم . وهذه الآثار التي تركها جدودنا المصريون القدماء ، ملكٌ لشعبنا المصري ، وبالتالي فهي ليست (ميراثًا) لفئة حاكمة أو طبقة مهيمنة على الحكم ، وبناءً عليه لا يجوز بيعها أو إهداؤها أو التصرف فيها ، وإنما يجب الحفاظ عليها ، لأنها ليست ملكًا للأجيال الحالية ، وإنما هي ملكٌ لكل الأجيال القادمة من المصريين . ورغم هذه الحقيقة الساطعة واللاهبة كشمس بؤونة ، فإنه لا يكاد يمر أسبوع إلا ونقرأ في الصحف المصرية (أحيانًا) وفي الصحف الأوروبية (غالبًا) عن سرقة بعض الآثار المصرية . و(غالبًا أيضًا) أن يكون اكتشاف السرقة بحكم قانون المصادقة ، و(غالبًا للمرة الثالثة) أن تتم عملية السرقة والتهريب بمعرفة بعض كبار رجال الدولة (المصرية) ولعل أشهر الأمثلة على ذلك ما ورد في شهادة (مارك بيري) المتورط في قضية تهريب الآثار الكبرى من مصر إلى لندن ، إذ جاء في التحقيق معه ((أن ضابطًا في البوليس المصري برتبة لواء ، كان يُتابع عملية تهريبه للآثار المصرية من مطار القاهرة)) (نقلًا عن صحيفة الأهرام ٧ / ٢ / ٩٧) والجدير بالملاحظة أن الكشف

عن هذه العملية تمت بمحض الصدفة ، إذ أنّ مواطنًا إنجليزيًا شاهد في أحد المعارض بعض الآثار المصرية ، وبخبرته عرف أنها (أصلية) وتذكر أنه رآها في المتحف المصري ، فبادر بإبلاغ الشرطة الإنجليزية التي تولت التحقيق .

وغالبًا (للمرة الرابعة) ما نقرأ - في تبرير أنماط القيم المنحطة - أنّ الفساد موجود في كل دول العالم . وهذه الحجة هي تشجيع على استمرار الفساد والتسليم بعدم جدوى مقاومته ، لأنها تنطلق من قاعدة التعميم ، وهى قاعدة ملفوظة في علمى المنطق والفلسفة ، ناهيك عن علم الاجتماع ، فهذه العلوم الإنسانية تؤمن بالنسبى وترفض المطلق . فإذا كان الفساد موجودًا في كل دول العالم (وهى حقيقة لا يمكن إنكارها) فإنّ أحجامه وأنواعه تختلف من بلد إلى آخر ، وهذا الاختلاف يحكمه عاملان أساسيان :

الأول : وجود آلية الديمقراطية أو غيابها . فالدول الديمقراطية لاتعترف بقداسة الشخصيات العامة ، حتى وإن كانوا حكامًا (وليست لديهم آفة بالروح بالدم نفديك يا فلان) لذلك تملك أجهزة الإعلام جرأة تناول جرائم الكبار بمن فيهم رئيس الدولة ورئيس مجلس الوزراء ، وليس الوزراء فقط . كما أنّ النيابة العامة والقضاء في هذه الدول الديمقراطية يتمتعان بالاستقلال التام عن السلطة التنفيذية ، الأمر الذى يسمح بإقامة الدعوى القضائية ضد أى مسؤول على رأس السلطة التنفيذية ، والأمثلة عديدة في كل دول العالم المتحضر - من أميركا إلى أوروبا إلى اليابان إلى الهند والصين إلخ حتى إسرائيل التى يُحسب عمرها بعمر الأطفال الرضع ، قياسًا بعمر أغلب دول العالم ، نجد أنّ نظامها السياسى لايفرق - فيما يتعلق بالمال العام - بين الغفير والوزير ، وأمثلة استدعاء رؤساء وزراء إسرائيل أمام محققى الشرطة كثيرة وقرأها كل العالم نقلًا عن الصحف الإسرائيلية ذاتها بل والتليفزيون الإسرائيلى ، ومن أمثلة ذلك ما فجّره التليفزيون الإسرائيلى عن فضيحة تعيين المدعى العام فى إطار صفقة مع حزب شاس الدينى ، وبالفعل تم

استجواب رئيس الوزراء (وقتها) نيتانيا هو بمعرفة فريق تحقيق من الشرطة الإسرائيلية (أهرام ١٨ ، ١٩ فبراير ٩٧) أما في الدول الشمولية ، فالوضع عكس ذلك تمامًا ، حيث يسود مبدأ القداسة لشخص الحكام ، وبالتالي فإن آلية الديمقراطية غائبة أو شبه غائبة ، لذلك فإن أجهزة الإعلام - وهي مملوكة للشعب وتمول من خزينة الدولة ، ولكنها تحت سيطرة الأنظمة الحاكمة ، لاتمس - إن مسّت - إلا الصغار أو صغار الكبار. وهو الأمر المشاهد في كل الأنظمة الدكتاتورية ، وبصفة خاصة الأنظمة التي تجمع بين سلطة العسكروت والكهنوت . وفي ضوء هذا التوضيح فإن الفساد يقل في الدول الديمقراطية ويزداد بصورة بشعة وملحوظة في الأنظمة الشمولية .

العامل الثاني : هو الحس القومي ، وهو مسؤولية الشعوب قبل الحكام ، فالشعب الذي يدرك القيمة الحضارية لتاريخه وتراثه يضع عرقاً لحدود الفساد ، خاصة إذا مس هويته القومية. فلم يحدث أن يونانيًا كفر سقراط أو أرسطو أو ساهم في تهريب الآثار اليونانية ، ولكن مع غياب الحس القومي في مصر - بعد كارثة أبيب / يوليو ١٩٥٢ ، والادعاء الكاذب أن مصر عربية ، نجد مسئولين (مصريين) على درجة كبيرة من الثراء المادي ، ومع ذلك يتعاملون مع آثار جدودهم كما يتعاملون مع مواشير الصرف الصحي ، فلواء الشرطة (المصري) الذي شارك في تهريب الآثار المصرية ، تربى تحت سنابك ثقافة سائدة تُروّج لمقولة أن الحضارة المصرية (وثنية) وبالتالي يجب تدمير آثارها . فإذا كان تدميرها واجبًا دينيًا ، فلا بأس من سرقتها ، بل إن سرقتها حلال وفقًا لأصول الفقه الإسلامي ، لأنها من ((بدع الكفار)) .

وتحت سنابك هذه الثقافة السائدة ، اقترح الصحفي أ. أحمد بهجت تخطيط الأحجار التي تسقط من الهرم الأكبر إلى قطع صغيرة ، توضع في سلسلة مفاتيح وبيع الواحدة بعشرة دولارات للسياح (أهرام ٨ / ٦ / ٩١) فلو أن هذا الصحفي يُحرّكه حس قومي ، لطالب بإعادة الأحجار المتساقطة ، وليس اقتراح الهدم من أجل

حفنة دولارات . ومع غياب الحس القومي ، فإنّ هذه الدعوة المدمرة لم يتصد لها إلاّ بعض المصريين في بريد القراء ، بينما تجاهلها أغلب الكتاب ، باستثناء عالم المصريات الراحل الجليل بيومي قنديل الذي كتب ((إنّ الأستاذ الفاضل قارن بين هذه الفكرة التي طرحها تحت عنوان أفكار وبيع إسرائيل لهواء القدس على هيئة علب صغيرة مغلقة وخالية لكن مباركة ، فإسرائيل لم تُفكر في لحظة في بيع قطعة واحدة من آثارها أو تراثها أو تاريخها سواء سقطت تحت وطأة الزمن أو الجور أو الإهمال ، بل تباع والحالة هذه الهواء ، أي ثروة متجددة باستمرار . لكن الأستاذ الفاضل يدعو إلى بيع حجر أو اثنين من الأحجار المتساقطة ، أي بيع ثروة غير متجددة بل ومحدودة للغاية حتى ولو كان العزم مبيّناً على مساعدة الزمن قليلاً كي يتدخل بإسقاط آخر فأخر كلما سال اللعاب للأخضر الساحق ، وهذا أمر مرجح في ضوء عبادة إله المال وشعار ((كل شيء للبيع)) والسؤال الوحيد المشروع هو بكم ؟ وفي هذه الحالة نتمكن من هدم الهرم الأكبر الذي يُعدّ الأعجوبة الأولى من أعاجيب الدنيا السبع وأعظم بناء معماري بنته يد الإنسان على سطح المعمورة . ويؤمّن أمريكيون غير مصريين بأنّه مركز الكرة الأرضية . ويقف رمزاً على وحدة المصريين من كل الطوائف والفئات واللهجات والمشارب . ووقف أمامه نابليون بونابرت مشدوهاً وقال ((إنّ أمة تستطيع أن تبني لنفسها قلباً من حجر على هذا النحو لجديرة أن تعيش إلى الأبد)) وإذا سقط حجر فعلينا لو كنا جديرين بالانتساب لمن بنوه انتساب الأحفاد للأجداد أن نعمل على إعادته إلى مكانه وفقاً لعلوم ترميم الآثار ، لا أن نفكر في تحطيمه وبيعه لمن يريد)) واختتم مقاله قائلاً ((الحق أننى لا أدري ما إذا كنتُ أتقدم بالشكر لأولئك الأجانب الذين سيتبركون بمثل تلك الميدالية الحجرية ، لأنها جزء من الهرم الأكبر ، أم أعتب كل العتب على الذين يمكن أن تطرأ على أذهانهم مثل هذه الأفكار الهدامة)) (صحيفة الأخبار ١٢/٦/٩١) .

وإذا كان كل مصري شريف يتمنى الحفاظ على تراث جدوده ، فما العمل

لوقف تهريب الآثار أو محاولة هدمها ؟ لاختلاف على ضرورة تغليظ العقوبات ، ورفع مرتبات العاملين بهيئة الآثار . ولكن حتى لو تم هذا ، فإن الظاهرة ستستمر طالما استمرت السيادة للثقافة المعادية للحضارة المصرية التي تصنع بدورها ظاهرة غياب الحس القومي . والحل تملكه مؤسسات التعليم والإعلام لو كانت السيطرة لإرادة الحياة وليست لإرادة الموت . فلو أن التلميذ المصري تعرّف على الدور الرائد لجدوده في صنع الحضارة الإنسانية ، ولو أن مسؤولي التعليم وزّعوا عليه الكتب الجادة التي تتناول الحضارة المصرية ، ولو أنهم خصصوا ثلاث حصص في الأسبوع لمادة علم المصريين من الابتدائي إلى الجامعة ، ولو أنهم أطلعوه على ما تفعله مدارس وجامعات أوروبا من اهتمام بهذا العلم ، ولو أن الإعلام (المصري) فعل نصف أو ربع ما تفعله دول العالم المتحضر ، مثل إنتاج أفلام تسجيلية وروائية عن الحضارة المصرية ، ومثل تخصيص ساعات يوميًا لبرامج تتناول هذه الحضارة ، لو أن إرادة الحياة انتصرت وأصبح لدينا تعليم وإعلام بهذا المستوى القومي المتحضر ، هل ستكون سرقة الآثار وتهريبها بنفس الكم ؟ أليس من المتوقع أنه في ظل عودة الحس القومي أن هذه السرقات ستقل شيئًا فشيئًا ، خاصة عندما يدرك المصري أن الآثار ثروة تحرص الشعوب المتحضرة على مشاهدتها ، كما أنها مصدر مهم من مصادر الدخل القومي ؟ وفي ظل عودة الحس القومي أليس من المتوقع أن يكون لدينا مسئولون كبار يترفعون عن الإثراء عن طريق سرقة تراث جدودهم ويكتفون بدخولهم الخيالية ؟ وحتى لو فكر في الإثراء غير المشروع ، فهل يسرق تماثيل الإله حورس كما فعل لواء الشرطة ؟ أم يتجه إلى الوسائل الأخرى ، مثل الحصول على القروض من البنوك (العامة) وتهريبها إلى خارج مصر كما فعل كثيرون ؟ وبمراعاة أن الوسائل غير المشروعة متعددة ومتنوعة ، بينما تماثيل الآلهة المصرية محدودة وغير متجددة (من بين الوسائل غير المشروعة السماح للعرب بتملك الأراضي المصرية وشراء الشركات المصرية لإذلال العمال المصريين (شركة كتان طنطا نموذجًا) وقد

نشرت صحيفة المصري اليوم (٢٠١٠/٢/١٠) أن العقد الموقع بين الحكومة المصرية والوليد بن طلال (سعودي الجنسية) لامتلاك ١٢٨ ألف فدان بمنطقة توشكى + ١٠٠ ألف فدان (ملحقات) بسعر ٥٠ (خمين) جنيهاً للفدان وأن هذا الثمن يشتمل على خدمة المرافق بما فيها توصيل المياه . وهذا البند وحده يكلف مصر سنوياً أكثر من ٢٠٠ مليون جنيه + الإعفاء من كافة الرسوم ، والأخطر الإعفاء من كافة أنواع الضرائب . ونص العقد على أنه ليس من حق القضاء المصري النظر في أى نزاع ينشأ بين المستثمر السعودي والحكومة المصرية ، وإنما يُنظر النزاع أمام التحكيم الدولي ، على أن تتحمل الحكومة المصرية كافة المصاريف بما فيها مصاريف الانتقال والرسوم القضائية . ورغم أن الفدان تم بيعه بسعر ٥٠ (خمين) جنيهاً ، فإن المسئولين المصريين وافقوا على أن يتم سداد المبلغ ((على أقساط)) أى أننا أمام ((احتلال عربى)) للأراضي وللشركات المصرية ، أى ((استعمار عربى لاقتصاد مصر)) وهو الأمر الذى جعل أ. سيد على يعتقد أن المسئولين المصريين الذين وقعوا على العقد مع المستثمر السعودي ، كانوا أثناء التوقيع تحت تأثير مادة مخدرة ، على طريقة الأفلام السينمائية ، أن (البنت) المغلوبة على أمرها والتي استسلمت للخطيئة ، سقاها (المجرم) ((حاجه أصفره)) (أهرام ٢٠١٠/٢/١٣) ولزيد من التفاصيل انظر : الدراسة المهمة التى كتبها د. أحمد السيد النجار بعنوان (دولة الوليد بن طلال فى مصر) ونشرتها صحيفة العربى الناصرى على صفحة كاملة - عدد ٢ مايو ٢٠١٠ وتوضح المأساة أكثر عندما نعلم أن الوليد ابن طلال حصل على قرض من البنك الأهلى المصرى .



(الفصل الخامس) أبو حصيرة : من الضريح إلى المستوطنة

يُفجّر كتاب د. سوزان السعيد يوسف (المعتقدات الشعبية حول الأضرحة اليهودية- دراسة عن يعقوب أبى حصيرة بمحافظة البحيرة) الصادر عن دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، قضية غاية في الخطورة تمس استقلال أو (انقريط في) كامل التراب الوطنى المصرى .

خطورة الكتاب أن مؤلفته تستهدف شيئاً واحداً ، هو ترسيخ الاعتراف بالأمر الواقع ، وأن على شعبنا المصرى أن يقر ببداية الاستيطان الإسرائيلى على أرض مصر . والمدخل لهذا الاستيطان هو ضريح (أبو حصيرة) في محافظة البحيرة . وهذا الهدف يمكن استنتاجه بسهولة من صفحات الكتاب . وأود أن أشير إلى الحقيقة التى لا خلاف حولها ، وهى أن العبرة بها هو مدوّن وأصبح في يد القارئ وليست العبرة بالنيات . وفيما يلى بعض أسبابى عن خطورة هذا الكتاب على استقلال مصر .

تتعمد المؤلفة وصف يعقوب أبى حصيرة بالصدّيق كلما جاء ذكره في معظم صفحات الكتاب . وتُركز على أنه صاحب مدرسة في التصوف في المغرب . والأخطر من ذلك أن

صفة الصديق تربطها المؤلفه بإيحاء آخر حيث كتبت ((وكذلك بعض الملوك والأنبياء وحتى الشعراء يُعتبرون من الصديقين)) (ص ٧٢) وكتبت أيضًا أن عائلة هذا الصديق ((تعيش الآن في جنوب إسرائيل في بئر سبع باعتبارها عائلة مقدسة)) (ص ١١٦) والتركيز على صفات التقديس والتبجيل والتصوف والتواضع إلخ عن أبي حصيرة وعائلته ، يصعب حصرها ، خشية الاطالة ، وبالتالي يحق لكل مصرى أن يسأل : لماذا هذا التركيز (شديد الكثافة) على هذه الصفات ؟ وحتى لو صدّقنا نحن المصريين أن (أبو حصيرة) من أولياء (يهوه) الصالحين ، فهل هذا مبرر لبقائه على أرض مصر ؟

في تبريرها لبقاء ضريح (أبي حصيرة) في مصر ، كتبت المؤلفه ((أن الشريعة اليهودية تُحرّم نقل الجثة بعد دفنها)) (ص ١٤٠ ، ١٨١) وحيث أن المؤلفه تؤيد مرجعية بنى إسرائيل الدينية (الشريعة اليهودية) فإننى أحيل القارئ إلى سفر الخروج (إصحاح ١٣ : ١٨ - ١٩) الذى جاء به ((وصعد بنو إسرائيل مُتجهزين من أرض مصر . وأخذ موسى عظام يوسف معه)) وتبعًا لذلك فإنه حسب شريعة بنى إسرائيل الدينية ، فإنه يجب نقل الضريح من مصر . كما أن المؤلفه تعترف بأن بعض الأضرحة اليهودية التى كانت خارج إسرائيل ، تم نقلها إلى إسرائيل (ص ١٠٢ ، ١٠٤)

ولم تكتف د. سوزان بتبرير بقاء الضريح في مصر ، وإنما وضعت نفسها في موقف مضاد وضد الحركة الوطنية المصرية والكتاب الوطنيين ، أمثال أ. مختار السويفى الذى طالب في أكثر من مقال بضرورة تسليم (أبو حصيرة) لإسرائيل . أو ما ذكرته صحيفة الأهالى المصرية (عدد ٩٧ / ١ / ١) من أن (أبو حصيرة) هو كمسما ر جحا مغرور في قلب قرية مصرية . أو ما ذكرته مجلة روزا ليوسف (٩٧ / ١ / ٦) من أن أهالى القرية تقدّموا بعدة شكاوى إلى محافظ البحيرة ومدير الأمن ، مطالبين جميع الأجهزة بالسماح لهم بمزاولة أعمالهم ومنع الاحتفالات

اليهودية داخل قريتهم . هؤلاء الكتاب الوطنيون في نظر المؤلفة يُهاجمون الحدث (أى الاحتفال بأبى حصيرة) ليس ذلك فقط ، بل إنها تلوم الإعلام المصرى لوجود نوع من التعتيم الإعلامى عن هذا الحدث (ص ١٥٥) أى أنها تطلب من الإعلام المصرى الترويج والدعاية للاحتفال بصاحب الضريح واستمرار وجوده على أرض مصر . وإذا كانت المؤلفة عَمَدَتْ إلى تكذيب مجلة روزا ليوسف التى ذكرت أن الاحتفال يستمر مدة أسبوع (ص ١٥٥) نجدها (= المؤلفة) تكتب في ص ١٦١ ((وفي هذه المناسبة يبدأ اليهود في التوافد إلى مصر من شتى أنحاء العالم قبل الاحتفال بأسبوع))

تعترف المؤلفة بوجود إجراءات أمن مشددة أثناء الاحتفال بالولى الإسرائيلى لدرجة أن الحراسة تمتد ((على الطريق بين القاهرة ودمنهوور. أما داخل مدينة دمنهور فتنتشر قوات الأمن في كل مكان وتمتلئ الشوارع بالجنود ويُمنع مرور الأهالى بهذا الطريق . وفي قرية دمتيوه تُغمر المنطقة المحيطة بالضريح بالمياه حتى تمنع أى (غزو) للمنطقة وتلقى العديد من الجوالات المليئة بالرمل حول الضريح . وفوق المنازل المحيطة بالضريح يتشر فوق الأسطح الجنود بمدافعهم في حالة استعداد)) (١٦١ ، ١٦٢) واعترفت المؤلفة أنها لم تتمكن من حضور الاحتفال عام ٩٥ إلا بفضل معاونة مدير المركز الأكاديمى الإسرائيلى بالقاهرة (ص ٧) .

إن هذه الإجراءات الأمنية ، حوّلت ضريح الولى الإسرائيلى إلى مستوطنة إسرائيلية داخل مصر . وهى صورة طبق الأصل من المستوطنات الإسرائيلية داخل فلسطين المحتلة . فإذا كانت هذه الإجراءات الأمنية تستهدف حماية اليهود ، فالسؤال هو: حمايتهم من مَنْ ؟ والإجابة بالطبع حمايتهم من المصريين (الأعداء) حتى لا يقوموا بـ(غزو) منطقة الضريح / المستوطنة (كلمة الغزو وردت في وصف المؤلفة في الفقرة السابقة) كما أن هذه الإجراءات الأمنية حرّمت على المصريين الدخول إلى أرض (مصرية) أى أننا إزاء مستوطنة إسرائيلية داخل مصر . وهو الأمر

الذى لم يُلفتَ نظر المؤلفات التى اهتمت بإضفاء صفات القداسة على واحد من أبناء بنى إسرائيل ، ولم تكتب كلمة واحدة عن ضرورة نقل هذا الضريح من مصر .

ذكرتْ المؤلفة أنه ((أقيم مزاد على أول من يدخل الضريح وأول من يُشعل الشموع للصديق (أبو حصيرة) وقد دفع مبلغ مائة ألف دولار للحصول على مفتاح الضريح)) (ص ١٦٣) والسؤال هو: فى أى أوجه الإنفاق سيتم صرف هذا المبلغ ؟ وهذا السؤال يجب ربطه بالطلب الذى تقدّم به بعض الإسرائيليين إلى وزارة الخارجية المصرية ((يعلنون فيه أنهم يرغبون فى شراء خمسة أفدنة من الأراضى الفضاء المجاورة لمقبرة مسمار جحا المسماة بضريح أبو حصيرة)) (انظر: مقال أ. مختار السويفى - أهرام ٩/٩/٩٨ ص ١١) والسؤال هو: لماذا هذه التوسعات ؟ أليست هذه الأساليب التوسعية هى بالضبط ما فعله ويفعله اليهود فى فلسطين المحتلة ؟

ذكرتْ المؤلفة ((تعطى العقيدة الشعبية المصرية أهمية بالغة للاعتقاد فى الأولياء)) وأن يعقوب أبى حصيرة ((ولى من أولياء الله الصالحين)) (ص ١٤٦ ، ١٤٧) ولم تكتفِ المؤلفة بهذا الإيجاء ، وإنما ذكرتْ أيضًا ((من الدراسة السابقة يتضح لنا أنّ التشابه فى القصص الشعبى يمكن أن يُقدّم لنا صورة عن التشابه فى الخيال الشعبى لدى الشعوب المختلفة)) (ص ٢٢٠) والإيجاء هنا واضح لاغموض فيه ، وأنّ الرسالة التى تُصرّ المؤلفة على توصيلها للقارئ هى : بقاء الضريح الإسرائيلى فى مصر ، طالما أنّ الخيال الشعبى لدى الشعوب المختلفة متشابه .

إنّ هذه اللغة التقريرية تتجاهل أنّ ولع المصريين بزيارة الأضرحة وتمسكهم بظاهرة الاحتفال بالأولياء (مسلمين ومسيحيين) إنما هو تعبير عن ثقافة قومية مصرية خالصة . وقد انعكست هذه الثقافة حتى على الشخصيات العربية ، فجدودنا المصريون أطلقوا على السيدة زينب بعض صفات الإلهة المصرية إيزيس

(الطاهرة) (أنظر: أدولف إرمان - ديانة مصر القديمة - ترجمة د. عبد المنعم أبوبكر، ود. محمد أنور شكرى - هيئة الكتاب المصرية - مكتبة الأسرة - عام ٩٧ ص ٤٨٤) وأضافوا على شقيقتها الحسين بعض صفات أوزيريس (سيد الشهداء) (انظر التفاصيل: بيومي قنديل - حاضر الثقافة في مصر - ط ٢ ص ٦٩) كما أن طقوس الاحتفال ببولد (سيدى أبو الحجاج) بالأقصر هي ذات الطقوس التي كان جدودنا المصريون القدماء يؤدونها للإله آمون (انظر: محرم كمال - آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية - سلسلة الألف كتاب الأول - عدد ٣٨ - نشرته دار الهلال - عام ١٩٥٦ من ص ٧٣ - ٧٩) كما أن هذه الأضرحة في مصر ليست بها شبهة المستوطنات ، بمراعاة أنها متاحة لكل المصريين ، حيث يزور أبناء طنطا الحسين والعكس صحيح في كل الأضرحة المنتشرة في مصر .

ذكرت المؤلفة أن ((المعتقد الشعبي (المصرى) يربط بين شم النسيم والممارسات الخاصة بالصدّيق (أبو حصيرة) فعيد شم النسيم يُحتفل به بجوار الضريح ، ويرجع هذا الربط إلى أن اليهود يحتفلون في اليوم الأخير من عيد الفصح باحتفال مشابه لشم النسيم ، وهذا العيد يرتبط بعبور البحر الأحمر وخروج اليهود من مصر والخلّاص اليهودى)) (ص ١٥٥) لاحظ عزيزى القارئى تعبیر ((الخلّاص اليهودى)) الذى يؤكد تطابق المؤلفة مع ما ورد فى العهد القديم من عداء غير مبرر على المستويين الإنسانى والتاريخى ضد جدودنا المصريين. وبالتالى لمصلحة من يتم هذا الربط أو هذا الخلط بين احتفال مصرى مستمد من ثقافة قومية مصرية ، وبين الأيديولوجيا العبرية عن قصة خروج اليهود من مصر ((فخلص الرب فى ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين . ونظر إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطئ البحر)) (خروج ١٤ : ٣٠) فهل تتضامن المؤلفة مع خرافيف بنى إسرائيل وتعتقد - مثلهم - أننا نحن المصريين ((أمواتاً على شاطئ البحر)) ؟

ذكرت المؤلفة أن ثمة صلاة تقام عند الحائط الغربى للضريح ، فى إشارة إلى

المعبد اليهودي في أورشليم وحائط المبكى . وتبدأ (الصلاة) بالافتتاحية التالية ((لكل إسرائيل نصيب في العالم الآتي كما قيل : وقومك كلهم صالحون وسيرثون الأرض إلى الأبد .. إلخ)) (ص ١٦٩) ولأنّ بنى إسرائيل يُقدّسون ويؤمنون بكتابتهم (العهد القديم) فإنّ الأمانة العلمية تفرض على الباحث الموضوعي أن ينقل للقارئ ما هي الأرض التي أهدها إله العبرين لبنى إسرائيل ؟ ولأنّ مؤلفة كتاب (أبو حصيرة) لم تفعل ، فإننى أنقل للقارئ بعض ماورد في العهد القديم ((واجتاز إبراهيم في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة موره . وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض . وظهر الرب لإبرام وقال: لنسلك أعطى هذه الأرض)) وأيضاً ((وقال الرب لإبرام بعد اعتزال لوط عنه ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً . لأن جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيتها ولنسلك إلى الأبد)) وكذلك ((وقال له: أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ليُعطيك هذه الأرض لترثها)) وفي موضع آخر فإنّ الإله العبري يُوزع على بنى إسرائيل أوطان الغير بالجملة ((في ذلك اليوم قطع الرب مع إبراهيم ميثاقاً قائلاً لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات)) (تكوين الإصحاح ١٢ ، ١٣ ، ١٥) .

وذكرتُ المؤلفة أنه أثناء الصلاة تتم تلاوة فقرات من سفرى التثنية والعدد . وبالرجوع إلى العهد القديم نجد أنّ الآية ٤١ من سفر العدد التى أشارت المؤلفة إليها تنص على ((أنا الرب إلهكم الذى أخرجكم من مصر)) فإذا كان الإله العبري تراجع في وعده ، وتولى إخراج بنى إسرائيل من أرض مصر ، فلماذا التمسح والتحایل لبناء مستوطنة إسرائيلية في مصر في شكل ضريح ؟

وذكرتُ المؤلفة أنّ ((هناك بعض القصائد التى تُنسب إلى أبى حصيرة . وهذه إحدى القصائد التى تُنشد في عيد الفصح)) يقول أبو حصيرة ((وعلمتُ أنّ الله هناك / أحكم فرعون وجنوده الحصار / فخرجتُ جنود الله كل رجل بسلاحه وتحول البحر لهم يابسة / وعبرته طائفة مقدسة وتغنى كل رجل وامرأة أغنية /

حتى من في بطن أمه غنى)) وعقبت المؤلفة على كلام أبى حصيرة فكتبت ((وهذا الشعر يظهر به أثر نشيد الإنشاد في مخاطبة إسرائيل باعتبارها الحبيبة . وهو يروى عن خلاص إسرائيل من مصر الذي وافق عيد الفصح والأمل في خلاص إسرائيل القريب)) (ص ١٨٠) والمؤلفة هنا- رغم مراجعتها العديدة ومن بينها العهد القديم، فإنها لم تكتب كلمة واحدة في كتابها تُشير أو حتى توحى إلى أن العهد القديم استوقفها أو حتى أثار تساؤلها عن أسباب العداء الذي شنته إله العبريين ضد المصريين (خاصة في سفر الخروج) العداء الذي وصل لدرجة تحويل أرض مصر ونيلها إلى دم وبعوض وشفادع وإلى ((قتل كل بكر في أرض مصر من بكر الناس إلى بكر البهائم)) وكيف لم تتوقف المؤلفة أمام ذلك الرب الذي يخشى على نفسه من عدم القدرة على التمييز بين المصريين وبنى إسرائيل ، فيطلب من الآخرين أن يضعوا على بيوتهم علامة من الدم حتى لا يُخطئ وهو يضرب المصريين فقال ((ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها . فأرى الدم وأعبر عنكم . فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب مصر . ويكون لكم هذا اليوم تذكراً فتعيّدونه عيداً للرب في أجيالكم . تُعيّدونه فريضة أبدية)) (خروج ١٣) أليست هذه الفريضة الأبدية هي ما يتغنى أبو حصيرة به على أرض مصر؟ وتتكاثر الأسئلة وعلامات التعجب عندما تنص المؤلفة على أن ((... الأساطير اليهودية تذكر أن موسى قد شق البحر بقوة اسم الرب . والقصة بها العديد من العناصر الخارقة)) (ص ٢١٢) ومع هذا فإنها لم تكتب كلمة واحدة في نقد وتحليل هذه الأساطير المعادية لنا نحن المصريين ، بل إنها لم تكتف بذلك وإنما سافت المبررات لاستمرار بناء الضريح / المستوطنة في مصر .

ذكرت المؤلفة أنه في مناسبة ختان الصديق اليهودي تُتلى بعض النصوص من العهد القديم ومنها المزمور ٢٩ الذي يقول ((صوت الرب مكسر الأرز ومُكسر الرب أرز لبنان ويمرحها مثل عجل . لبنان وسريون مثل فريز البقر الوحشي .

صوت الرب يقدح لهب نار. صوت الرب يُزلزل البرية. يُزلزل الرب برية قادش))
وهنا نجد أنّ المؤلفة لا يعينها فحوى هذا المزمور. ولم تتوقف أمامه ولم تُعقب بكلمة
واحدة على هذا الإله العبري الذي يُكسر أرز لبنان ويُزلزل قادش (قادش : اسم
مدينة كانت وسط سوريا وكانت ضمن حدود الامبراطورية المصرية ، خاصة في
فترة حكم تحوت - موس الثالث وسيتي الأول ورمسيس الثاني - أنظر كتاب
«رمسيس الثاني - فرعون المجد والانتصار» - تأليف كنت أ. كتشن - ترجمة د. أحمد
زهير أمين - هيئة الكتاب المصرية - مكتبة الأسرة عام ٩٨ ص ٥١) ولم تسأل
المؤلفة السؤال الذي يسأله لنفسه أى باحث موضوعي : ما علاقة العبرين بلبنان أو
قادش ؟ ولماذا هذا العداء لها لدرجة التدمير ؟ وإذا كانت المؤلفة ساقط المبررات
العبرية لبقاء الضريح / المستوطنة في مصر ، فلتكن مهمة كل مصرى الدفاع عن
الاستقلال الكامل لكل ذرة من تراب مصر . ولتتضامن أصوات كل المصريين في
مناشدة القيادة السياسية لإتخاذ الاجراءات اللازمة لنقل رفات (أبو حصيرة) إلى
إسرائيل أو إلى أى مكان يختاره اليهود ، حتى لا يتحول مسمار جحا (ضريح الولي
الإسرائيلي) إلى بداية الاستيطان الإسرائيلي في مصر .



الفصل (الساوس) الحضارة المصرية : صراع الأسطورة والتاريخ

كتب ديودور الصقلى فى كتابه تاريخ العالم ج ١ ((جميع اليونانيين الذين اشتهروا بعلمهم وحكمتهم زاروا مصر فى العصور القديمة حتى يتعرفوا على عاداتها وينهلوا من علومها . وأن كل الأشياء التى جلبت الإعجاب كانت منقولة عن مصر)) وكتب (بلوتارك) المؤرخ اليونانى الذى زار مصر أن ((فيثاغورس أخذ العلم الذى أكسبه العالمية عن كهان طيبة ومنف)) أما هيرودوت فيقرر فى كتابه الثانى ((أن النظام الدينى المصرى أقدم كثيرا عما عند الإغريق ، فلا بد لهذه الأسباب أن تكون مصر هى المنشأ لهم جميعا)) هذا غير آلاف الكتب التى كتبها علماء متخصصون فى علم المصريات وأثبتوا فيها الدور الرائد للحضارة المصرية على كل حضارات العالم القديم . ورغم هذه الحقيقة التى لا ينكرها العقل الحر المتجرد من أية أيديولوجيات عرقية أو دينية أو سياسية ، مازال مصريون (نعم مصريون) يهاجمون تراث جدودهم ، إلى الحد الذى دفع بعض الأكاديميين الكبار أن يطالبوا بإلقاء أعمال جادة تتحدث عن الحضارة المصرية (مثل موسوعة مارتن برنال «أثينا إفريقية

سوداء» في أى صندوق زبالة وأن هذه الكتب عبارة عن ((زبالة فكرية)) (انظر التفاصيل التى ذكرها المفكر والمترجم الجاد أ. شوقى جلال فى مقدمة ترجمته لكتاب (التراث المسروق- الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة- تأليف جورج جيمس - طبعة ١ المجلس الأعلى للثقافة عام ٩٦ وط ٢ هيئة قصور الثقافة عام ٢٠٠٨ ص ٣٩).

أردت بهذا المدخل المختصر أن أدلل على أهمية كتاب (الحضارة لمصرية- صراع الأسطورة والتاريخ) تأليف أ. شوقى جلال الصادر عن دار المعارف المصرية سلسلة إقرأ- العدد ٦١٤ عام ٩٦ . والكتاب كما جاء فى التمهيد مجموعة من الدراسات منطلقها ومحورها كتاب (أثينا إفريقية سوداء) لمؤلفه مارتن برنال . بالإضافة إلى مقال بقلم برنال لخص فيه مضمون المجلدات الثلاثة لكتابه الموسوعى وحمل عنواناً رئيسياً هو (أثينا السوداء- الجذور الإفريقية الآسيوية للحضارة الكلاسيكية) والخط الرئيسى للكتاب هو مناقشة النظرية السائدة فى أوروبا وأمريكا القائلة أن اليونان هى مهد الحضارة ، وبالتالى فالسيادة للإنسان الأبيض ، ونفى أى دور للأفارقة والآسيويين . ويُفرّق برنال بين نموذجين حكما الإطار الفكرى والقيمى لأوروبا فى حقبتين زمنيتين مختلفتين : النموذج القديم ، ويعنى أن اليونان مشرقية تقع على تخوم حضارة ثقافية مصرية سامية . والنموذج الآرى ، ويعنى أن حضارة اليونان أوروبية الأصل والمنشأ والمسار . وهذا النموذج ينقسم إلى قسمين : النموذج الآرى العام الذى يرفض الاعتراف بأى أثر للمصريين على الإغريق ، ولكنه يعترف ببعض الأثر للفينيقيين ، وهم هنا اليهود مع إخراج بقية الساميين . وهو ما تم بفضل جهود اليهود أنفسهم . والقسم الثانى هو النموذج الآرى المتطرف الذى أنكر تماماً أى تأثير للساميين والمصريين على حد سواء .

تعتمد دراسة برنال على عدة محاور مثل الوثائق ، الآثار ، اللغة ، أسماء الأماكن والآلهة ، وذلك للتدليل على أثر المصريين (وغيرهم) فى الحضارة اليونانية . ومن

الوثائق ألواح المجموعة الخطية (بى B) من القرنين ١٤ ، ١٥ ق . م مكتوبة باللغة اليونانية ولكنها تحتوى على الكثير من الكلمات المصرية القديمة . وعن اللغة كتب برنال إن أكثر - إن لم يكن أغلب العناصر غير الهند / أوروبية فى اللغة اليونانية يمكن تفسيرها على أساس مصرى أو سامى غربى . كما أشار إلى المحاولة التى قام بها (بارتلىمى) لاستخلاص الكلمات اليونانية من جذور قبطية . وعن أسماء الأماكن أكد على أن الأسماء المصرية تغلب على أسماء المدن اليونانية مع الاستشهاد بالعديد من الأمثلة ، مثل اسم أفروديت المشتق من (بروجيت) المصرية . وعن أسماء الآلهة فإن هيرودوت يقرر بوضوح أن ((جميع الآلهة تقريباً جاءت إلى اليونان من مصر)) بل إن أسماء بعض الأبطال فى التراث الإغريقى مأخوذة عن أسماء بعض ملوك مصر ، مثل اسم أجائمنون المشتق من اسم أمنمحات الذى هو اسم العديد من فراعنة الأسرة رقم ١٢ .

إن كتاب (الحضارة المصرية - صراع الأسطورة والتاريخ) يدعو إلى التوقف أمام ظاهرة لافتة للانتباه وللأسى ، وهى أن كتاب برنال الموسوعى ، الذى أكد فيه على أكلوبة الجنس الآرى الأبيض ، ودلل (مثل غيره من علماء المصريين) على الدور الرائد لجذودنا المصريين فى وضع أسس الحضارة الإنسانية ، ومع ذلك فإن كثيرين من الأكاديميين (المصريين) شنوا هجوماً حاداً على الكتاب واتهموا مؤلفه مارتن برنال بتهم عديدة منها (بل وأخطرها) أنه ينطلق من نزعة صهيونية ويروج لأفكار إسرائيلية . وأرى أن أهمية كتاب أ. شوقى جلال ترجع إلى مناقشة هذا الاتهام الموجه ضد برنال ، لمجرد أنه أثبت دور إفريقيا بصفة عامة ودور مصر بصفة خاصة فى التمهيد للحضارة الإنسانية .

الدفاع عن الحضارة المصرية دفاع عن إسرائيل والصهيونية

كان الأساس النظرى لفكرة تجميع شتات اليهود فى وطن يحمل اسم (إسرائيل) هو ما سطره اليهود فى الكتب العبرية ، بدءاً بالتوراة وما جاء بعدها .

والفكر العبري يتناقض مع الفكر المصري من منظور نسق القيم ، فضلا عن العداء لمصر والمصريين . فالتوراة تبدأ بترسيخ رذيلة الكذب ، عندما طلب إبراهيم من ساره أن تقول : إنها أخته وليست زوجته عند دخولها مصر (تكوين / ١٢) والثانية الإدعاء بأن أرض مصر ومياهها تحولت إلى دم . والثالثة الإدعاء بأن إله العبريين قضى على المصريين وإلى الأبد (خروج الأسفار من ٧-١٤) ثم رذيلة التحريض على سرقة المصريين (خروج ١٢ من ٢٤-٢٦) ورذيلة التحريض على التمييز العنصري وذلك بوضع علامة من الدم على بيوت اليهود حتى لا يخطئ الإله العبري وهو يبارس قتله للمصريين (خروج ١٢ من ١٢-١٤) كما أن هذه المرويات تتنافى مع ما دونه المؤرخون والرحالة المعاصرون ودراسات علماء المصريات ، لتلك الأحداث .

كتب أ. شوقي جلال ((إن تزيف التاريخ صناعة إسرائيلية ، بدأت مع التوراة التي هي رواية لتاريخ مصطنع زائف عن شعب الله المختار. وتتابع كتب تحمل صفة الدراسة الأكاديمية صادرة عن جامعات عالمية تُدعم الرؤية الصهيونية لتاريخ مصر)) وإذا كان بعض المصريين يتهمون برنال بالصهيونية ، فإن أ. شوقي جلال أشار إلى الهجوم الذي شنته بعض الأوساط المعروفة بولائها للصهيونية على كتاب برنال وأضاف ((وعمد أفراد عرب وكذلك كاتب مصري معروف بانحراف اتجاهه ومقيم خارج مصر إلى إعادة تأويل وتحريف كتابات برنال ، بأن أسقط صفة مصري عن الحضارات المؤثرة في شرق المتوسط واليونان وحذا حذو الصهانة عندما حجب دور مصر وأثرها في حضارة اليونان ، واكتفى بالتأكيد على ما كتبه برنال عن دور الساميين والشرق ، رغم أن برنال تحدث بإفازة عن مصر)).

ومن أدلة الاتهام ضد برنال ما استشهد به بعض المصريين من أن جامعة هارفارد لم تنشر كتاب برنال ، فكتب أ. شوقي جلال ((وكان جامعة هارفارد وغيرها براء من النزعة الصهيونية)) ثم عرض بالتفصيل تاريخ إنشاء تلك الجامعة

ودور اليهود سواء في تمويلها أو في رسم سياستها . كما أشار إلى حقيقة أخرى وهي أن الجناح اليميني المتطرف في أمريكا عارض كتاب برنال بشراسة . وإذا كان برنال يستشهد كثيرًا بالمؤرخ هيرودوت ، خاصة كتابه الثاني ، فإن أ. شوقي جلال توقف عند حقيقة غاية في الأهمية وهي أن ((جميع كتب هيرودوت في جامعة إكسفورد مسموح بالاطلاع عليها فيما عدا الكتاب الثاني الذي يتحدث عن مصر . وليس الموقف في جامعة كمبريدج بهذا القدر من السفور، وإنما تم إسقاط الكتاب الثاني مع بعض الكتب الأخرى .. كما أن اليهود جاهدوا في شتاتهم ضد النزعة الآرية العنصرية البيضاء ليؤكدوا أن الساميين لهم دور عريق في بناء الحضارة الإنسانية دون الحاميين ، أي دون مصر والأفارقة بعامة .. ورغم هذا فإننا نشهد في مصر ومن العرب لومًا بل ولعنات يصبها البعض على تاريخ مصر القديم تحديدًا .. كما أن مصر في الصورة العربية والإسرائيلية لتاريخها القديم ملعونة لأنها ناصبت إسرائيل العداء يومًا حسب رواية التوراة)).

إن العداء العبري ضد مصر ليس له غير تبرير واحد ، فهو انعكاس ناطق للصراع الحضاري بين رعاة رحل ذاقوا مرارة الندرة بسبب قحط الصحراء الخارجين منها ، وزرّاع مستقرين عرفوا الكفاية والوفرة بسبب الزراعة . ورغم تغير الأزمنة مازال الصراع قائمًا ، فالمتدين الإسرائيلي قد يتخلى عن ذراعه أو عينه ولكنه لا يتخلى عن آيات كتابه (المقدس) ولأنه يؤمن ب (النص) ولا يؤمن بالعقل ، فهو مع أرض الميعاد ومع إيادة المصريين تنفيذًا لمشيئة إله العبري المعادي لمصر . فإذا كانت هذه هي صورة الواقع ، فلماذا يرمى بعض المصريين برنال وغيره من علماء المصريين ، بتهمة الانحياز للصهيونية وإسرائيل لمجرد أنهم اجتهدوا (وحتى مع افتراض الخطأ) وتوصلوا إلى النتيجة القائلة بأن مصر مهد الحضارات ، وأن اليونانيين تعلموا وأخذوا الكثير من مصر؟ وكيف يكون من يدافع عن الحضارة المصرية تابعًا للصهيونية وإسرائيل ، والأساس العبري كله يُعادى مصر والمصريين ؟

فهل من إجابة غير سيطرة الشعور بالدونية نحو الثقافة القومية المصرية لدى بعض كبار متعلمي مصر وخاصة بين الأكاديميين ؟

ولأن أ. شوقي جلال يحترم لغة العلم ، لذلك كتب في مقدمة ترجمته لكتاب (التراث المروق) أنّ الأوروبيين يهتمون بالحضارة المصرية لدرجة تأسيس عدد كبير من الصحف والجمعيات الثقافية تأخذ لنفسها أسماء مصرية مثل أنصار مصر أو كيميت (وهو أحد أسماء مصر القديمة) ، (دعاة المحورية الكيميتية) ، (معهد ماعت الجديدة) إلخ وأشار إلى أنّ الاستقلال ليس سياسة أو اقتصاد فحسب ، بل استقلال فكري أيضًا أو هو إبداع فكري لعقل مستقل . وإذا كان أفلاطون زار مصر وتعلم الفلسفة في معابدها ، فإنّ سرقة الحضارة المصرية وصل ببعض اليهود لدرجة القول أنّ موسى كان معلم أختاتون ومعلم أفلاطون .

ردّة مؤلف كتاب (التراث المروق) على دعاة أنّ اليونانيين هم أصل الفلسفة ، فأثبت من خلال عدة محاور أنّ الأصل كان في مصر ، فذكر حدود الامبراطورية المصرية ، وأثر ذلك الامتداد الجغرافي في نشر الفكر والعلوم المصرية . ونقل عن ديودور أنه تم العثور على نصين في العرابة المدفونة أحدهما للإلهة إيزيس والآخر للإله أوزير . ومنقوش على الثانى قول الإله أنه قاد جيشًا عبر الهند إلى منبع الدانوب فكتب المؤلف ((معنى هذا بطبيعة الحال أنّ الامبراطورية المصرية خلال فترة زمنية باكرة لم تكن تشمل فقط بحر إيجة وأيونا بل امتدت حتى الأطراف البعيدة من الشرق)) وفي محور آخر أثبت أنّ سلطات الحكم في أثينا دأبت على اضطهاد الفلاسفة . وقدّمت عددًا منهم إلى المحاكمة . وكانت التهمة المشتركة كما جاء في نص محاكمة سقراط هي ((عدم الإيمان بألهة المدينة وإدخال آلهة غريبة عن البلاد)) وفي محور ثالث أشار إلى ما دونه عديد من المؤرخين من أنّ عددًا كبيرًا ممن اشتهروا في تاريخ الفلسفة اليونانية زاروا مصر وعاشوا فيها عدة سنين (أفلاطون ١٣ سنة ،

فيثاغورث ٢٣ سنة) على سبيل المثال . وعن الأخير (فيثاغورث) فإن جامعات العالم تنسب إليه نظرية المربع المقام على وتر المثلث قائم الزاوية ، فكتب المؤلف أن هذا زعم فاضح ، لأنه أخفى الحقيقة قرونًا عن أعين العالم ، ولا بد من تصحيح الوضع ، وأهمية أن يعرف العالم أجمع أن المصريين هم الذين علموا فيثاغورث واليونانيين علوم الرياضيات .

وإذا كان سقراط اشتهر بالحكمة القائلة (إعرف نفسك) فقد تم تجاهل أن نظم الأسرار المصرية اشترطت التحكم في الانفعالات ، لأن هذا يتيح مجالاً لهيمنة القوى غير المحدودة ، والخطوة التالية هي مطالبة المريد المبتدئ البحث داخل ذاته عن القوى التي كانت مستحوذة عليه . كما أن هناك حقيقة أخرى تم تجاهلها ، وهي أن المصريين اعتادوا أن يكتبوا على جدران معابدهم عبارة (أيها الإنسان اعرف نفسك) كذلك منسوب إلى سقراط مبدأ العقل الكلي Nous أو العلة العاقلة لتفسير وجود الإله والخلق . وهو مبدأ نشأ أصلاً في نظم الأسرار المصرية .

وعن أفلاطون تناول المؤلف كل مبدأ فلسفي منسوب إليه وحلله بتوسع ليؤكد مصدره المصري . فمثلاً مبدأ (الصانع الأول في الخلق) فإن مصر هي المصدر الأول لهذا المبدأ . ويرجع تاريخه إلى قصة الخلق في مصر منذ أربعة آلاف عام ق .م والتي نجدتها ضمن فقه الإلهيات في مدرسة ممفيس : نقش على الحجر محفوظ في المتحف البريطاني ، ويشتمل هذا النقش على آراء في فقه الإلهيات وتفسير نشأة ونواميس الكون (الكوزمولوجيا) عند المصريين القدماء . وذكر المؤلف أنه ((إذا ما قارنا بين هذه الكوزمولوجيا المصرية مع الفرض السديمي الذي قال به (لابلاس) سنجد أوجه تشابه مذهلة بين النصين)) وأن أفلاطون نقل مشهد يوم الحساب في الآخرة كما ورد في كتاب الخروج إلى النهار الشهير في ترجمته الخاطئة باسم (كتاب الموتى) وأن الفضائل الأربع الرئيسية المنسوبة إلى أفلاطون ، فإنها مقتبسة من الفضائل العشر المصرية .

وعن أرسطو ذكر أنه عقب غزو الإسكندر لمصر تم الاستيلاء على المكتبة الملكية في الإسكندرية وكتب ((وعندى اعتقاد جازم بأن هذه في الحقيقة كانت أعظم فرصة أتاحتها الإسكندر لأرسطو ويسر له ولتلاميذه الاستيلاء على أكبر عدد ممكن من الكتب التى احتاجوا إليها . هذا غير مكتبة طيبة الملكية التى أسسها الفرعون (سيتى) وأكملها رمسيس الثانى ، وهى أعظم المكتبات الملكية المصرية)) وفى مناقشة المؤلف للمبادئ الفلسفية المنسوبة إلى أرسطو أكد على مصدرها المصرى . فمثلا مبدأ الأضداد نشأ أصلاً فى نظام الأسرار المصرى . ومبدأ (المحرك غير المتحرك) مستمد من فقه إلهيات مدرسة ممفيس ، فهو (آتوم) أو الصانع الأول الذى خلق بكلمة اللوجوس منه أربعة أزواج من الآلهة . وقد خلقها من أعضاء جسده وتحركت خارجة منه وتمت عملية الخلق هذه بينما ظل آتوم ثابتاً لا يتحرك .

وذكر أن الإغريق شوّهوا الآلهة المصرية عندما أضفوا عليها أسماء وأساطير يونانية وآسيوية . وفى نهاية القرن الرابع الميلادى تم إغلاق المعابد المصرية . وبدأت المسيحية فى الانتشار . وفى القرن السادس أصدر الإمبراطور جوستنيان مرسوماً بقمع كل معتنقى ديانة مصر ، ولكن ظلّ السحر الشعبى هو المجال الوحيد المحافظ على الديانة المصرية التى كانت ديانة عالمية ، ولذلك تم الاحتفاظ بتمثال إيزيس وهى تُرضع طفلها حورس ، الذى أصبح يُمثل السيدة العذراء وطفلها السيد المسيح ، وبناءً على ذلك قرّرت الحكومة الرومانية أنه لكى تستكمل الغزو يجب إلغاء نظم الأسرار المصرية . وبالتالي لابد من عقيدة جديدة تحل محل الديانة المصرية .

وفى الجزء الثانى من الكتاب وجّه المؤلف النداء والرجاء إلى كل مثقف العالم المتحضر لإعادة الاعتبار للمصريين أصحاب أول وأعظم حضارة إنسانية عرفت البشرية . وأوصى بإقرار كتابه لتدريسه فى المدارس والجامعات لجميع شعوب العالم . وهى التوصية التى أيدها أ. شوقى جلال مترجم الكتاب الذى يرى ضرورة أن تتضمن دروس التاريخ ، بل والمطالعة فى المدارس مقتطفات من آراء العلماء عن

حضارة مصر. ومختارات من الأدب المصري القديم . وأن نُصحح المفاهيم الخاطئة، فنقول نظرية فيثاغورث التي تعلمها في مصر (يرى المؤلف شطب اسم فيثاغورث من كتب الرياضيات المدرسية) وأن نقول معبد دلفى المصري في اليونان . وأن اليونانيين تلاميذ الفلسفة المصرية. ومن الخطأ أن نظل ضحية مشسر الدونية . ومن الخطأ أن تُردد مع خصوم الحضارة المصرية قولهم: إن هـى إلآ أساطير الأولين وأن التنقيب في أطلال الماضى مضیعة للوقت أوردة إلى (الوثنية) وأن نقطع كل صلتنا بهذا الماضى (الهمجى) ، واختتم أ. شوقى جلال هذه الفقرة قائلاً ((الغريب أن دعاة هذا الرأى هم أعلى الأصوات فى الدعوة إلى التمسك بالتراث ، ولكن تراثهم هم)) كما أشار إلى دور الصهيونية فى تشويه الحضارة المصرية ونسبتها إلى الجنس الأبيض .

إن مؤلف الكتاب (أمريكى الجنسية) يستحق الشكر لأنه يطالبنا نحن المصريين بالدفاع عن حضارتنا وبتبنى فلسفة تحرير لكل إفريقيا . ويغرس فىنا مشاعر الكبرياء القومى . ويستحق أ. شوقى جلال الشكر لأنه قدّم بترجمته لهذا الكتاب هدية جلیلة لكل مصرى مازال يعتز بقوميته المصرية وبحضارته. وإذا كان المصريون المتأثرون بالتراث العبرى هاجموا كتاب (أثينا إفريقية سوداء) وكتاب (التراث المسروق) وإذا كان البعض يتعمد تشويه حضارة جدوده ونحن فى عام ٢٠٠٩ فإن عمید الثقافة المصرية (طه حسين) كتب عام ١٩٣٧ بثاقب بصيرته أن اليونانيين ((كانوا فى عصورهم الراقية ، كما كانوا فى عصورهم الأولى ، يرون أنهم تلاميذ المصريين فى الحضارة وفى فنونها الرفیعة بنوع خاص)) (مستقبل الثقافة فى مصر - دار الكاتب اللبنانى - ط ١٩٧٣ ص ٢٢) .



الصراع المصري العبري
والصراع الفلسطيني الإسرائيلي

القسم الثاني

مصر وفلسطين
والأصولية الدينية

الفصل الأول العلاقة بين اليهودية والصهيونية

((إني أنا الرب ساكن في وسط بنى إسرائيل)) (العهد القديم - عدد ٣٥) .

((الرب إله إسرائيل حارب عن إسرائيل)) (العهد القديم - يشوع ١٠) .

((قال الرب لداود اصعد لإنى دفعا أدفع الفلسطينيين ليدك)) (صموئيل الثاني / ٥) .

((رثموا للرب الساكن في صهيون)) (المزمور التاسع لداود) .

((إن خلاص البشرية من اليهود ، بل والتحرر الاجتماعي اليهودي نفسه ، إنما يقوم في تحرير الإنسانية من اليهودية)) (كارل ماركس في كتابه «المسألة اليهودية») .

لقد مرت مأساة الشعب الفلسطيني بعدة مراحل :
أولا : مرحلة التأسيس الأيديولوجي : وهي المرحلة التي

انحاز فيها إله العبريين إلى بني إسرائيل انحيازًا مطلقًا في مقابل العداء المطلق ضد غيرهم من الشعوب. والمرجعية الأساسية لهذا الانحياز تستند إلى كتب العبريين التي يُقدّسونها ، وفيها يُوزع إلههم أراضى الشعوب المستقرة عندهم مثل ((وكان في الأرض جوع غير الجوع الأول الذى كان في أيام إبراهيم . فذهب إسحق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين إلى جرار. وظهر له الرب)) إلى أن قال ((لأنى لك ولنسلك أعطى جميع هذه البلاد وأنى بالقسم الذى أقسمتُ لإبراهيم أبيك)) (تكوين ٢٦ : ١-٤) وبعد أن مات موسى استدعى الرب يشوع وقال له ((موسى عبدى قد مات . فالآن قم أعبّر الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا مُعطيها لهم أى لبني إسرائيل . كل موضع تدوسه بطلون أقدامكم لكم أعطيه كما كلمت موسى . من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات)) (يشوع ١ : ١-٩) .

إنّ المؤمنين الأتقياء من بني إسرائيل المعاصرين لنا ، يلغون عقولهم في سبيل التمسك بالنص . فإذا كانت الشعوب المتتمة لأوطان لها حدود جغرافية محددة ، واكتسبت هذه الحدود بحق الاستقرار الذى جاء نتيجة ظروف النشأة والعمل والبناء ، فإنّ مشيئة الإله العبرى تُقرّر سلب أراضى الشعوب التى زرعَتْ وشيدَتْ ، وتسليمها إلى شعبه المختار ((ومتى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التى حَلَفَ لأبائك إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يُعطيك إلى مدن عظيمة جيدة لم تبناها ، وبيوت مملوءة كل خير لم تملأها وآبار محفورة لم تحفرها وكروم وزيتون لم تغرسها وأكلت وشبعت . فاحترز لئلا تنسى الرب الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية . الرب إلهك تتقى وإياه تعبد وباسمه تحلف)) (تثنية ٦ : ١٠ - ١٣) .

إنّ الحركة الصهيونية في العصر الحديث التى استهدفت تجميع اليهود من كل دول العالم من أجل استيطانهم في أرض ليست لهم ، وهى الحركة التى انتهت بطرد الشعب الفلسطيني من أرضه ، هذه الحركة الصهيونية إنما استندت إلى مرجعية الديانة العبرية ، فحتى العنف الذى يُمارسه المتدينون الأتقياء من بني إسرائيل

المعاصرون لنا ، له مرجعيته الدينية في كتابهم الذي يُقدّسونه . ففي سفر التثنية يقول موسى لبنى إسرائيل إنه عند الدخول إلى مدينة لمحاربتها وقبلت الصلح ، فإن أبناء الشعب المغزوي يتحولون إلى عبيد لبنى إسرائيل . أما في حالة رفض الصلح ، يقول موسى : ((وإن لم تُسلمك بل عملت معك حرباً فحاصرها . وإذا دفعها الرب إهلك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك)) (تثنية ١٠ : ١٥ - ١٥) .

بعد هذا الاقتباس المختصر لنماذج من مرحلة التأسيس الأيديولوجي ، فإن الباحث قد يلتمس العذر للشعب الفلسطيني الذي استقر في أرضه أكثر من ألفي عام ، ولم يُحذره مثقفوه من خطورة مرجعية بنى إسرائيل الدينية ، وهي المرجعية التي ظلت كامنة تحت الرماد حتى اشتعلت عام ١٨٩٧ ، عام المخطط الصهيوني تمهيداً لطرد شعب من أرضه .

ثانياً : مرحلة المخطط الصهيوني : في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي أصدر الكاتب الألماني (موزيس هيسي) كتاباً عن (تاريخ البشرية) قال فيه : ((إن شعب الله المختار ينبغي أن يختفى إلى الأبد ، ليفسح الطريق لحياة جديدة أكثر نقاءً وظهرًا)) ولكنه بعد عدة سنوات تراجع عن أفكاره الأولى ، وقرّر اعتناق الصهيونية ذات المرجعية الدينية ، فأصدر في عام ١٨٦٢ كتابه (روما والقدس) دعا فيه إلى تجميع اليهود من شتاتهم واحتلال فلسطين لتكون وطناً لليهود ، وبذلك يكون (موزيس هيسي) قد سبق هرتزل الذي نجح في عقد المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ في مدينة بال بسويسرا . بعد هذا المؤتمر تم الاستعداد لتوطين اليهود في أوغندا أو في سيناء ، ونظرًا لرفض الإنجليز هذا الاقتراح ، فقد استقر الرأي على الاستيلاء على فلسطين .

في هذه الفترة برز كاتب ألماني آخر هو (آرثر روبين) الذي شدّ أنظار زعماء الحركة الصهيونية إليه بكتابه (اليهود في الزمن الراهن) فطلبوا منه ترك ألمانيا

والتوجه إلى فلسطين ، وذلك بغرض محدد وهو إعداد تقرير عن أوضاع المستوطنات الصهيونية في فلسطين . وكان ذلك في عام ١٩٠٧ وفي العام التالي عيّنته الحركة الصهيونية رئيساً لمكتب المنظمة الصهيونية في فلسطين .

والسؤال الذي يفرض نفسه بإلحاح هو: اذا كانت الحركة الصهيونية نجحت في (زرع) مكتب لها في فلسطين مع بداية القرن العشرين ، فكيف تم ذلك وبهذه البساطة ؟ واذا كان العرب في ذاك الوقت مجرد قبائل متصارعة ، ولم يستقروا في (أوطان) وفق التعريف العلمى لمفهوم الوطن ، أو مفهوم الدولة State فلماذا لم ينتبه الفلسطينيون للخطر المحدق بهم، وللمخططات التى بدأ تنفيذها ، خاصة وأنّ الصهاينة أصبحوا في عقر دارهم ؟ ما هى الأسباب التى منعت الخيال الشعبى الفلسطينى من بدء الكفاح المسلح بالأسلوب العلمى لحرب التحرير الشعبى ، كما فعلت شعوب عديدة ، لعلّ مثالها الأشهر هو الشعب الفيتنامى ؟ وقد يكون السؤال تعبيراً عن الدهشة ، وقد يكون عشقاً للمعرفة ، ولكنه في كل الأحوال المدخل الطبيعى لمحاولة الإجابة التى - إن تسلحت بالحقيقة وتجرّدت من أية عواطف أو مصالح - قد تساعد في وضع الحلول العلمية والعملية لإنهاء مأساة الشعب الفلسطينى .

ثالثاً : مرحلة وعد بلفور ١٩١٧ : وهى المرحلة التى شهدت انحياز أكبر دولة استعمارية في ذاك الوقت للحركة الصهيونية ، وذلك لموازرة اليهود وتأيدهم في إقامة وطن لهم في فلسطين . واذا كانت هذه المرحلة التى تنتهى في ١٤ مايو ١٩٤٨ تاريخ إعلان الدولة العبرية ، قد شهدت انتفاضات عديدة للشعب الفلسطينى أبرزها تصاعد الصراع ضد المحتل في الثلاثينيات من القرن العشرين ، فإنّ الباحث عن الحقيقة وحدها لابد أن يسأل : لماذا لم يحدث التراكم الكيفى بعد كل التضحيات التى قدّمها الشعب الفلسطينى قبل قرار التقسيم رقم ١٨١ الصادر عام ١٩٤٧ والذي مهد لإعلان الدولة العبرية ؟ وما هى العوامل التى أدّت إلى انتصار

العصابات الصهيونية المعتدية على أصحاب الحق التاريخي؟ والسؤال بصيغة أخرى: لماذا لم يكن التراكم الكيفي للصراع مع أصحاب الحق؟ وهل يكون السبب أن تضحيات الشعب الفلسطيني كانت بعيدة عن التعريف العلمى لحرب التحرير الشعبية التي خاضتها شعوب عديدة مثل الشعب الفيتنامي؟

أعتقد أن محاولة الإجابة الجادة سوف تساعد على فصل الأوهام عن الحقائق، والأساطير عن الواقع. ومن أمثلة الأوهام / الأساطير الدور الذي لعبه الخطاب الإعلامى الثقافى العربى الذى ركز خطابه على أن الحكومات العربية وشعوبها مسؤولة عن تحرير فلسطين. وقد ترتب على ذلك - بمفهوم المخالفة كما يقول القانونيون - أن مسئولية الشعب الفلسطينى عن تحرير أرضه مسؤولة ثانوية. وهكذا تسبب الخطاب الإعلامى العربى فى تعميق مأساة الشعب الفلسطينى، لأن خبرة الشعوب التى ناضلت من أجل تحرير كامل ترابها، تؤكد على أن الاعتماد على الذات - أولاً وقبل كل شئ - هو الأساس فى الانتصار على المحتل. لقد ساعدت الشعوب الحرة الشعب الفيتنامي بالمال والسلاح، ولكن كان الشعب الفيتنامي هو المسؤول الأول والأخير الذى قاد حرب التحرير الشعبية، حتى تحقق له النصر على أكبر دولة قادت الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية.

كما اعتمد الخطاب الإعلامى العربى على الشعارات والخطب، مثل التركيز على أن الفلسطينيين أصحاب حق، مع التغاضى عن عوامل القوة التى تُدعم هذا الحق. وأهم هذه العوامل وحدة الصف الفلسطينى، بحيث تكون قيادة حرب التحرير الشعبية، قيادة واحدة، وليست أكثر من ١٧ فصيل فلسطينى، كما حدث بعد إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية. وأن تكون القيادة سرية وليست علنية، كما أراد زعماء حماس الذين توفقوا صلاحية الجمع بين الحرب ضد إسرائيل والجلوس على كراسى السلطة، وجمع الأموال من الاتحاد الأوروبى ومن النظم العربية التى تجمعها من شعوبها. ومنذ بداية المرحلة الرابعة للصراع (مايو ١٩٤٨) حتى الآن،

يُلاحظ أنه كلما تصاعد الخطاب العروبي الإنشائي ، كلما تفاقمت مأساة الشعب الفلسطيني ، في نفس الوقت الذي تراكمت فيه انتصارات الدولة العبرية المعتدية . وهي الانتصارات التي تم تتويجها في شهر بؤونة / يونيو ١٩٦٧ بهزيمة أكثر من دولة واحتلال أجزاء من أراضيها في أقل من ستة أيام . وهي الحرب التي قد يصعب تصديق روايتها بالنسبة لأجيال الألفية الرابعة ، وقد يحسبون روايتها من باب الأساطير أو الغيبيات أو الخرافات .

كما أغفل الإعلام العروبي - عن عمد - أن الدولة العبرية التي وصفها هذا الإعلام ب (الدولة المزعومة) احترمت العلم وامتلكته منذ اللحظات الأولى لإنشائها . وأنها بعد سنوات قليلة من اعتراف المجتمع الدولي بها امتلكت القنبلة النووية ، وأصبحت سادس دولة نووية في العالم سنة ١٩٧٠ أى بعد ٢٢ سنة من قيامها (د. فوزى حماد- مجلة الهلال- يوليو ٢٠٠٢) كما تعتمد في دخلها القومي على تصدير البرمجيات ، بل إنها تبيع طائرات تجسس بدون طيار لدول متقدمة تكنولوجياً مثل فرنسا والصين . كما أن المقارنة بينها وبين الدول العربية فيما تنفقه من الدخل القومي على البحث العلمي تأتي لصالحها (د. نادر فرجاني- في دراسة له بعنوان « العرب في مواجهة إسرائيل - القدرات البشرية والتقنية »- بحث مكتوب على الآلة الكاتبة) كما تتفوق إسرائيل على العرب في مجال التعليم تفوقاً ساحقاً ، سواء في نسبة الإنفاق أو في سنوات الدراسة (د. كمال مغيث- مجلة أحوال مصرية- العدد العاشر- خريف ٢٠٠٠) كما أن المستوى المعيشي للمواطن الإسرائيلي أكبر بنسبة ١٧ ٪ من المستوى المعيشي لبعض الدول العربية المنتجة والمصدرة للبترو . ورغم كل تلك الحقائق يُصر الإعلام العروبي على أن إسرائيل دولة هشة يسهل إزالتها من على سطح الكرة الأرضية ، بالتطبيق لمقولة إلقائها في البحر الشهيرة .

ومن الأوهام أيضاً ذلك القول الملحاح الفج بأن إسرائيل هي الولاية رقم

(٥١) للولايات المتحدة الأمريكية. أى أنّ أنظمة الحكم في إسرائيل تابعة وعميلة لأمريكا . وهو وهم شبيه بوهم إلقاء إسرائيل في البحر، ذلك أنّ إسرائيل امتلكت كل مقومات الدولة العصرية المستقلة. ويكفى للتدليل على ذلك أنها تتجسس على أمريكا ، بل إنها أصبحت تؤثر في صنع القرار الأمريكى . حقًا هناك مصالح مشتركة بين الإمبريالية الأمريكية وإسرائيل ، ولكن يجب النظر إلى هذه المصالح في إطار علاقة ندية بين دولتين قويتين ، كل منهما لها أهدافها الخاصة ، وليس في إطار أنّ دولة إمبريالية تفرض شروطها على نظام دولة عميل أو تابع كما تصوّر وروج الخطاب الإعلامى / الثقافى العربى .

كعب أخيل فى الدولة العبرية :

رغم أنّ إسرائيل أصبحت قوة نووية تستطيع إرهاب كل الدول المحيطة بها ، ورغم أنها أصبحت دولة معترفًا بها دوليًا منذ قرار التقسيم عام ٤٧ وإعلان الدولة في مايو ٤٨ ، الأمر الذى يصعب تجاهله لوضع نهاية لمأساة الشعب الفلسطينى ، ورغم أنها أصبحت دولة متقدمة في مجالات التعليم والبحث العلمى والتصدير ومستوى المعيشة إلخ ، رغم ذلك فإنّ إسرائيل تعاني من صراع حاد يكاد يقسمها نصفين : صراع يقف في إحدى جبهتيه الآيات / الحاخامات الذين يتشبثون بالمرجعية الدينية العبرية ، وأنّ بنى إسرائيل هم شعب (يهوه) المختار ويحق لهم إبادته غيرهم من الشعوب ، ولهم حق طرد كل سكان الأرض لإقامة مستوطناتهم . وأنّ كل موضع تدوسه بطون أقدامهم هو حق إلهى لبنى إسرائيل إلخ . وعلى الجبهة الأخرى يقف العلمانيون الإسرائيليون الذين يرفضون المرجعية الدينية العبرية ، ويستهدفون إقامة دولة علمانية ديموقراطية ، يتساوى فيها الجميع وفقًا لحق المواطنة، لاوفقًا للانتماء الدينى . ويرفضون التوسع على حساب أراضي الغير وفقًا لتعاليم الإله العبرى المنحاز لبنى إسرائيل ، وبالتالي فهم مع إقامة الدولة الفلسطينية .

إنّ هذا الصراع تجسّد في السنوات الماضية في أكثر من مشهد : فقد رفضت

ألوميت شالومي التي كانت وزيرة التعليم ، الإنفاق على المدارس الدينية ، بل إنها امتلكت شجاعة الإعلان (وهي وزيرة مستولة) بأن الجولان أرض سورية. حقًا تصدّت لها جبهة الآيات / الحاخامات وأرادوا عزلها من منصبها وخروجها من الوزارة ، ولكن ما حدث هو أنه تم إبعادها عن وزارة التعليم وتعيينها وزيرة للمواصلات . ثم جاء بعدها (يوسى ساريد) وزير التعليم آنذاك ليكمل مسيرتها . حقًا مازالت جبهة الآيات / الحاخامات تهاجمه ، واتكأ الهجوم على مرجعية الديانة العبرية ، وذلك عندما شنّ الزعيم الروحي لحزب شاس الديني الحاخام (أوفاديا يوسف) هجومًا حادًا ضد وزير التعليم (يوسى ساريد) الذي كان يرأس حزب ميرتس اليساري . وانصبّ هجوم الحاخام على أن (يوسى ساريد) مثله مثل (فرعون) الظالم الطاغية وأنه عنصري . وقال الحاخام أيضًا إن فرعون نفسه لم يتخذ إجراءات كذلك التي يريد (ساريد) الذي يكره التوراة (الأهرام ٢٧ / ٣ / ٢٠٠٠ ص ٤) ورغم ذلك فإنّ (ساريد) وقف بصلابة ووراء تيار كبير من العلمانيين في تحدٍ واضح لجبهة الحاخامات .

ومشاهد الصراع بين الآيات / الحاخامات والتيار العلماني كثيرة ، مثل الخبر الذي نشرته صحيفة الأهرام نقلا عن وكالات الأنباء حيث جنّأ به ((نصاعد الجدل الذي يُمزق المجتمع الإسرائيلي منذ أكثر من شهر بشأن الإصلاحات العلمانية واسعة المدى التي طرحها إيهود باراك (رئيس الوزراء آنذاك) بهدف تقليص الهيمنة الدينية للمتطرفين اليهود . وتقليص سلطة الحاخامات على شؤون الحياة اليومية في إسرائيل . وسيطرتهم على الحياة الخاصة. والزواج والطلاق وتربية الأطفال . وتشير استطلاعات الرأي إلى أنّ المجتمع الإسرائيلي منقسم بين مؤيد ومعارض بشأن الإصلاحات العلمانية التي يريد باراك . وأنّ تلك الإصلاحات وتعرّض عملية السلام يجعلان مستقبل باراك في مهبط الريح . وذكر وكالة أسوشيتد برس أنّ باراك يعتزم تسيير المواصلات العامة في عطلة السبت خلال

شهرين ، وحذف الهوية الدينية من البطاقات الشخصية وإلغاء وزارة الأديان ، وكلها إصلاحات تواجه معارضة شديدة من جانب الحاخامات والأحزاب الدينية)) (أهرام ١٩/٩/٢٠٠٠ ص ١) .

إن باراك في هذا المشهد قدّم الدليل العملي على أنه مع التيار العلماني الذي يسعى إلى تأسيس دولة مدنية عصرية بديلة لدولة الحاخامات الدينية التي يحلمون بإقامتها .

ولأن الصراع بين التيارين الديني والعلماني صراع متصاعد ، فليس من قبيل المصادفة أن يتزامن الطرح الجريء الذي عزم رئيس الوزراء (آنذاك) على عرضه على الكنيست يوم ٢٩/١٠/٢٠٠٠ في سبيل تدعيم مقومات الدولة العلمانية ، مع المشهد التمثيلي الممجى الذي نفذته الجنرال شارون يوم ٢٨/٩/٢٠٠٠ عندما اقتحم المسجد الأقصى وهو يعرف جيداً رد فعل العرب والمسلمين نظراً لقداسه في معتقداتهم الدينية .

بعد ذلك يأتي المشهد الثالث وهو تراجع باراك عن آرائه التي تُدعم قواعد علمنة مؤسسات الدولة ، وذلك بعد تهديد حزب شاس الديني بالانسحاب من الائتلاف الحاكم . وفي تعليقه على هذا المشهد كتب أ. بيومي قنديل ((يُحطى القوميون الإسرائيليون خطأ جسيماً إذا وقفوا مكتوفي اليدين أمام صعود الأصوليين اليهود إلى منزلة من يُقرر ما ينبغي للدولة العبرانية . أو لزموا الصمت إزاء ما يرتكبه هؤلاء الأصوليون ضد الفلسطينيين من أعمال عنف يندى لها جبين الإنسان . فالأصوليون اليهود لا يُهددون بإبادة الفلسطينيين لكونهم فلسطينيين ، بل لأنهم مختلفون ، ولسوف يستدير هؤلاء الأصوليون انطلاقاً من نفس الأساس كي يُنزّلوا سائر الإسرائيليين الذين يُحالفونهم الرأي أو حتى الزى إلى القبول إما بالانصياع أو القتل)) (صحيفة الأخبار ٢/١١/٢٠٠٠) وقد تأكد صدق تحليل المرحوم أ. بيومي قنديل ، إذ بعد عدة أسابيع من نشر مقاله ، نشرت صحيفة الأهرام الخبر التالي :

((... لعل الصورة التي نقلتها بعض شبكات التلفزيون العالمية من داخل إحدى المستوطنات الإسرائيلية تلخص الاتجاه السائد في غيرها ، فقد وقف المستوطن (شريجر فيشر) وسط أقرانه وقال « إنّ دماء المستوطنين ليست دماء حمراء مثل بقية الإسرائيليين في تل أبيب ، بل تختلف »)) (أهرام ٢٩ / ١١ / ٢٠٠٠ نقلا عن أ. عاطف الغمري ص ١٠).

إنّ الصراع بين الجبهتين : جبهة الآيات وجبهة العلمانيين ، صراع دراماتيكي . وأنّ الفائز في نهاية الصراع هو الذى سيُشكل استراتيجية السياسة الإسرائيلية في المنطقة . فإذا فاز الآيات ومعهم جنرالات العنف والدم والإبادة ، فلا بد من تنفيذ مشيئة الإله العبرى القائمة على سلب أراضي الغير والتوسع فى الاستيطان وإبادة السكان الأصليين . ولا بد أن يُصاحب ذلك الهجوم على الحضارة المصرية . وهو ما يفعله الآيات / الحاخامات ، إذ يُشبهون أى طاغية فى إسرائيل بأنه مثل (فرعون) مصر الطاغى المستبد إلخ (بالضبط كما يفعل الأصوليون المسلمون فى مصر ، ومعهم كثيرون من كتاب الأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية ، وكثيرون من الشعراء إلخ) كما أنّ الحاخامات يواصلون مسلسل التزوير ، وذلك بإدعاء أنّ بنى إسرائيل هم بناء الأهرام وهم الذين شيّدوا مجمل إنجازات الحضارة المصرية . وقد فعلها مناحم بيجين وأعلنها مرة فى كامب ديفيد ومرة ثانية فى مصر تحت سفح الأهرام عندما قال : ((إننى أشعر بالزهو والفخر وأنا جالس وسط الأهرامات التى بناها جدودى)) ووصل التزوير لدرجة أنّ القناة الفضائية الإسرائيلية تضع ثلاثة أهرامات رمزاً لها . هذا بخلاف الأفلام الروائية والتسجيلية والأفلام الموجهة للأطفال .

اليهود فى التراث الإنسانى :

لقد ظللتُ لعدة سنوات أفرق بين اليهودية والصهيونية ، بمراعاة أنّ الأولى دين والثانية مذهب سياسى عنصري ، ولأنّ الدين يدخل فى إطار حق الاعتقاد ،

فيجب بالتالي احترام معتنقيه . أما الصهيونية ، فلأنها تستهدف الاستيلاء على أوطان الغير ، فيجب بالتالي مقاومتها ، إلى أن قرأت ما كتبه مؤرخون وعلماء أوروبيون (موسويون ومسيحيون) عن اليهود في الدول الأوروبية . وإجماع هؤلاء المفكرين على كراهية الشعوب الأوروبية لليهود . وبدأ السؤال يكبر في رأسى : ما هى أسباب كراهية الشعوب الأوروبية لليهود ؟ واكتشفت أننى لم أتعلم (أو لم أتوقف) أمام الصورة المزرية لليهود في كتابات المبدعين ، مثل وليم شكسبير في مسرحيته الشهيرة (تاجر البندقية) أو جيمس جويس في رائعته (عوليس) إضافة إلى العلماء والمؤرخين الذين أكدوا على أن الشعوب الأوروبية احتقرت اليهود وعاملتهم بقسوة وصلت لدرجة جحد الإبادة ، مثلما فعل الرومان في مذبحة (تيتوس) الشهيرة . ومثلما أجهز عليهم (هارديان) في مذبحة نهائية ، ومثلما أحرق الصليبيون اليهود في معبدهم عندما استولوا على القدس عام ١٠٩٩ م . وإذا كانت الأمثلة كثيرة فإن السؤال هو : لماذا هذا الموقف من اليهود ؟

ذكر العالم ألبرت أينشتاين في كتابه (حول الصهيونية- خطابات ورسائل) الصادر عام ١٩٣١ ((إننا ندين إلى اللاسامية بالمحافظة على وجودنا واستمرارنا)) أما الفيلسوف سارتر فقال في كتابه (اليهودى واللاسامية- بحث في علم أسباب الحقد) الصادر عام ١٩٤٨ ((إن العامل الوحيد الجامع بين اليهود هو عدااء المجتمعات المحيطة بهم وكراهيتها لهم)) أما المفكر الكبير كارل ماركس فقد لخص (رغم أنه موسى الديانة) أسباب كراهية الشعوب الحرة لليهود في سبب رئيسى هو أن اليهود رفضوا أن يعيشوا في مجتمعاتهم كمواطنين ، لأن تمسك اليهود بالديانة اليهودية تغلب على ((الجوهر الإنسانى الذى كان ينبغي أن يربطه- بوصفه إنساناً- بسائر الناس)) وانتهى ماركس في تحليله الأخير إلى أن خلاص البشرية من اليهود ، بل والتحرر الاجتماعى اليهودى نفسه ، إنما هو ((تحرير المجتمع من اليهودية)) وأن التحرر اليهودى في معناه الأخير ((يقوم في تحرير الإنسانية من اليهودية)) وفي فقره

الأولى من الصفحة الأولى كتب ((المال هو إله إسرائيل المطماع . ويعتقد اليهود أنه لا ينبغي معه لأى إله أن يعيش . إنّ المال يخفض جميع آلهة البشر ويجعلهم سلعا . المتاجرة بالمال ، هذا هو الإله الحقيقي لليهود)) (دار مكتبة الجيل اللبنانية - بدون سنة نشر - ص ٣ ، ٣٨ ، ٥٥ ، ٦٣) .

وكتب الفيلسوف الفرنسى فولتير عن التاريخ اليهودى القديم ((فى البداية تشتت قبائل إسرائيل العشر ثم سيقّت القبيلتان الأخيرتان إلى أسر بابل . هذه إذن النهاية التى آلت إليها تلك العجائب المذهلة كلها ، والتى زعموا أنّ (يهوه) صنعها ليهوده . وينظر الحكماء المسيحيون بألم وأسى شديدين إلى النوايب التى ألمّت بأبائهم ، الذين أعدوا لهم طريق الخلاص . أما أتباع مذهب الشك ، فينظرون بفرح خفى إلى إبادة شعب كامل تقريباً ، هو الشعب الذى يرون أنه حامل لأبشع المعتقدات الخرافية وأدنى أشكال العهر والبغاء وأكثر ضروب السلوك البشرى وحشية ودموية)) (نقلا عن كتاب « التوراة كتاب مقدس أم جمع من الأساطير » تأليف ليو تاكسل - ترجمة د. حسان ميخائيل إسحاق - طبعة خاصة - ص ٤٦٢) وكتب سيجموند فرويد (رغم أنه موسى الديانة) : ((ليس بوسع أى مؤرخ أن ينظر إلى القصة التى تروىها التوراة عن موسى والخروج بأكثر من أنها أسطورة دينية ، قلبت إحدى الروايات البعيدة لمصلحة اتجاهاتها .. ولكننا لانستطيع أن نبقى بغيراكتراث عندما نجد أنفسنا فى تعارض مع البحوث التاريخية اليقظة لعصرنا .. ومن المؤكد أنّ (يهوه) كان إلهاً بركانياً ، وكما نعرف فإنّ مصر تخلو من البراكين)) وأكد على أنّ اليهود أخذوا عادة ختان الذكور من مصر، ورغم الشواهد التى تؤكد أنها عادة مصرية ، فإنّ اليهود بذلوا ((كافة الجهود الممكنة لفصلها عن مصر. ولا يمكن تفسير الفقرة المحيرة فى سفر الخروج ، المكتوبة بأسلوب غير مفهوم ، وتقول إنّ الله كان غاضباً على موسى لإهماله الختان ، وأنّ زوجته المديانية أنقذت حياته بإجراء عملية ختان سريعة ، إلّا أنها تناقض متعمد للحقيقة الكاشفة .. لتوجيه ضربة

حاسمة إلى الأصل المصرى لعادة الختان . وقيل: إن (يهوه) طلبها إلى إبراهيم من قبل وأقامها كعلامة على الميثاق المضروب بينه وبين نسل إبراهيم ، وهذه - على أى حال - بدعة حمقاء بوجه خاص)) (انظر: كتابه «موسى والتوحيد» ترجمة عبد المنعم الحفنى - مطبعة الدار المصرية - ط ٢ - بدون سنة نشر - ص ٨٤ ، ١٠٩ ، ١٣٥) .

أما العالم والمفكر الإيطالى جيوردانو برونو الذى أحرقه القساوسة الأتقياء حياً مع مطلع عام ١٦٠٠ لأنه كان ينادى بأن على البشرية أن تتبنى ديانة مصر القديمة لأنها مؤسسة على التعددية والتسامح الفلسفى (أنظر : لويس عوض فى كتابه «ثورة الفكر - فى عصر النهضة الأوروبية» - مركز الأهرام للترجمة والنشر - عام ٨٧ عدة صفحات) هذا العالم الكبير (برونو) كتب عن اليهود قائلًا إنهم ((بلا شك فضلات الحضارة المصرية . ولا يستطيع أى إنسان أن يقنع أحدًا بأن المصريين قد أخذوا عن اليهود أى من مبادئهم ، سواء كانت صالحة أم لا .. إن مصر مبدعة الكتابة والآداب ، أساس كل تراثنا وشرائعنا)) (نقلا عن مارتن برنال فى كتابه الموسوعى «أثنية إفريقية سوداء» - مجموعة مترجمين - المجلس الأعلى للثقافة - عام ٩٧ ص ٢٨٦) .

وكتب العالم (ليو شتراوس) أن الفيلسوف الهولندى اسبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) ابتعد عن اليهودية . وأن هدفه الأساسى فى دراسته (البحث اللاهوتى السياسى) هو ((تحرير المسيحية من تراثها اليهودى)) أما العالم (كاسير) فقد أكد على ابتعاد (اسبينوزا) عن التراثين الدينين اليهودى والمسيحى معًا . وهو الأمر الذى أغضب الحاخامات اليهود على (اسبينوزا) فقرروا طرده من الطائفة اليهودية ، وبالتالي انفصاله عنها طوال حياته منذ أن كان فى الرابعة والعشرين من عمره حتى وفاته . وأنه لم يتراجع عن موقفه ، ولم يحاول فى أى وقت أن يسترضى السلطات الدينية اليهودية . وفى كتابه المهم عن (اسبينوزا) كتب المفكر الكبير د. فؤاد زكريا أن (اسبينوزا) رفض بشدة فكرة امتياز شعب على بقية الشعوب . وفى هذا السياق

كتب إسيبنوزا ((لا يوجد على الإطلاق في الوقت الحالى أى شىء يستطيع به اليهود أن يباهوا به غيرهم من الشعوب . أما استمرار اليهود كل هذا الوقت بعد تشتتهم وضياع ملكهم ، فليس فيه ما يدعو إلى العجب ، إذ أنهم قد انفصلوا عن كل أمة إلى حد جلب عليهم كراهية الجميع . وعن التعصب الدينى المؤسس على أحادية الفكر كتب إسيبنوزا أنه ((لا الكاثوليكية ولا اليهودية يحق لها أن تدعى احتكار الحقيقة لنفسها . ومن الممكن الإتيان دائماً ، فى كل حالة تلجأ فيها إحدى العقائد إلى الحجة القائلة بقدرتها على البقاء ، بأمثلة أخرى لعقائد مخالفة لاتقل عنها قدرة على البقاء ، ولكن لا هذه ولاتلك يحق - كما قلنا - أن تدعى لنفسها احتكار الحقيقة . ولاحظ العالم (لامبرت دى فلهويزن) فى الرسالة رقم ٤٢ الموجهة إلى إسيبنوزا أن الأخير ((أنكر فكرة اختيار اليهود أو تفضيلهم على بقية الأمم . وأكد على أن ممارسة الفضائل الأخلاقية ، أجدى من ممارسة شعائر العقيدة اليهودية)) وفى نص مهم ذكر إسيبنوزا أن السعادة الحقيقية لكل إنسان تكون - فقط - من قدرته على فعل الخير ، وليس فى مباهاته بأنه هو وحده القادر على فعل الخير دون سواه من البشر . إن سعادة الإنسان الحق لا تكون إلا فى الحكمة ومعرفة الحقيقة ((وهى لا تكون أبداً فى شعوره بأنه أحكم من الآخرين . أو بأن الآخرين يفتقرون إلى مثل هذه المعرفة ، فمثل هذه الأمور لا تزيد من حكمته ، وعلى ذلك فإن كل من يغتبط لأسباب كهذه ، إنما يغتبط لتعاسة الآخرين ، وبذلك يكون خبيثاً وشريراً)) وكان تعليق د. فؤاد زكريا أنه ((حتى لو كان اليهود ممتازين عن غيرهم بحق ، فإن تباهيهم بهذا الامتياز يكفى لجعلهم أشراراً ، إذ أن المرء يسعد بتمتعه بالخير ، لا بإدراكه أن الآخرين محرومون منه . هنا نقد أساسى لفكرة (الشعب المختار) مبنى على القول بأن الفكرة ذاتها ليست مما تشرف به أية أمة أو يفخر به أى فرد يعرف معنى الأخلاقية ، إذ أنها تنطوى على مقارنة فيها حظ من شأن الآخرين ، وليس الخط من شأن الآخرين من شيم الفضلاء حقاً ، فضلاً عما تتضمنه الفكرة من أنانية واضحة تظهر فى الاغتراب

بافتقار الآخرين إلى السعادة التي يتمتع بها هذا الشعب ذاته. والأنانية صفة بعيدة كل البعد عن الفضيلة الحقة. وبعبارة أخرى ففكرة (الشعب المختار) فكرة مناقضة لذاتها ، لأن من بلغ أسمى درجات الفضيلة ، لن يجد لذة في تأكيد تميزه عن الآخرين ، ولأن مجرد النظر إلى الآخرين على أى نحو ينطوى على الخط من شأنهم ، معناه أنك لم تعد كامل الفضيلة ولم تعد « مختاراً »)) ومن آراء إسبينوزا المهمة أن الدين (أى دين) ينبغي أن يفصل عن مؤسسات الدولة. وأن الدولة مبنية على عقد بشرى ، وسلطتها مستمدة من سيادتها ، لا من الأوامر الإلهية. وفي الدولة اليهودية القديمة ، خلط اليهود بين السلطتين الإلهية والزمنية بعد أن ولوا موسى على أساس أنه هو المعجزة الإلهية بينهم . واختاروا خلفاءه على أساس هذا التقرب إلى الله. وبعد أن نقلوا (حقهم) إلى الله ، اعتقدوا أن دولتهم تنمى إلى الله ، وأنهم هم أنفسهم أبناء الله ، ونظروا إلى الأمم الأخرى على أنها عدوة الله ، وعاملوها بكرهية شديدة . وكتب د. فؤاد زكريا ((هكذا كان إسبينوزا الذى مرّ بتجربة التربية اليهودية. واستوعب الثقافة اليهودية استيعاباً تاماً حتى طُرد . كان إسبينوزا أقدر الناس على تشخيص العلل الحقيقية في نفسية اليهود : كراهية الشعوب الأخرى التى غدت جزءاً من طبيعتهم . ورفض الاندماج في أى بلد آخر أو إبداء فروض الولاء له . والخلط بين السلطة الإلهية وسلطة الحكم في دولتهم القديمة ، وهو خلط لا بد أن ينعكس أيضاً على دولتهم الحديثة ، ولو صدر مثل هذا الكلام من شخص غير يهودى لأصبح موقعه في تاريخ الفكر اليوم في قمة (أعداء السامية) وهذا بالفعل ما اهتمت به الطائفة اليهودية إسبينوزا في أثناء حياته ، ولكنه بعد وفاته بقرنين أو ثلاثة ، أصبح فجأة ، في نظر معظم شراحه اليهود ، مدافعاً عن التراث اليهودى ، ومتعلقاً بالأمّة اليهودية . وزُيِّف العلم وشُوِّهت الحقيقة ، لكى يُضم إلى التراث اليهودى مفكر كان عظيمًا بحق ، ولكن أعظم ما فيه كان تحديه لكل تراث سابق عليه)) (د. فؤاد زكريا - كتابه عن إسبينوزا - دار النهضة العربية - القاهرة -

١٩٦٢- من ص ٣٥٧-٣٦٩- ومن لا يستطيع العثور على هذا الكتاب ، عليه أن ينظر الكتيب الذى صدر كملحق لمجلة (إبداع) العدد ١٢ - خريف ٢٠٠٩ - تحرير وتقديم الشاعر د. حسن طلب) .

لقد قفزتُ باعتقادى قفزة واسعة ، وانتقلتُ من ضرورة التفرقة بين اليهودية والصهيونية ، إلى عدم الفصل بينهما. وأنّ الثانية ما هى إلاّ تنويع للأولى أو(على نسق الصيغة الماركسية) أنّ الصهيونية أعلى مراحل اليهودية. وأنّ تشبث اليهود (درع اليهودية) كان من الحتم أن يقابله رفض مفهوم (المواطنة) وأنّ رفض اليهود الفرنسيين الانتماء لفرنسا الوطن ، ورفض اليهود الألمان الانتماء لألمانيا الوطن.. إلخ كان سببه تمسك اليهود بالمرجعية الدينية ، لتنفيذ مشيئة الإله العبرى بضرورة العودة إلى (أرض الميعاد) ومن هنا نشأت ظاهرة (الجيتو) فى المجتمعات الأوروبية. وبسبب إصرارهم على فكرة (الجيتوهات) ورفضهم الاندماج والانتفاء (الوطنى) تجمّعوا ونجحوا (يجب الاعتراف بذلك) فى تكوين أكبر (جيتو) بعد استيلائهم على أرض الشعب الفلسطينى ، أى أنّ اليهودية تحولّت من عقيدة دينية إلى مذهب سياسى ثم امتزجا فصارا كوجهى العملة ، لا انفصام ولا انفصال بينهما ، وكان اسم هذه العملة (الصهيونية) وبالتالي فإنه لا خلاص للبشرية (ولليهود أيضًا كبشر) من هذه النزعة الصهيونية ، إلاّ عبر تحرير الإنسانية من اليهودية ، كما تنبأ ماركس بحق ، وهو ما يفعله التيار العلمانى فى إسرائيل .

رّوج البعض لمقولة أنّ يهود القرن العشرين بعد الميلاد ، غير يهود القرن العشرين قبل الميلاد على أساس الصفات التشريحية الجسمانية ليهود اليوم ، أى على أساس العامل الأثروبولوجى ، أمثال د. جمال حمدان ، د. عبد الوهاب المسيرى (انظر كتاب: «اليهود أنثروبولوجيًا» تأليف الأول وتقديم الثانى- كتاب الهلال-

فبراير ٩٦) إن محاولة د. جمال حمدان وغيره ، محاولة مُضللة وعشوية لاطائل من ورائها في الرد على الأصوليين اليهود المتمسكين بأرض الميعاد ، وأن الجهد الضائع في مسألة الصفات التشريحية ، كان يجب أن يتجه إلى التعصب المؤسس على المعتقد العقيدى ومرجعيته الدينية ، وقد تأكد ذلك من الخبر الذى نشرته صحيفة الأهرام عن مراسلها في باريس أ. أحمد يوسف الذى نقل ما ذكرته مجلة (لونوفيل أوبزرفاتور) أن هناك انشقاقاً حاداً بين اليهود في فرنسا حول القضايا الرئيسية التى تمس وجودهم ومنها تعريف اليهودى نفسه.. من هو؟ وقالت المجلة: إن حاخامات فرنسا وكهنتها وعلى رأسهم جان كاهان رئيس المجمع المركزى اليهودى ، يُطالبون اليهود بأن يكون ولاؤهم الأول لدينهم وبالتالي لإسرائيل قبل أن يكون لوطنهم الذى يعيشون فيه (أهرام ١٢/١٢/٢٠٠٠ ص ١ ، ص ٤) .

يذهب اعتقادى أن خلاص الشعب الفلسطينى والدول المجاورة لإسرائيل ، من الصهيونية المؤمنة بالتوسع والاستيطان ، لن يكون إلا بدعم وتأييد التيارات العلمانية فى بلدانها ، ولن يكون إلا بالتفوق على إسرائيل فى مجالات البحث العلمى والتعليم والتصدير والمستوى المعيشى وصناعة السلاح ذاتياً ورفع الوصاية من على الشعب الفلسطينى ، وذلك بدعمه ليخوض حرب السلام بعد أن فات وقت حرب التحرير الشعبية على الطريقة الفيتنامية.

وفى كلمة واحدة فإن دعم التيارات العلمانية فى إسرائيل وفى الدول المحيطة بها ، هو السبيل الوحيد لهدم المشروع الصهيونى ، وهو المشروع الذى يتبناه الأصوليون اليهود داخل إسرائيل وخارجها . فهل تقبل الدول التى لها مصلحة فى التخلص من المشروع الصهيونى التحدى ، من أجل مستقبل أفضل لسكان المنطقة ؟ أم تظل على سياستها الحالية المتمثلة فى العداء لمبادئ العلمانية. والمتمثلة (كذلك) فى العداء لمعنى الانتماء الوطنى لصالح الانتماء الدينى ، الأمر الذى يؤدى إلى تدعيم الأصولية فى بلدانها وفى إسرائيل ؟ ومع ملاحظة أن التصدى للأصولية اليهودية لا بد وأن

يتزامن ويرتبط بالتصدي للأصولية في البلاد المحيطة بإسرائيل التي تساند وتُدعم هذه الأصوليات . وتكمن الخطورة في أنّ الأصوليين في إسرائيل وفي البلاد المجاورة لها يتشابهون في الكثير من المعتقدات والمنطلقات ، لعلّ أخطرهما أن يكون الولاء للدين وليس للوطن .



الفصل الثاني

نبوءات الليبراليين المصريين حول المخطط الصهيوني

من المحاور التي تحظى باتفاق أغلب الباحثين في مشروع النهضة المصرية ، أنّ المثقفين المصريين منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين ، ساهموا في وضع أسس الدولة المدنية العصرية الحديثة ، وذلك من خلال دفاعهم عن مبادئ الليبرالية الفكرية. ووضع دستور يُحدد العلاقة بين الحاكم والمحكومين. والدفاع عن الحريات السياسية والفردية. والدفاع عن حرية المرأة كإنسان مشارك في الحياة الاجتماعية. والدفاع عن التعليم المدني العصري المؤمن بالبحث العلمي بلا أية حواجز وبلا أى سقف يحد من انطلاقه. وأنّ (النقد الحر) هو أساس التعليم السليم . ورفض فكرة الخلافة. وإصدار العديد من الصحف والمجلات الثقافية التي أثرت الحياة الفكرية .

ولكنني اكتشفتُ من خلال قراءاتي في صحف ومجلات تلك الفترة ، أنّ المثقفين المصريين لم يكتفوا بإثارة القضايا الفكرية والفلسفية التي تبذر بذور التنوير كأساس من أسس النهضة ، ولم يكتفوا بعرض أحدث النظريات العلمية في مجال

العلوم الطبيعية (بيوجيا ، فيزياء ، ميكانيكا الكم إلخ) أوفى مجال العلوم الإنسانية (فلسفية ، نفسية ، اقتصادية إلخ) وإنما كانت لهم فى الكتابات السياسية تحليلات عميقة ، كانت تصل أحياناً لدرجة التنبؤ بالمستقبل .

فى عدد أمشير / فبراير ١٩٢٩ من مجلة العصور التى كان يُصدرها المفكر الكبير الأستاذ إسماعيل مظهر، مقال للأستاذ عمر عنایت بعنوان (المدنية اليهودية المستقبلية) فى بداية المقال بدأ برصد ظاهرة سيطرة ((المال اليهودى الآخذ بخناق العالم والمسيطر لأمواره ، دون أن يبدو لأنظار العامة ، رغم أن الخاصة ترتجف كلما فكرت فى تزايد السطوة والجبروت اللذين لابد سيلازمان هذه السيطرة الآخذة فى الزيادة)) ثم أكد على أن اليهود هم الذين استفادوا من القلق الاقتصادى الذى نتج عن الحرب العالمية (الأولى) وأن الذى ربح الحرب هو نفوذ اليهود دون سواهم واستثمروه خير استثمار)).

وفى الفقرة التالية يتضح مدى وعيه ومتابعته لأخبار السياسة الدولية ودور اليهود فى صنعها فكتب ((وإنك إذا بحثت كل حركة هدامة أو مجددة فى الوقت الحاضر، تجد أن محورها الدعاية اليهودية ، الأمر الذى يمكننا مشاهدته متجلياً فى مرقعين : أولاً : فى روسيا . وثانياً : فى فلسطين ، فاليهود يريدون أن يُشيدوا فى فلسطين نقطة ارتكاز يُوجهون منها جهودهم حيث شاءوا وحيث يجدون فائدة. إن فلسطين ليست غير العش الذى ستولد فيه المدنية اليهودية المستقبلية)) بعد هذا التوصيف لدور اليهود فى صناعة السياسة الدولية فى كل من روسيا وفلسطين ، يُفاجأ القارئ بأول نبوءة من نبوءات أ. عمر عنایت والتى تحققت بالفعل ، إذ كتب ((يشعر الصهيونيون أنهم فى حاجة إلى حماية أقوى دول العصر حتى تثبت أقدام مدينتهم الجديدة ، وعندئذ يكون من أيسر الأمور عليهم إزالة تلك الحماية بفضل ما لهم ونفوذهم . وبريطانيا نفسها تشعر بنمو الصل اليهودى تدريجياً بين أحضانها ، وعبثاً نحاول أن نُزيل عنها ويلاته المستقبلية ، مع علمها بأن إمبراطوريتها ستكون

أول من يتحمل صفعات اليهود المميتة)).

وهذا ما حدث بحذافيره : اليهود اعتمدوا على بريطانيا العظمى ، وحصلوا منها على وعد باغتصاب أرض الشعب الفلسطيني المستقر، لشعب رفض الاستقرار من خلال منظومة الولاء الوطنى ، المنظومة المتعارف عليها لدى الشعوب المستقرة . أما اليهود فقد فضلوا منظومة الرابطة الدينية . ومنذ وعد بلفور عام ١٩١٧ وحتى عام التقسيم ١٩٤٧ ظلت بريطانيا تُساند اليهود الذين أعطوا ظهورهم لها واتخذوا من واشنطن قبلة الولاء الجديدة ، بعد أن تأكدت حقيقة أن الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة العظمى الأولى في العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. ورغم المعونات الضخمة التي حصلت عليها إسرائيل من أمريكا تدور الأيام فتجسس الأولى على الثانية. بل وتتحداها في الكثير من القرارات، وتتعامل معها بندية ، لدرجة بيع تكنولوجيا متقدمة لبعض الدول ، رغم اعتراض الإدارات الأمريكية .

والأستاذ عنايت في تحليله لمتغيرات السياسة الدولية وتوقعات المستقبل رأى أن فلسطين هي مركز الشرق الأدنى في المستقبل . ومن خلال متابعته لما يُنشر في الصحف العالمية ذكّر القارئ ببعض المشروعات التي يتم التخطيط لها ومدى تأثيرها على المنطقة العربية في المستقبل فكتب ((هناك مشروع لمد أنابيب النفط من الموصل - أغنى الأقطار في النفط - إلى ثغر حيفا الفلسطيني ، وستصل بغداد بحيفا بالقضبان الحديدية وبالطائرات وبالسيارات ومن يدري ما يُخبئه الغيب من المخترعات والمكتشفات الغربية)) وبعد الكلمة الأخيرة ، وبدون أية فواصل ، سجل نبوءته التحذيرية الثانية إذ نصّ على ((فإنّ فلسطين - ولو أنها لم تصر بعد - فستكون يوماً ما - رضى الإنجليز أم غضبوا - ملكاً لبنى إسرائيل . وإذا قلنا بنى إسرائيل فنحن نتكلم عن أمة موحدة المرمى ، كثيرة المال ، لها رأس يُفكر. لذلك ستصر على أن يكون لها الفصل في الهيمنة على مركز فلسطين الاقتصادى أولاً، ثم

سيأتي الوقت الذي يلتفت فيه اليهود إلى الهيمنة السياسية والتوسع أيضًا)) وأظن أنني لست في حاجة إلى أي تعليق على هذه النبوءة التحذيرية التي أطلقها أ. عنایت عام ١٩٢٩، والتي تحققت بعد أن احتلت إسرائيل سيناء لعدة سنوات، وما زالت تحتل كل الأراضي الفلسطينية وبعض الأراضي الأردنية والجولان السورية.

أما نبوءته الثالثة فهي عن تأثير الدعاية اليهودية لصالح إسرائيل، بعد أن تكون دولة معترفًا بها دوليًا فكتب ((سنسمع يومًا من الأيام أن حيفا هي عروس البحر المتوسط، وأنها أكبر محطة للطيران، يحط فيها كل من يطير من الشرق إلى الغرب وبالعكس)).

وفي نبوءته الرابعة - وكأنه يمتلك آلة سحرية، لم يتوصل العلم إليها بعد - مثل بللورات ألف ليلة وليلة - كتب عن مصر ومستقبلها إذا لم تتبخر لخطورة المخطط الصهيوني، فنص على ((يجب أن نتطلع إلى ذلك اليوم، فإنه سيكون الحد الفاصل بين عهدين: عهد مصر الذهبي وعهدها المظلم، فبعد ذلك اليوم ستكون مصر كمية مهملة وستكون عضوًا أثيريًا في مملكة داود الجديدة)).

ولأن الثقافة المصرية في تلك المرحلة الليبرالية من تاريخ مصر، كانت مزدهرة وفي حالة نشاط وتفاعل دائمين، كتب أ. عبد الحكيم عبد الله الجهنى مقالًا في العدد التالي (برمهاة / مارس ١٩٢٩) بدأه بتحية رئيس التحرير أ. إسماعيل مظهر؛ لأنه نشر مقال أ. عمر عنایت. ورأى أن يُضيف بعض المعلومات عن المخطط الصهيوني، ومنها اقتراح مستر (ود جوود) العضو بمجلس العموم البريطاني الذي طلب فيه من مصر ((أن تنزل لفلسطين عن سيناء)) وأشار إلى أن اليهود يُرسلون بعض الأساتذة والأخبار إلى طور سيناء ((ليقوموا بتنقيبات عن التركة الموسوية هناك حيث كان التيه وكان المن والسلوى، وحيث يُقال: إن بعض المهندسين اليهود تمكنوا خلال الحرب العظمى (الأولى) من استكشاف أن الجذب في سيناء ليس إلا أكاذيب قارحة. وأنه توجد تحت الطباق الرملية مجار للمياه ومنابع للخصوبة)).

بعد ذلك تكلم عن أهمية الموقع الجغرافي لفلسطين ، وعن إمكانية إقامة مشروعات صناعية وزراعية بها . ثم أشار إلى المعلومات التي تتناولها الصحف العالمية عن خطط اليهود في المنطقة مثل ((مشروع (روتنبرج) الكهربائي العظيم ومشروع البحر الميت الكيميائي الزاخر، ومشروع ميناء حيفا ، واقترح بإنشاء قناة جديدة تُقَرَّبُ قناة السويس بين البحر الأبيض المتوسط وخليج العقبة)) ثم ربط بين الفاشستية والصهيونية ، وإذ أكد اتفاقه مع أ. عنایت رأى أن المخططات الصهيونية والفاشستية تضع ((مصر أمام امتحان دقيق)).

قد ينبهر البعض بهذا الوعي السياسي الذي تحققت نبوءاته المحذرة والمتشائمة ، وقد يرى آخرون أن نبوءة أ. عنایت الرابعة مبالغ فيها وأن مصر لا يمكن أن تكون كمية مهمة في مملكة داود الجديدة ، ولكنني أرى أن هذه النبوءة تحقق منها الكثير وذلك بمراعاة ما يلي :

في عام ١٩٧٠ أصبحت إسرائيل الدولة النووية السادسة في العالم (د. فوزى حماد- مجلة الهلال- يوليو ٢٠٠٢) أي بعد ٢٢ سنة من الاعتراف الدولي بإنشاء دولة جديدة باسم إسرائيل.

طبقاً لتقرير (العلم في العالم) الذي تُصدره منظمة اليونسكو، يُعد تمويل البحث العلمي في الدول العربية من أكثر المستويات انخفاضاً ، فقد بلغ الانفاق العلمي نسبة إلى الناتج المحلي الإجمالي ١٤.٠٪ في الدول العربية عام ١٩٩٦ مقابل ٢٠٥٣.٠٪ عام ١٩٩٤ لإسرائيل .

متوسط دخل الفرد في إسرائيل ١٧ ألف دولارًا سنويًا يُعادل نظيره في دولة أوروبية وسطية ، في حين أن متوسط دخل الفرد في مصر يتراوح بين ٥٠٠ - ٧٠٠ دولارًا . وورد في تقرير التنمية البشرية لمصر الصادر عن معهد التخطيط القومي

(المصري) أن ٢٣٪ من المصريين يعيشون تحت خط الفقر وأن ٢٥٪ فقراء نسبيًا (محمود المراغى - أهرام - ٩/٢٨ - ٩٩ - ص ١٠) وفي تقرير التنمية البشرية الصادر عن الأمم المتحدة، عن عام ٢٠٠٩ والذي يُشارك فيه مصريون وعرب، ورد فيه أن ٤٢٪ من المصريين يعيشون تحت خط الفقر، حيث يحصلون على أقل من خمسة جنيهات يوميًا.

شاركت إسرائيل في مشروع الجينوم البشري وفي نقل الرائحة عن طريق الكمبيوتر، وزودت طائرات الحلفاء في حملة البلقان بأنظمة توجيه كمبيوترية. وتشارك حاليًا في شبكة الردع الصاروخي (د. هشام الحديدي - أهرام ٤/٦/٢٠٠١ ص ١٠) في حين أن مصر لا تنتج ساعة يد ولا موتور موتورسيكل أو حتى موتور غسالة عادية.

في حديث لوزير التعليم (المصري) د. حسين كامل بهاء الدين قال: إن تكلفة إعداد التلميذ بالتعليم الأساسي في مصر يوازي ١٧٠ دولارًا وهذا الرقم في إسرائيل ٣٥٠٠ دولارًا (نقلا عن د. يحيى الجمل - أهرام ١٦/٧/٢٠٠١ ص ١٠).

في عام ٢٠٠٠ كان الناتج المحلي الإجمالي للفرد في إسرائيل يفوق نظيره في البلاد العربية كلها (د. نادر فرجاني - أهرام ١٩/٥/٢٠٠٢ ص ٢٦).

ورد في إعلان المبادئ الصادر عن القمة العالمية لمجتمع المعلومات (جنيف ٢٠٠٣، تونس ٢٠٠٥) أن الدول العربية (كلها) تُخصص لميزانيات البحث العلمي ما لا يزيد عن نصف في المائة من إجمالي الناتج القومي، وهي نسبة تكاد تكفي رواتب الموظفين، بينما تُخصص كوريا الجنوبية ٥،٢٪ وإسرائيل ٣٪ والولايات المتحدة الأمريكية ٣٪ من إجمالي الناتج القومي. كما تؤكد الإحصائيات كذلك أن الدول العربية تُنتج في مجال المعرفة، وإصدارات الكتب - تأليفًا وترجمة - حوالى ستة آلاف عنوان في السنة، ويبلغ نصيب العلم فيها أقل من ٢٪. ولا تزيد إصدارات الترجمة عن ٣٥٠ عنوانًا في السنة في كل الدول العربية (٢٧٠ مليون

نسمة) بينما تُصدر إسرائيل حوالى ٤٥٠ عنواناً مترجماً في السنة ، وتُترجم إسبانيا (٣٨ مليون نسمة) أكثر من عشرة آلاف عنواناً في السنة ، مع الاهتمام بالعلم (نقلاً عن الأستاذ شوقي جلال في كتابه «أركيولوجيا العقل العربى - البحث عن الجذور» الصادر عن دار العين للنشر - عام ٢٠٠٩ ص من ص ١٦٩ - ١٧١).

وإذا كان المثقفون المصريون حذروا في عام ١٩٢٩ من مخططات اليهود لإنشاء قناة جديدة تُقرب قناة السويس بين البحر الأبيض المتوسط وخليج العقبة ، فإنّ هذا التحذير لم يتوقف أمامه أحد ، بينما لم تتوقف محاولات إسرائيل المستمرة لتحقيق هذا الحلم ، إذ ((في المنتدى الاقتصادى العالمى بالأردن الذى عُقد عام ٢٠٠٣ تكلمت وفود الأردن وإسرائيل بالبدا في تنفيذ مشروع قناة البحرين الأحمر والميت فيما سُمى خطة تطوير ودأى الأردن لحماية بيئة البحرين الميت ، علماً بأنّ المرحلة الثانية من هذا المشروع سوف تصل إلى البحر المتوسط ، وهكذا جاءت الفكرة الأردنية على طبق من ذهب لإسرائيل ، وقيل وقتها : إن هذا المشروع إذا تم تنفيذه فسوف تخسر مصر ما بين ٢٥ - ٣٠٪ من دخل قناة السويس ، أى مليار دولاراً إلخ)) (الأستاذ سيد على - أهرام ٢٥ / ١١ / ٢٠٠٣ ص ٣).

في الوقت الذى غزت فيه إسرائيل العالم بمنتجاتها الزراعية والصناعية ، وتُصدّر تكنولوجيا متقدمة لدول أعرق منها ، فإنّ مصر تستورد حوالى ٨٠٪ من غذائها ، بل إنّ القمح (وهو سلعة إستراتيجية) فإنّ مصر تستورد أكثر من ٦٠٪ من احتياجاتها منه . وفي عام ٢٠٠٤ - وفق تصريح د. حسن خضر وزير التموين آنذاك ، فإنّ ما تم استيراده من القمح الأمريكى (فقط) وصل إلى ٥٤٪ من حجم احتياجات مصر (أهرام - ٤ / ٤ / ٢٠٠٤ ص ١٧).

وسط ذهول العالم المتحضر والشجب العربى الأثير دمّر الطيران الإسرائيلى يوم ٧ / ٦ / ٨١ المفاعل النووى العراقى .

في تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٣ الصادر عن الأمم المتحدة ، وهو

التقرير الذى يضع ترتيب الدول وفق معايير المستوى المعيشى وحجم الإنفاق على التعليم والبحث العلمى والصحة إلخ كان ترتيب إسرائيل السابع (على مستوى العالم) من حيث الإنفاق العام على الصحة. والمركز الثانى من حجم الإنفاق على التربية. وفى الترتيب العام احتلت إسرائيل المرتبة رقم ٢٢ بينما مصر جاء ترتيبها فى المؤخرة مع الدول المتخلفة وقبعت عند الرقم ١٢٠ (عبدالعاطى حامد - أهرام ١٤/٧/٢٠٠٣ ص ٨).

أثناء التوقيع على معاهدة السلام فى كامب ديفيد قال مناحم بيجين رئيس وزراء إسرائيل آنذاك أمام الرئيس السادات ردًا على سؤال من أحد الصحفيين عن سير المحادثات ((لقد عانيتُ فى المحادثات كما عانى جدودى فى بناء الأهرامات)) وبعد التوقيع جاء إلى مصر، وتحت أقدام (أبوالهول) قال ((إننى أشعر بالفخر وأنا جالس أمام الأهرامات التى بناها جدودى)) ولم يفتح أحد فمه بكلمة على هذا الادعاء الكاذب ، لافى الكامب ولا فى مصر، لا من الرئيس (المصرى) ولا من حواريه ولا من غيرهم .

تضع إسرائيل الأهرام الثلاثة كشعار لإحدى قنواتها الفضائية. وتنتج العديد من الأفلام التى تُروّج لأكذوبة أن بنى إسرائيل هم الذين أسسوا الحضارة المصرية. وفى هذا السياق تُشجّع كل من يكتب ويُروّج لأكاذيب أخرى ، مثل أن النبى موسى هو أخناتون ، وأن المصرى الكبير (يوبا) هو النبى يوسف . وحتى الآلات الموسيقية التى اخترعها جدودنا المصريون القدماء ، فإن صحيفة معاريف الإسرائيلية فى ملحقها الفنى كتبت أن هذه الآلات صناعة يهودية (عبر الشراوى - صحيفة القاهرة ١٩/٤/٢٠٠٥ ص ١٥) ونتيجة استسلام الثقافة السائدة فى مصر لهذا الهوان ، وصل الأمر لدرجة أن تعرض القناة الثانية (المصرية) فى التلفزيون (المصرى) فى برنامج عن الفن ، وتكون المصيبة الكبرى ؛ حيث إن الموسيقى المصاحبة للبرنامج عبارة عن توزيع جديد لنشيد (ها تحياه) وهو النشيد الوطنى

الإسرائيلي (من رسالة المهندس خالد زينهم إلى بريد الأهرام ٢٠/٤/٢٠٠٣).
استعانت وزارة الزراعة المصرية (بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد) بخبراء
إسرائيليين ، فكانت النتيجة تدمير العديد من المحاصيل الزراعية وتدمير صناعة
الدواجن وصناعة النحل .

ولعلها واحدة من سخریات القدر ومآسيه أن تفوز ست جامعات إسرائيلية
من بين أفضل ٥٠٠ جامعة على مستوى العالم ، بينما تم استبعاد كل الجامعات
المصرية ، مع مراعاة الفارق بين الدولتين ، في العمر وفي الحضارة .

الحقائق المذكورة بعاليه هي مجرد أمثلة على صعود بنى إسرائيل المعاصرين ،
وهو صعود يعكس أو يُترجم مشهد التردى المصرى (والعربى) لذلك يذهب ظنى
إلى أن أ. عنایت لم يكن مبالغاً عندما تنبأ عام ١٩٢٩ بأن مصر ((ستكون كمية مهملة
وعضواً أثرياً في مملكة داود الجديدة)) ولم يكن مغالياً عندما حذر من أن فلسطين
ستكون ((ملكاً لبنى إسرائيل)) ومع ذلك فهو يُختم نبوءاته برسم صورة للمقاومة
تتمثل في ((أن نقف وجهاً لوجه مع اليهود . نكون أمة يُخشى جانبها ولو جزئياً . أما
إذا اضطرتنا الظروف إلى الاندماج في النهضة (السامية) فنكون قد قمنا بنقسط غير
صغير في تشييد المدنية المستقبلية . العلم والثروة هما السلاحان الواجب التسليح بهما
لمواجهة المستقبل . فهل نحن فاعلون ؟)).

وإذا كانت الثروة متوفرة ، فما هى أسباب عدم استخدامها لإقامة قاعدة
علمية تكون هى الأساس للتنمية ولماكبة احتياجات العصر؟ ولماذا لا نتعلم من
تجارب الشعوب المتحضرة مثل الشعب الصينى والشعب الهندى إلخ؟ وهل
السبب أن هذه الشعوب (قبل امتلاك الثروة والموارد الطبيعية) تؤمن بأن الاعتزاز
بالذات القومية هو بداية التقدم ومجابهة كل الصعوبات ، بينما افتقدنا نحن المصريين
هذا الإيمان بذواتنا؟ أسئلة تتطلب شجاعة نقد الذات إذا أردنا ((التسلح لمواجهة
المستقبل)) فهل نحن فاعلون ، كما قال عمر عنایت عام ١٩٢٩ ؟

الفصل الثالث

أخطر شرخ في جدار المجتمع الإسرائيلي

من الكتب المهمة التي تعرّضت للتيارات الدينية داخل المجتمع الإسرائيلي ، كتاب د. رشاد عبدالله الشامي (القوى الدينية في إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة) الصادر عن سلسلة عالم المعرفة الكويتية- يونيو ١٩٩٤) وإذا كان من الشائع أنّ الحركة الصهيونية التي تزعمت وخططت لتجميع يهود العالم في (مكان ما) يكون بمثابة وطن لهم ، بدأت على يد هرتسل (١٨٦٠ - ١٩٠٤) وبصفة خاصة عند محطة المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧ ، فإن المؤلف يؤكد على أنّ التفكير في الاستيلاء على أرض الشعب الفلسطيني بدأ قبل ذلك بأكثر من ٥٠٠ سنة إذ عندما زار الفيلسوف اليهودي موسى بن ميمون القدس عام ١٣٢٧ ((وجد بها يهوديين اثنين فقط ، فقرر آنذاك الدعوة للاستيطان اليهودي في فلسطين)) (ص ٩٥) ومن بين الصهيونيين الذين كانوا يأملون في إعادة بناء طائفة يهودية في فلسطين الحاخام عقيبا يوسف من مدينة براسبرج ، الذي هاجر إلى فلسطين عام ١٨٧٠ من أجل أن يُقيم فيها طائفة يهودية (ص ٢٧) وفي عام ١٩٠٤ هاجر الحاخام إفرام يتسمان إلى فلسطين وأصبح حاخاماً لمدينة يافا (ص ٣٣٣) .

وعن تأثير المرجعية العبرية فإن حزب (مفدال) الديني عارض في برنامجه الانتخابي أى مشروع ((يتضمن تنازلاً عن أجزاء من أرض إسرائيل التاريخية ، أرض جدودنا)) (ص ١٠٩) ومحاور هذا الحزب السياسية والدينية تتضمن أن ((لا تقوم بين البحر ونهر الأردن إلا دولة واحدة هي دولة إسرائيل ، أى رفض إقامة دولة فلسطينية. وأن القدس هي من الآن وستبقى إلى الأبد عاصمة لدولة إسرائيل ، واستمرار حركة الاستيطان في كل أجزاء أرض فلسطين بما في ذلك الضفة الغربية (يهودا والسامرة) وقطاع غزة ، وأن هضبة الجولان جزء من دولة إسرائيل ، غير قابل للسلخ عنها . وشجب الحكم الذاتى الفلسطينى واعتباره خطراً على إسرائيل ، لأنه يمكن أن يؤدي إلى نشوء دولة فلسطينية)) (ص ١١٢ ، ١١٣) ولذلك فإن حزب المفدال الدينى يُعارض بشدة حزب العمل ؛ لأنه انحرف يساراً في مجال الدين والدولة. وعقد حلقاً مع الاصلاحيين ، ويقف متساهلاً من قضايا الاستيطان في الأراضي المحتلة)) (ص ٢٢٩ ، ٢٣٠) .

ومن الأمثلة العديدة التى ذكرها المؤلف عن تيارات الصهيونية الدينية القائمة على التوسع الاستيطانى ، موقف الحاخام (صموئيل حايم لاندائو) الذى كتب العديد من المقالات هاجم فيها موقف اليهود الأرثوذكس السلبى من الصهيونية. وأكد على أهمية الاستيطان في أرض إسرائيل ، لأن الإقامة في الأرض المقدسة هي أحد الأوامر الدينية ، وأن ((القبس الإلهى لا يؤثر في الشعب اليهودى إلا وهو في أرضه. وعليه لا يمكن اعتبار إسرائيل أمة حية وهي تعيش في المنفى)) ورفع شعار (التوراة والعمل) وأكد أنه لا يمكن أن تولد التوراة من جديد دون العمل ، وكذلك لا يمكن أن يولد العمل كقوة مبدعة في بناء الأمة من جديد دون التوراة التى هي جوهر الانبعاث)) أما الحاخام (مائير بريلان) فيرى أن الشعب والدين اليهودى يختلفان كل الاختلاف عما عداهما من الشعوب والديانات ، فالثورة والتقاليد الدينية ليست من صنع الإنسان ، بل هي قوانين إلهية. وكما يهتم الدين

اليهودى بشؤون العبادة ، فإنه يُنظم شؤون الدولة. فليس هناك فى اليهودية فصل بين الدين والدولة. واليهودية تحتوى على كل الشرائع المطلوبة لتسيير شؤون الدولة (ص ٩١ ، ٩٢) .

وكتب المؤلف أن الصهيونية الدينية استغلت مقولتين أساسيتين يؤمن بهما عامة اليهود ، وهما الشعب المختار ، وأرض الميعاد . وأن الحاخام موشيه بن نحمان (١١٩٤ - ١٢٧٠) فى تفسيره للتوراة أضفى طابعاً من القداسة على أرض فلسطين، فاعتبر أنها (مركز العالم) وأن أورشليم هى مركز (أرض إسرائيل) وأن هذه الأرض هى المكان المناسب والوحيد لتأدية الوصايا الدينية المنصوص عليها فى التوراة. ووصل تأثير رجال الدين على عقول اليهود فى أوروبا لدرجة أن ((أصبح رفض أحد الزوجين الذهاب إلى أرض إسرائيل والعيش فيها مبرراً كافياً - حسب الشريعة- للزوج لطلب الطلاق * وأن مثل هذه الاجتهادات كانت من الأسباب التى دفعت بعض اليهود للهجرة إلى فلسطين)) (ص ٨٥ ، ٨٦) *

وهؤلاء الصهيوينيون هاجموا هرتسل وأمثاله من دعاة الصهيونية السياسية ، لأنهم نادوا بأن الوطن المنشود لليهود لابد أن يُقام على أسس علمانية. وبالتالي فإنهم لم يغفروا لهرتسل أنه ((عندما زار القدس انتهك العديد من الشعائر الدينية اليهودية، ليؤكد تمييز نظرتة اللادينية عن العقيدة الدينية * ولذلك يقول هرتسل فى كتابه (الدولة اليهودية) الصادر عام ١٨٩٦ ((سوف يقوم حاخامونا الذين نتوجه إليهم ببناء خاص بتكريس جهودهم وطاقاتهم لخدمة فكرتنا. وسوف يغرسونها فى نفوس الرعية اليهودية عن طريق الوعظ والارشاد من فوق منابر الصلاة)) ورغم ذلك فإنه يؤكد على ((لن نسمح بظهور أية نزعات ثيوقراطية (= دولة دينية) لدى سلطاتنا الروحية. وسوف نعمل على إبقاء هذه السلطات داخل الكنيسة والمعبد . فالمتسلطون الدينيون اذا حاولوا التدخل فى شؤون الدولة سوف يلقون مقاومة عنيدة وشديدة من جانبنا)) أما الكاتب الألماني ماكس نورداو (١٨٤٩ - ١٩٢٣)

الزعيم الصهيوني وصديق هرتسل المقرب فكان مؤمناً بأن التوراة ((تعتبر كعمل أدبي أقل من أعمال هوميروس والكلاسيكيات الأوروبية وبأنها طفولية كفلسفة ومقززة كنظام أخلاقي)) (من ١٩ - ٣٠) .

وقد يتساءل البعض عن هذا التناقض الظاهري بين دعاة الصهيونية السياسية ودعاة الصهيونية الدينية. وعن تفسير هذا التناقض ذكر د. رشاد ((إن القارئ لفكر هرتسل ودعاة الصهيونية الآخرين ، يصطدم بين الحين والآخر بعبارات تنضح بالعواطف الدينية ، وتؤكد على الإيمان بطريق الآباء والأجداد والحنين إلى أرض التوراة. كما تكثر في خطب هؤلاء الاقتباسات التلمودية ، مما يوحي ببعض التناقض واللبس مع ما تبين لنا من علمانية هؤلاء القوم دعاة الصهيونية. فإذا علمنا أن هذه الاقتباسات والتصريحات الرنانة كانت من أساليب دعاة الصهيونية التي تطلعت إلى الاستثمار الأقصى للدين ، واستغلال القيمة الدعائية ، والرصيد العاطفي الذي تمتلكه العقائد الدينية عادة ، في سبيل أهداف الصهيونية ، زال اللبس واختفى التناقض)) (ص ٢٩) .

وفي هذا الاتجاه كتب المفكر الصهيوني يعقوب سيركن أن ((إنكار التعاليم اليهودية لا يضع الفرد خارج الجماعة. كما أن قبولها لا يجعل الشخص يهودياً . باختصار ليس من الضروري أن يؤمن الفرد بالدين اليهودي أو بالنظرية الروحية العامة لليهود كي يصبح جزءاً من الأمة)) وعلق المؤلف قائلاً ((ومعنى هذا أن الصهيونية العلمانية نظرت إلى اليهودية باعتبارها (فولكلور الشعب اليهودي) المقدس الذي لا يمكن أن تخضع قيمه لأي نقاش أو تساؤل . ففكرة العهد بين الله والشعب الذي منح الخالق بمقتضاه الشعب (أرض فلسطين المقدسة) كانت بمثابة الأسطورة الشعبية ل (بن جوريون) ولكنه مع هذا استخلص منها برنامجاً سياسياً . وقرر حدود دولته مسترشداً بمفاهيم العهد القديم التي لا يؤمن بها هو نفسه. ولكنه كان يتقبلها (كأساطير شعبية يهودية)؛ إن بن جوريون لم يكن يهمنه إن كانت

واقعة (الوعد الإلهي) حقيقة أم لا، بل المهم أن تكون هذه الأسطورة مغروسة في وجدان اليهودي. ولذلك يجب أن تكون سارية المفعول، حتى بعد أن ثبت أن الوعد المقطوع هو مجرد أسطورة شعبية، ليس لها أي مصدر إلهي. وهكذا ارتكزت هذه الرؤية على أن الدين اليهودي هو التعبير عن الإجماع ولذلك فإنها لا ترى ضرورة لإثارة ما إذا كانت التوراة من أصل سماوي أو أرضي، مادامت تُعبر عن هذا الإجماع الذي يجب أن يبقى ساري المفعول)) (٣٣، ٣٤) وعندما سئل بن جوريون عما إذا كان يؤمن بالله أجاب ((السؤال هو: من الله؟ إن معظم اليهود يتصورونه رجلاً عجوزاً ذا حية طويلة. يجلس على مقعد وثير. ويعتقدون أنه تحدث إلى موسى. لقد سمع موسى صوت إنسان في قلبه. وبذلك عرف أن عليه أن يفعل مايفعل. بيد أنني أومن بوجود قوى مادية فحسب في العالم)).

وعلق د. رشاد قاتلا ((بالرغم من هذه النظرة السلبية إلى الدين، كان بن جوريون يُدرك أهمية استغلال الدين في سبيل تدعيم الفكرة الصهيونية، واجتذاب المهاجرين إلى فلسطين، فأعلن ذات مرة «إن خلود إسرائيل يتميز باثنتين: دولة إسرائيل والتوراة» وفي مناسبة أخرى قال «على دولة إسرائيل أن تعتمد على نفسها وعلى إلهنا الذي في السماوات» ولذلك فإن بن جوريون أخذ في الحسبان الاعتبارات السياسية والحزبية ومسؤولية الدولة ونحى آراءه الشخصية جانباً عندما بدأ في وضع أسس التعايش بين المتدينين والعلمانيين. لقد كان بن جوريون يتطلع إلى بناء دولة عصرية، حتى لو خالف كل ما ورد في التوراة. وكان يؤمن بأن العمل الصهيوني هو الكفيل ببناء الدولة والمحافظة عليها وليست الغيبيات، لأنه كان يعتقد أن الغيبيات انتهت دورها في حياة اليهود منذ قيام الدولة)) وكتب بن جوريون بعد قيام الدولة ((على اليهودي من الآن فصاعداً ألا ينتظر التدخل الإلهي لتحديد مصيره، بل عليه أن يلجأ إلى الوسائل الطبيعية العادية مثل الفانثوم والنابال)) وقال أيضاً ((إن الجيش الإسرائيلي هو خير تفسير للتوراة)) وكان يرى

أنَّ للدين وظيفة عليه القيام بها وكفى . وهو ما عبّر عنه عندما قال ((إنَّ الدين هو وسيلة مواصلات فقط ، ولذلك يجب أن نبقى فيها بعض الوقت لا كل الوقت)) ولم يكن يرتاح للمتدينين لذلك قال : ((إنَّ حياة اليهود لو تُركت للحاخامات لظلوا حتى الآن كلابًا ضالة في كل مكان ، يضر بهم الناس بالأقدام . ويحتذى اليهود من أقدام الأغلبية الساحقة لهم في كل مكان بأحلام العودة إلى أرض الميعاد والأجداد وانتظار المسيح الذى سيهبط عليهم من السماء ليُنقذهم ويقوم لهم بكل العمل ، بينما هم يُصلون الفجر والعشاء ويكونون ليلاً ونهاراً)) (ص ٥٣ ، ٥٤) .

وقبل إعلان دولة إسرائيل بثلاثة أيام في ١٢ مايو ١٩٤٨ ثارت مناقشات حول صياغة مسودة إعلان قيام الدولة . حيث طلب بعض الحاخامات أن يتضمن النص فقرة توضح ((أننا حصلنا على الاستقلال بمساعدة الرب وبقوته الكبرى . وأن يتضمن النص الأخير اسم الرب والتأكيد على أنَّ ((أرض إسرائيل خاصة بالشعب اليهودى بمقتضى الدين اليهودى ووعد الرب لإبراهيم أبينا)) هذه المطالب تلقت معارضة عنيفة من بعض الأعضاء . أما بن جوريون فقد اختتم المناقشة بقوله ((يبدو لي أنَّ كل واحد ونحن جميعاً نؤمن كل حسب طريقته وحسب فهمه . إنَّ اليهودية فيها إفعال هذا ولا تفعل هذا . أما كيف نؤمن فهذا لسنا مأمورين به)) (ص ٤٧ ، ٤٨) .

في مقابل التيارات الدينية التى تؤيد الاستيطان الإسرائيلى وترفض أى حق للشعب الفلسطينى فى أرضه ، هناك تيارات دينية أخرى تحالف الأولى ، بل وترفض الصهيونية السياسية ، لدرجة الهجوم العنيف على مؤسستها (هرتسل) وأنصاره (ص ٢٣) وفى الباب الثالث ركزد . رشاد على الأحزاب الدينية المسيحانية المعارضة لدولة إسرائيل . وهذه الأحزاب تنتمى إلى اليهودية الأرثوذكسية المتشددة . وهم يؤمنون أنَّ الخلاص المسيحانى لا يمكن أن يتم بوسائل بشرية ، سواء كانت هذه الوسائل المال أو السلاح . وأنَّ الذين يُسمون أنفسهم بالصهيونيين

ومساعيهم الرامية إلى تأسيس دولة قومية يهودية في فلسطين ، تتنافى مع العقائد المتعلقة بانتظار مجيء المسيح في اليهودية. وأنّ بناء مملكة إسرائيل لا بد أن يتم على يد المسيح المنتظر، لدرجة أن يكتب أحد الحاخامات رسالة لصديق له عام ١٨٩٨ تضمّنت هجومًا حادًا على هر تسيل وصفه فيها بأنه قادم من ((الجانب الملوّث)) وأعلن المجلس الأمريكي لليهودية - وهو تنظيم مناوئ للصهيونية - ((إننا نعترض على إقامة دولة يهودية في فلسطين أو في أى مكان آخر، فتلك فلسفة انهماكية. لا تُقدّم حلاً عملياً للمشكلة اليهودية)) كما أنّ الأجيال المتابعة من هذا التيار الديني الرافض للصهيونية السياسية ، كانت ترى أنّ ((تحقيق هدف العودة سيكون على يد (يهوه القدير) نفسه الذى سيرسل المسيح المخلص للقيام بهذا العمل ، وليس ذلك من عمل شعب الله المختار كما نادى الصهيونية)) ويرى أعضاء (أجودات إسرائيل) أنّ الجهود لإقامة دولة يهودية في فلسطين هى اعتداء على سلطة المسيح واستعجال للنهاية غير مرغوب فيه)) بل إنّ حركة (نطوري كارتا) رفضت الاعتراف بالصهيونية وبدولة إسرائيل حتى اليوم ، وذلك لأنّ هذه الدولة قامت على يد نفر من الكفرة الذين حرّفوا مشيئة الله بعملهم وتناولوا على الرب بدلا من انتظار المسيح الموعود وتدخل الرب بصورة إعجازية ، فالمسيح المنتظر هو وحده القادر على إقامة الدولة ، حيث تكون مملكة الكهنة والقديسين)) ولذلك فإنّ غالبية هذا التيار لا يخدمون في الجيش الإسرائيلي ولديهم شبكة تعليم خاصة بهم و يقيمون في أحياء منفصلة عن الجمهور العلماني ، بل إنّ أحداث النازية ((وفقاً لهذا المنظور بمثابة عقاب من الرب وقصاص من أولئك الذين انتهكوا وصايا التوراة وأوامرها وسعوا للتشبه بالأمم والانصهار بها أولاً ثم بالتصميم على إنشاء دولة يهودية على غرار الدول الأخرى ثانياً)).

وبعد حرب يونيو ٦٧ طرأ تحول على مواقف معظم الأحزاب الدينية الصهيونية وغير الصهيونية ، حيث اعتبرت هذه الحرب معجزة وإشارة ربانية

لبداية الخلاص المسيحاني ، ورغم ذلك انطلق صوت أحد الحاخامات ليؤكد أنّ ((دولة إسرائيل ككيان صهيوني هي تعبير عن الكفر والتمرد على إرادة الله ، ولذلك فهي ليست تعبيرًا عن الخلاص . ولكن من ناحية أخرى فإنّ أرض إسرائيل تحت السيادة اليهودية تنطوي على مغاير دينية ذات أهمية ، ولذلك تدعو حركة (حبّد) إلى عدم التنازل عن أي من الأراضي التي احتلت عام ٦٧ وذلك من منطلق أحكام الشريعة الدينية. وفي المقابل فإنّ إحدى الجماعات الدينية عارضت هذا التفسير (الحبدي) وتساءل حاخامها ((كيف يغف الرب بجوار دولة كافرة وملحدة لتنتصر في الحرب ؟)) ورفض كل التفسيرات الإعجازية والربانية لانتصار إسرائيل (من ص ١٢٥ - ١٣٤) .

ويصل التناقض داخل التيارات الدينية لدرجة أنّ زعيم حركة (حبّد) الحاخام مناحم شنيورسون الذي يعيش في بروكلين بنيويورك ((لم يقم بأية زيارة لإسرائيل ولم تطأ قدماه أرضها ، ورفض بشدة الهجرة لإسرائيل رغم اعتقاده أنّ ((التوراة سبقّت العالم)) كما ركز في تعليماته على ((حب أرض إسرائيل)) ويرى أنه من دون هذا الحب لا يمكن على الإطلاق فهم وتطبيق التوراة وإقامة الفرائض . ويرى معارضوه أنّ امتناعه عن الهجرة يعود إلى عدائه للصهيونية ومعارضته لوجود دولة يهودية قبل مجيء المسيح وإنكاره أنّ تكون دولة إسرائيل ممثلة لليهود العالم . وأنّ حبه لـ (أرض إسرائيل) لا يعني اعترافه بدولة لإسرائيل التي تخالف أغلب نشاطاتها أحكام الشريعة. وهذا الحاخام كأي أصولي في أي دين ((يسعى دائمًا للتوفيق بين التوراة والعلم . ويؤكد على غياب أي تناقض بينهما ، لأنّ الله خلق العالم حسب التوراة)) وكأي أصولي في أي دين أيضًا ، عارض الإجهاض وتشريح جثث الموتى . كما انطلق من نظرة عنصرية في تفريقه بين اليهود وغيرهم من الشعوب فكتب ((إنّ الفرق بين اليهودي وغير اليهودي هو من النوع الذي ينطبق عليه التعبير السائد (لاوجه للتشبيه) إذ كيف يمكن البحث عن فرق بين شيئين من

مستويين مختلفين كلياً . ففى حين يجلس اليهودى فى المرتبة العليا وينحدر من الصنف الأسمى ، تقبع بقية الأمم فى الدرك الأسفل وتنحدر من أدنى صنف . وهكذا ترى أنه من العبث البحث عن وجه للشبه بينهما ، فإن الجسد اليهودى يختلف كلياً عن أجساد بقية الشعوب وذلك من حيث أكلهم وشربهم وطينتهم . وأن التشابه فى الأجساد فى المظهر الخارجى فقط ، إذ أن أصل أرواح شعوب العالم هو من طبقات النجاسة الثلاث ، بينما أصل أرواح بنى إسرائيل هو من الروح القدس)) .

وكتب د. رشاد أن هذا الخاخام رغم رفضه الهجرة لإسرائيل فإنه يُعتبر من الصقور السياسية ، إذ يعتقد أنه بالنسبة للأراضى المحتلة لابد من استيطانها دون أن تؤخذ فى الحسبان ردود فعل العرب أو غضب الولايات المتحدة الأمريكية . ومن رأيه أن على إسرائيل أن تُبدى موقفًا صلبًا غير متساهل فى علاقتها بالولايات المتحدة)) وبعد حرب ٦٧ أعلن هذا الخاخام ((أن على إسرائيل ألا تُعيد بوصة واحدة من هذه الأراضى . ويعتب على المسؤولين فى إسرائيل أنهم لم يستثمروا حرب يونيو بصورة أفضل ، إذ كان يجب عليهم الشروع فوراً بعملية استيطان واسعة فى هذه الأراضى الجديدة . وأن يغزو أراضٍ عربية جديدة واحتلالها ((لأنها ضرورية للمفاوضات المستقبلية ولأمن الدولة)) وقد تنبأ هذا الخاخام بحرب ٧٣ إلا أن تحذيراته لم تؤخذ على محمل الجد فى إسرائيل . وذكر يوسى ساريد العضو اليسارى فى الكنيست إثر تدخل هذا الخاخام لإسقاط الائتلاف برئاسة حزب العمل سنة ٨٨ ، أنه من الجنون أن يتحكم هذا الخاخام فى مصير الحكومات فى إسرائيل من خلال سيطرته على طائفته)) وهذا الخاخام يُعارض منح حكم ذاتى للفلسطينيين بشدة وقال : ((إن مجرد التحدث عما يتصل بالحكم الذاتى فيه تدنيس للرب وتدنيس للمقدسات)) وردد المقربون منه أن ((شامير لم يربعد نهاية المعركة التى ستدار ضده بوحى من هذا الخاخام اذا ما استمر فى المضى قدماً فى مشروع

الحكم الذاتى)) ويكثر هذا الحاخام من الاقتباس من التلمود ويقول ((سوف تمتد أرض إسرائيل إلى كل بلاد العالم)).

ركز مؤلف الكتاب د. رشاد الشامى على هذه الشخصية بمراعاة تأثيره فى اليهود ، ليس داخل الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل فقط ، وإنما لأن هذا التأثير وصل إلى كل المناطق التى يوجد فيها اليهود فى العالم ، بل إن الزعماء السياسيين والكتاب اليهود من إسرائيل والعالم يحجون إليه . ويخيط به خمسة وعشرون ألفاً من أتباعه بصورة دائمة . ويفرض عليه تزعمه لهذه الحركة اتخاذ مبادئ القرارات المهمة أسبوعياً وتنظيم ميزانيات المؤسسات المختلفة التابعة للحركة والتى تُقدر بمئات ملايين الدولارات . ويقوم أتباعه بطباعة تصريحاته وخطبه وتوزيعها فى نشرات وكتب بعد ترجمتها للغات عديدة . وفى المعبد القائم بجوار غرفته فى بروكلين يعقد جلسات تعارف ويسمع صوته آلاف فى الغرف المجاورة بواسطة أجهزة تكبير . وتصل أقواله إلى عشرات الآلاف الآخرين فى صورة أفلام مصورة . ولذلك فإنه يحظا بمكانة رفيعة بين الجمهور المتدين فى إسرائيل . وله كذلك تأثير ملموس على شخصيات من الـصف الأول فى إسرائيل ، حيث يُقيم اتصالات عن طريق المراسلات مع الوزراء وكبار الموثقين ، وبعضهم يستشيرونه فى موضوعات شخصية تماماً كما يستشيرونه فى القضايا العامة . بل إن شخصية مثل شمعون بيرس وشخصيات عسكرية مثل إريك شارون وأهارون ياريف وزعيم الليكود السابق مناحم بيجين كانوا معتادين على أن يؤموا بلاطه ويمثلون أمامه)).

وترجع أهمية التناول العميق لهذه الشخصية من جانب مؤلف الكتاب د. رشاد الشامى ، أنه رغم هذه المكانة الأسطورية لهذا الحاخام ، فإن دعوته لاقت معارضة شديدة ، خاصة عندما أعلن أنه (المسيح المنتظر) وأن هذه المعارضة لم تأت من العلمانيين فقط ، بل كذلك من بعض الأوساط الدينية الذين انفجروا فى الضحك وقالوا : لقد أصبح هذا الحاخام مهوساً وأن لديه خيالاً خصباً ، فهو مقتنع

بأنه المسيح . وزادت السخرية منه عندما صرح بأنه يشس من محاولاته لاستخدام المسيح . وأنه قام بما يجب عليه عمله . ولذلك فإنه هو الأنسب ليكون المسيح المنتظر . وعندما سُئل البرفيسور يشعيا هوليفو عن رأيه في هذا الحاخام قال إنه : ((إما مريض نفسياً أو محتمل . فهو يزرع آمالاً كاذبة في قلوب الجماهير ، لأنّ الإيهان بأيام المسيح كان يؤدي دائماً للإبادة . وكل مسيح هو مسيح كاذب)) (من ص ٢٧٠ - ٢٩٠) .

أما الحاخام (من سامطر) فقد نشر كتاباً عن المغزى الديني والروحي لحرب ٦٧ . وكان نصب عينيه مشكلة أنّ الإحساس العام الذي ساد بين الدينيين وكذلك بعض غير الدينيين ، أنّ الانتصار ينطوي على معجزة . وأنّ هذا الإحساس سوف يتسلل إلى معسكره . وقال : إنه إذا كان في الانتصار معجزة دينية ، فإنّ الاستتاج الذي يُستخلص هو أنّ الصهيونيين الذين لا يُحافظ معظمهم على الشرائع ، وهم جميعاً في نظره (مخربو شعب إسرائيل) قد جاءهم الخلاص من السماء . ومعنى هذا هو أنهم صادقون ودولتهم ليست دولة كفار . وعن موقف هذا الحاخام وحزبه الرافض لدولة إسرائيل ذات الطابع العلماني ، كتب المؤلف عنه أنه يرفض فكرة أنّ حرب ٦٧ وكل ما ترتب عليها ، إنما هو تعبير عن مساعدة الرب لشعب إسرائيل ، لأنّ هذا الشعب من المارقين عن الدين ولا يستحقون معجزة إلهية من الرب (لمساعدتهم) ويتفق أتباع حركة (نطوري كارتا) على معاداة الحركة الصهيونية والانعزال عن دولة إسرائيل ، لأنها قامت على يد نفر من الكفار الذين تحدوا مشيئة الله وإرادته بإعلان إقامة دولة إسرائيل بدلا من انتظار المسيح المنتظر المخول وحده بإقامة مملكة إسرائيل (من ص ٣١٣ - ٣١٧) .

ومن الأمور التي يتوقف الباحث أمامها أنّ هذه الحركة أدانت غزو إسرائيل للبنان عام ١٩٨٢ . كما أنه بعد أن صدرت قرارات المجلس الوطني الفلسطيني عام ٨٨ والتي أعلنت قيادة فلسطينية في الضفة والقطاع ، والاعتراف بإسرائيل عملياً ، فإنّ جماعة (نطوري كارتا) أيدت الإعلان عن قيام الدولة الفلسطينية . وفي نفس

الوقت احتجت على اعتراف منظمة التحرير الفلسطينية بإسرائيل . وإذا كانت الغالبية العظمى من الأحزاب الإسرائيلية تعتبر الكفاح الفلسطيني المسلح إرهاباً ، فإنّ (نطوري كارتا) ترى أنّ هذا الكفاح مشروع . ويقول الحاخام موشيه هيرش ((نحن ضد سفك الدماء . وأيضاً منظمة التحرير الفلسطينية ضد سفك الدماء . ونحن نؤيد حق الفلسطينيين في استرجاع ما أخذ منهم بواسطة القوة)) (من ص ٣٢٠ - ٣٢١) وقال أيضاً ((إذا كان هناك إهتمام وحرص من جانب الصهيونية تجاه اليهود ، فعليها إصلاح الظلم الذي سببته للشعوب الأخرى . وانتقد بقوة الحركات التي تحاول إجبار أتباعه على الخدمة في الجيش الإسرائيلي وقال : ((إنهم يريدون انضمامنا إلى آلة الحرب ضد العدو الذي أوجدوه خدمة لمصالحهم ، ولتوسيع سيطرتهم على مناطق تابعة لشعوب أخرى)) (ص ٣٢٤) ومن بين الأحزاب الدينية الأقل تطرفاً حزب (ديجل هتوراه) فذهب رئيسه بعد انتخابات عام ٨٨ إلى حد الموافقة ، ليس على الانسحاب من المناطق المحتلة فحسب ، بل على قيام دولة فلسطينية منزوعة السلاح . وأعرب عن استعداده لتأدية التحية لعلم هذه الدولة (ص ١٧٥) وأيضاً الحاخام سمحا بونيم رئيس مجلس كبار التوراة دعا عام ١٩٨٩ لإجراء محادثات سلام مباشرة بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية (ص ٣٣٨) .

مخاطر الأصولية اليهودية على المجتمع الإسرائيلي :

هذه التناقضات داخل التيارات الدينية في إسرائيل ، يواكبها تناقضات أخرى بين الأصوليين اليهود وبين العلمانيين . ويتمثل الصراع بين الطرفين في الموقف من طبيعة الدولة التي ينشدها كل فريق . فبينما يرى العلمانيون أنّ المواطنين متساوون في الحقوق والواجبات ، يرى الأصوليون العكس ويحرصون على التمييز الذي يُهدد أي مجتمع . ومن أمثلة ذلك الموقف من المرأة ، حيث لا يجوز زيارة النساء لحائط المبكى (ص ٧٨) ورفض السماح للمرأة باستخدام حمامات السباحة المشتركة (ص ١٦٣) ويُحظر على

النساء لبس الملابس القصيرة أو الشفافة أو الخروج دون جوارب تُغطي الساقين . وعلى المرأة حلق رأسها ، وعدم خروج صوت غناء النساء خارج البيت (ص ٢٩٤) وعندما تكون الزوجة في فترة الطمث فلا يجوز أن ينام زوجها معها في سرير واحد . وإذا ناما في سريرين منفصلين ، ولمس أحدهما الآخر ، فهذا حرام (ص ٣١١) .

وقد أخذ التطرف الديني مداه إلى درجة الضغط على الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة لاستصدار تشريع يُجرّم تربية الخنازير . وقانون آخر ينص على قداسة يوم السبت ، حيث لا يجوز تشغيل المواصلات العامة وإغلاق المحلات العامة (عدا المطاعم والملاهي) وعدم القيام بأى عمل مهما كان في مشروعات حيوية كثيرة ، مثل الموانئ وغيرها ، والمحافظة على الطعام الديني (الكاشير) وعدم تشريح جثث الموتى ، وعدم زواج أى كاهن من أية مطلقة (ص ٦١ ، ٦٢) ووصل الأمر إلى درجة أن تشكّل داخل حزب (مفدال) الديني تشكيل خاص بالمرأة أطلقوا عليه (كتلة المرأة المتدينة) (ص ١٠٤) وعلى الرغم من أن كافة الإسرائيليين ملزمون بأداء الخدمة العسكرية الإجبارية لمدة ثلاث سنوات ، فإن أعضاء المدارس الدينية التابع لمجلس كبار (علماء) التوراة معفون من أداء الخدمة العسكرية . وأيضاً الوقوف بكل حزم ضد تجنيد النساء في الجيش (ص ١٥٠ ، ٢٣٨) وفتر كثيرون من السياسيين والعلمانيين الإصرار على الإعفاء من الخدمة العسكرية على أنه هروب من خدمة الوطن ، بحجة دراسة الدين ، وهو الأمر الذى جعل بن جوريون يُردّد دائماً ((إننا نريد أمة من الجنود ، لا أمة من الكهنة)) (ص ١٥٨) .

ويتصاعد التطرف والتعصب إلى درجة أن أتباع الطائفة (الحريدية) واثقون من أنهم يملكون الحقيقة المطلقة في فهمهم وإطلاعهم على الكتب المقدسة ، وأن طريقهم هو الطريق الصائب الوحيد . كما أنهم يستخدمون وسائل (الإكراه الديني) والتدخل في حياة الآخرين ، وكل الوسائل بالنسبة لهم مشروعة ، بما في ذلك استخدام سلاح الاعتداء والمتفجرات ضد اليهود الآخرين الضالين . ويشنون حرباً

على الثقافة العلمانية للمجتمع الإسرائيلي . ويهاجمون دور السينما وحمامات السباحة المشتركة والصحف العلمانية ، مما يثير عنفًا مضادًا من جانب العلمانيين ، ولكنهم لا يترددون لاقتناعهم بأنهم يشنون حربًا مقدسة باسم الرب . ويقاطعون مدارس ومعاهد تعليم اللغات الأجنبية . ويصدرون تعليماتهم إلى أتباعهم بعدم الاشتراك في انتخابات الكنيست أو الانتخابات المحلية . وعدم تناول أى طعام أو شراب غير مصرّح به من قبل محكمة الطائفة . والإيمان القاطع بأن إقامة الدولة الصهيونية قبل قدوم المسيح المنتظر، إنما هو عقاب خطير من الله . وأن الكنيست (البرلمان الإسرائيلي) تدنيس لأوامر الله وإهانة للتوراة ، لأنّ قوانينه تتناقض مع شريعة موسى .. إلخ (من ص ٣٠١ - ٣٠٤) .

مقاومة الأصولية الدينية :

في مقابل التطرف الأصولي اليهودي ، فإنّ المجتمع الإسرائيلي يشهد أشكالاً من المقاومة لتحجيم دور هذه التيارات التي تسعى إلى إقامة دولة دينية في إسرائيل ، معادية للسلام وللعلم ولحقوق الإنسان ، من أمثلة ذلك بذل ((محاولات دائمة من أجل إفراغ الشريعة الدينية من مضمونها ، مثل عقد الزواج المختلط في جزيرة قبرص ، وعقد الزواج دون اشتراك أى حاخام في حالة المنع الدينى ، أو في حالة رفض عقد طقوس الزواج الدينية . وتقوم المحاكم المدنية بدور مهم جدًا في هذا الصراع ، حيث تتعرض أحكام الشريعة اليهودية (الهالاخاه) للانتقاد . ويتم التساهل مع كل محاولات الإلتفاف حولها وتجنبها ، والمثال الواضح على ذلك أنّ محكمة العدل العليا (الإسرائيلية) أقرّت مبدأ تسجيل من تزوّجوا مدنيًا أو مختلطًا

أو في احتفال مدنى في سجلات الزواج . كما حدّد المشروع في القوانين المتصلة بالأحوال الشخصية أنّ أحكامه ملزمة لكل من المحاكم المدنية والمحاكم الدينية . مثلما حدث بالنسبة لقانون (المساواة في الحقوق السياسية للمرأة) الذى صدر عام ١٩٥١ حيث لم يلتفت إلى حكم المحكمة الربانية التى أقرّت بعدم توافق هذا

القانون مع أحكام الشريعة اليهودية. كما أن هناك قطاعاً من الجمهور الدينى نفسه لا يعترف بالصلاحيات الشرعية اليهودية لهذه المؤسسة الدينية بصورة نسبية. كما أن اعتراف الدولة ب (الخاصية الرسمية) هو نوع من تحويلها إلى تنظيم تابع للدولة ، وبالتالي فهي خاضعة لإشراف محكمة العدل العليا التى تتدخل كثيراً فى أحكام (الخاصية) وفى انتخابات الخاصام الأكبر وتُخضع أعمال مجلس الخاصية لإشرافها. وبالنسبة للقوانين التى تتصل بأحكام (منع) وفقاً للشريعة اليهودية ، مثل أحكام يوم السبت وتربية الخنازير ، توجد قوانين تسمح بتجاوزها . كما أن الدوائر الطبية اعترضت على الأصوليين الذين يرفضون تشريح جثث الموتى ، واعتبرت أن هذه المطالب فيها مساس بمستوى البحث العلمى والخدمة الطبية. كما أن المغالاة الأصولية أدت إلى ارتفاع الأصوات التى تُطالب بأن يكون الزواج مدنياً . وضرورة فصل الدين عن الدولة. وهذا المطلب يريد مؤيدوه ، ليس الفصل الرمزي بين دولة إسرائيل كدولة يهودية وبين التقاليد الدينية اليهودية ، بل يُطالبون أساساً بالفصل على المستوى الرسمى والقضائى . وقد ترتب على ازدياد التوتر الدينى وازدياد تدخل رجال الدين فى شؤون الأفراد فى حياتهم اليومية ، ترتب على ذلك تكوين رابطة لمنع (الإكراه الدينى) تأسست عام ١٩٥٠ وقد أقامت هذه الرابطة فروعاً لها فى المدن الثلاث الكبرى . وفى عام ١٩٦٠ جددت الرابطة نشاطها بعد سلسلة من الأزمات الدينية وعلى الأخص بعد طرح مشكلة (من هو اليهودى ؟) وكثفت الرابطة عملها فى خريف ١٩٦٣ حيث نظمت مظاهرة فى القدس ضد العنف المتزايد من المتدينين . وسارت فى هذه المظاهرات جماعات كثيرة من الشباب العلمانى وهم مسلحون بالعصى إلى حدود الأحياء الدينية. وإذا كان نشاط هذه الرابطة تعرض لاهتزازات كثيرة ، إلا أن تأثيرها كان كبيراً ، وكانت رمزاً إلى حد ما للاتجاه المتزايد من أجل خلق ثغرات عميقة بين المعسكرين الدينى واللادينى فى إسرائيل (ص ٥٩ ، ٦٤) كما أن إعفاء طلبة المعاهد الدينية من الخدمة العسكرية مثار اعتراض ومقاومة دائمة من

الأحزاب العلمانية وبصفة خاصة اليسارية في الكنيسة (ص ١٥٤) كما أنّ زعماء كل من المعراخ والليكو لا يحافظون على شرائع الدين ويأكلون لحم الخنزير علناً في المطاعم داخل البلاد وخارجها (ص ٢٣٣، ٢٣٤).

وكتب الأديب الإسرائيلي عاموس عوز عن الشباب المتدين ووصفهم بأنهم ((حقى ومجانين تحرقهم أنوار النبوءة . أولئك الذين كانوا يعتقدون أنهم خلّقوا ليُصلحوا العالم . وكان كل واحد منهم يعتقد أنه هو نفسه (المسيح المخلص) المنتظر الذي سيخلص اليهود من آلامهم . وفي سبيل هذا الاعتقاد فهو على استعداد دائم لصلب معارضيهِ ، ليصلب هو نفسه في النهاية)) وأضاف ((من مفارقات القدر أنّ مليارات الدولارات التي تُقدّم سنوياً إلى تلك الدولة التي تقول بطاقة هويتها أنها ديموقراطية ومستنيرة وتقدمية ، تصل إلى هذا المجتمع المغلق الذي زرته (زار الكاتب حي جيثولا بالقدس الغربية) والذي يوجد على غرار مجتمعات أخرى في إسرائيل ، تنتمي إلى عصور سحيقة . وتبدو - بالنسبة لها - القضايا اليومية في الحياة الإسرائيلية - كالحرب والتضخم والرقابة وحزب العمل والمستدروت (اتحاد العمال) إلخ وكأنها رمال متحركة . أما الثابت لديها فهما هتلر والمسيح (من ص ٣٠٨ - ٣١٠) هذا المشهد الذي رصده الأديب عاموس عوز الذي يتأسى فيه من تغلغل الأصولية الدينية ، يستدعى إلى الذاكرة كما ذكر المؤلف النظرة التي سادت الدولة الإسرائيلية في سنواتها الأولى ، التي كانت ترى أنّ الدين هو أمر متخلف لابد من محاربته (ص ١١٩) ولعلّ هذا ما دفع الصحفي الإسرائيلي شالوم كوهين أن يناقش خطورة الأصولية الدينية التي تُهدد المجتمع الإسرائيلي في كتابه (الرب برميل بارود - إسرائيل ومتطرفوها) (ص ٣٧٩) .

هذا الصراع بين التيارات العلمانية والتيارات الدينية المؤجج داخل المجتمع الإسرائيلي ، غائب تماماً عن خريطة الإعلام العربي ، إذ بينما يُحذر كثيرون من الكتاب الإسرائيليين من أنّ ((إسرائيل قد تتطور إلى دولة تفرض فيها المؤسسات

الدينية والدوائر الدينية طابعها بشكل عام في مجالات الحياة)) فإن كاتباً آخر يُخالف تلك النظرة فكتب ((على الرغم من الادعاءات بشأن (الصحة الدينية) فليست هناك دلائل وحقائق تُشير إلى ازدياد حجم القطاع الديني ، كذلك فإن البيانات الخاصة بعدد التلاميذ في التعليم الديني لا تُشير إلى هذا التحول (ص ٤٠ ، ٤١) وكتب آخر ((إن دولة إسرائيل ليست دينية وليست لادينية. ولكنها معروفة بين الجمهور على أنها لادينية. ومن الناحية الوظيفية فإن الدولة ومؤسساتها وخدماتها تُدار بشكل عام بما لا يتوافق مع شرائع الدين اليهودي . واجدير بالذكر أنه ليس في الشريعة ولا لدى أصحاب الشريعة طريقة لإدارة خدمات الدولة المعاصرة مثل الجيش والشرطة والمواصلات إلخ . كما أنه ليس لدى علماء الدين أى اهتمام بهذه الأمور)) (ص ٤٦) أما الباحثان (موشيه ليسك) ، (دان هوروفيتس) فكتبوا ((إن أخطر صدى يُهدد الهوية الثقافية للمجتمع الإسرائيلي هو الصدع الديني / العلماني ، وهو من شأنه أن يزداد حدة في المرحلة المقبلة أكثر من أى مرة في الماضي . إن القطاع الحريدى وصل إلى قوة ديموجرافية واقتصادية ، جعلته قطاعاً مستقلاً ذاتياً . وهو يوجد بصورة استبدادية ويتلقى أموالاً من الحكومة . وأن هذا القطاع أصبح دولة داخل الدولة. وبالتالي فإنه يوجد في إسرائيل شعبان لا يمكن أن يعيشا معاً . والخطر الذى ينطوى عليه هذا الأمر هو إدخال الدين في السياسة (ص ٣١١ ، ٣١٢) .

أما هرتسل فهو عندما كان يُشجّع اليهود الأوروبيين على الهجرة إلى فلسطين قال لهم ((لدى خروجنا من مصر مرة أخرى ، لن ننسى خلفنا قدور اللحم)) وهوهنا يُذكر اليهود بموقف جدودهم الذين ندموا لأنهم استجابوا لكلام موسى وهارون وخرجوا من مصر وتدمروا وعاتبوها قائلين ((ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم ونأكل خبزاً حتى الشبع . فإنكما أخرجتنا إلى هذا القفر لكى نُثمتا كل هذا الجمهور بالجوع)) (خروج ١٦ : ٢) والمعنى عند هرتسل كان مزدوجاً : فهو يقول لليهود المعاصرين له : إنكم لن

تجوعوا في فلسطين كما جاع جدودكم بعد خروجهم من مصر. وكذلك فإنكم بعد استيطانكم أرض إسرائيل سوف تظلون أوروبيين . وهذا ما عبر عنه عندما قال ((إن دولة اليهود سوف تُصبح بمثابة سويسرا صغيرة في قلب الشرق الأوسط)) (ص ١٨) ولكن ها هو الواقع يُكذب الصورة التي حلم بها وتمناها هرتسل ، إذ تحوّلت إسرائيل بفضل الأصوليين اليهود الذين يسعون إلى مزيد من التوسع ورفض إقامة الدولة الفلسطينية ، ومعاداة أنصار السلام ، وتهديد كل شعوب المنطقة بعدم الاستقرار، تحوّلت سويسرا الصغيرة في قلب الشرق الأوسط في حلم هرتسل ، إلى ساحة للقتال والصراع وعدم الاستقرار. وبينما يرفض الأصوليون في إسرائيل وفي فلسطين وفي كافة الدول العربية نداء السلام ، لا يعلو صوت فوق نعيق الغربان .



الفصل الرابع الشخصية اليهودية والتراث العبري

ساعدت بريطانيا ثم الولايات المتحدة الأمريكية ، الصهيونية في احتلال فلسطين . ولم يكتف اليهود بذلك وإنما مارسوا أبشع أنواع القتل وتشريد الفلسطينيين . وشنوا الحروب ضد شعوب لبنان والأردن وسوريا ومصر . إزاء هذه الإستراتيجية الدموية ، كان لابد من دراسة الشخصية اليهودية ، ولماذا تميل إلى العنف وترفض السلام ؟ للإجابة عن هذا السؤال ، كان الكتاب المهم (الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية) تأليف د. رشاد عبدالله الشامي - الصادر عن سلسلة عالم المعرفة الكويتية - العدد ١٠٢ - يونيو ١٩٨٦ .

بدأ المؤلف كتابه بتأصيل مرجعية اليهود العقلية والنفسية ، المستمدة من التوراة . وضرب مثالا بموقف العبريين من المصريين القدماء ، وفقاً لما جاء في سفر التكوين ٤٧ عندما جاء يوسف إلى مصر ، حيث استقبله الفرعون (= ملك مصر) وقال له : أبوك وإخوتك جاءوا إليك . أرض مصر قدامك . في أفضل الأرض أسكن أباك وإخوتك . ليسكنوا في أرض جاسان (الشرقية حالياً) ماذا حدث بعد أن حصل يوسف

والعبريون على هذا الكرم ؟ كتب المؤلف أن فرعون مصر كلّفهم ((بالعمل كسائر المصريين في الزراعة وصناعة البناء ، اللتين كانتا الصناعتين الرئيسيتين ، فاعتبروا هذا التكليف عبودية . وجعلوا (يهوه) إلههم يُنكّل بالمصريين في صورة عمليات انتقامية بشعة ردًا على جيل الإقامة لخمسة قرون نعموا خلالها بخيرات مصر . وهى الخيرات التى ندموا على تركها عندما عانوا الأهوال والجوع والتشرد في التيه)) (ص ١٢) .

إنّ هذا الندم جاء في اعتراف اليهود الصريح ، إذ ورد في العهد القديم ((فعاد بنو إسرائيل ويكوا وقالوا من يُطعمنا لحمًا . قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله في مصر مجانًا والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم)) بل إنّ بنى إسرائيل يُعاتبون إلههم وقالوا له ((أليس خيرًا لنا أن نرجع إلى مصر)) (عدد ١١ : ٤-٦ ، ٢٠ ، إصحاح ١٤ : ٣) .

أما الجرائم التى ارتكبها اليهود ضد الشعب الفلسطينى في القرن العشرين ، فهى مستمدة أيضًا من كتابهم المقدس . وأنّ ((رب اليهود لا يكتفى بالقرايين من الحيوانات ، ويُلزم اليهود بالقرايين البشرية لإرضائه . ومن هنا كانت العادة اليهودية بذبح الأطفال واستنزاف دماهم لعجيز فطائر عيد الفصح)) (ص ١٥٠) وضرب المؤلف مثالا بذلك بما ورد في سفر الخروج ١٢ : ٢٩ إذ جاء فيه ((فحدث في نصف الليل أنّ الرب ضرب كل بكر في أرض مصر . من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذى في السجن وكل بكر بهيمة)) وقال المؤلف : إنّ شهوة القتل (حتى قتل الأطفال) مستمدة من التوراة فكتب ((حينما انتصر جند موسى على المديانيين وجاءوا بالسبايا والغنائم قال لهم موسى « فالآن أقتلوا كل ذكر من الأطفال » (عدد ٣١ : ١٧) ويخلص المؤلف من قراءة العهد القديم إلى أنّ إله العبريين هو ((الذى كان يوحى إلى موسى بخطط الحرب والخديعة ، فيأمره بالتجسس وجمع المعلومات قبل الهجوم على أرض كنعان . وهذا ما ورد في

سفر العدد ١٣ : ١ حيث نصّ على ((ثم كلم الرب موسى قائلاً إرسل رجلاً ليتجسسوا أرض كنعان التى أنا مُعطيها لبنى إسرائيل)) والتحريض على قتل الأطفال وسبى النساء وحرق المدن والسرقة والوعد بإحتلال أراضى الغير، مثل أراضى المصريين وأراضى الكنعانيين ، كل ذلك ورد بالتفصيل فى معظم أسفار العهد القديم . وكتب د. رشاد ((إنّ التوراة تطبع العقيدة الإسرائيلية برباط وثيق بين (حرب إسرائيل) و (رب إسرائيل) حيث يُصبح هذا الرب هو (رب الجنود) الذى يُمهد لبنى إسرائيل السبيل لتحقيق مآربهم فى الغزو والإحتلال وطرده (الشعوب)) (١٦٨، ١٦٩) .

هذا الموقف العدائى من الشعوب المتحضرة المستقرة ، جعل كثيرين من المفكرين يُوجّهون نقدهم إلى التراث العبرى ، فىرى المؤرخ توينبى أنّ ((اليهودية هى أقبح أمثلة عبادة الذات)) وبعد مذبحه ديرياسين وجّه نقدًا شديدًا ضد بنى إسرائيل فقال : ((إنّ الدرس الذى استخلصه اليهود من مواجهتهم مع النازى قادهم ، لا إلى تجنب الجرائم التى ارتكبها النازيون ضد اليهود ، بل إلى تقليدها)) (ص ٢١ ، ١٨٨) أما العالم الكبير فرويد فوصف (رغم أنه موسى الديانة) ادعاء اليهود بأنهم شعب الله المختار بأنه خرافة مطبقة . وأنّ اليهود أخذوا عن المصريين عاداتين ، كانوا يميّزون بهما ، ونسبها اليهود لأنفسهم . وهما عادة الختان وتحريم تناول لحم الخنزير)) (ص ٣٧) أما فولتير - أحد رواد التنوير الكبار - ((كان يعتبر اليهود من آثار السامية البدائية)) وقال عنهم : ((إنك لتجد فيهم مجرد شعب جاهل ومتوحش ، زاول لمدة طويلة أخس أنواع البخل وأبغض أنواع الخرافات . ويحمل كراهية لاتعادها كراهية لكافة الشعوب التى تساحت معه وكانت سبباً فى ثرائه)) (ص ٤٠) .

فى فصل شتيق عرض المؤلف حركة التنوير اليهودية (المسكالاه) التى استهدف مؤسسوها القضاء على نظام الجيتو، أى القضاء على العزلة التى فرضها اليهود على أنفسهم فى المجتمعات التى يعيشون فيها . وأنّ الحل هو الاندماج داخل المجتمع ،

بحيث يكون التركيز على صفة المواطنة ، وليس على أساس الانتماء الدينى . وبالفعل حققت هذه الحركة نجاحًا ملحوظًا في البداية لدرجة أن ((تفجرت في كل ناحية هتافات مثل « لنخرج من الجيتو » ، «لنقترب من الشعوب» ، « لتتعلم لغاتهم» وكان رواد الحركة يرون أن النجاح الحقيقى لن يتحقق إلا ((إذا تمكن اليهود من اكتساب مقومات الحضارة الغربية العلمانية)) ولذلك وجهوا سهام نقدهم إلى التراث الدينى اليهودى المغرق فى الغيبية اللاتاريخية فهاجموا فكرة (المسيح المخلص) وأسطورة العودة . وهاجموا التلمود . وحذفوا كل الصلوات التى تدعو للعودة إلى صهيون أو إحياء مملكة إسرائيل . ووصل كثيرون من دعة الاستنارة اليهودية ، ليس إلى حد إنكار القومية اليهودية فحسب ، بل إلى حد إنكار الدين اليهودى ذاته)) (ص ٤٢ ، ٤٣) .

وبكل أسف فإن حركة التنوير اليهودية التى حققت نجاحًا فى غرب أوروبا ، فإنها جوبهت بمقاومة شديدة فى شرق أوروبا ، وانتهت الحركة بالفشل ، وبالتالى فشل الحل الاندماجى ، بمعنى أن يصبح اليهودى الهولندى والإنجليزى والأمريكى إلخ مجرد مواطن هولندى أو إنجليزى أو أمريكى ، يهودى الديانة ، مثله مثل المواطن مسيحى الديانة ، ويكون الولاء للوطن قبل الولاء للدين ، أى يندمج فى الوطن الذى يعيش فيه ، وتكون له نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات . وقد امتلأ أدب حركة التنوير اليهودية بالتعبيرات التى تعاملت مع الدين اليهودى بصرامته وقيوده المتزمته باعتباره حائلا دون سعادة الإنسان . وكتب الأديب يهودا ليف جوردون ((كن يهوديًا فى بيتك وإنسانًا خارج بيتك)) ورغم كل هذه الجهود فشلت حركة التنوير اليهودية ، بسبب يهود شرق أوروبا ، بالإضافة إلى عوامل أخرى مثل ((ازدياد موجة معاداة السامية ، وحادثة اغتيال القيصر الكسندر الثانى فى مارس ١٨٨١ وإتهام أحد اليهود بقتله . ونشوب موجة من الاضطهاد ضد اليهود فى روسيا (من ص ٣٩ - ٤٩) ثم جاءت الحركة الصهيونية التى وظفت

الدين من أجل العودة إلى أرض الميعاد وقاومت فكرة الاندماج ، وروجت ومولت تهجير اليهود من أوطانهم ليحتلوا أرض الشعب الفلسطيني .

رصد المؤلف هجرات اليهود إلى فلسطين ، فذكر أن الهجرة الأولى بدأت واستمرت من عام ١٨٨٢ - ١٩٠٣ والهجرة الثانية من ١٩٠٤ - ١٩١٤ والثالثة من ١٩١٩ - ١٩٢٤ والرابعة من ٢٤ - ١٩٣١ والخامسة من ٣٢ - ١٩٣٨ (ص ٨٦ ، ٨٧) وأن الكاتب الصهيوني (آحاد هاعام) كتب في عام ١٨٩١ ((نحن في الخارج نظن أن فلسطين صحراء برية. غير مزروعة. وأن أى شخص يستطيع أن يشتري من الأرض حسب رغبته)) وبعد عشرين عامًا قال ((إن كثيرين من أهالى فلسطين الذين أخذ وعيهم القومى فى النمو، ينظرون شزراً إلى بيع الأراضى (للغرباء) ويعملون جهدهم لوقف هذا الإثم)) (ص ١٧٩) وذكر المؤلف أن الصهيوينيين ((حاولوا مساندة الحكم البريطانى لمدة تكفى لزيادة عددهم ولشراء المزيد من الأرض)) (ص ٢٢٧) وأن ((أول إحتجاج فلسطينى رسمى ضد التدخل الصهيونى كان فى ٢٤ / ٦ / ١٨٩١ عندما بعث بعض وجهاء القدس عريضة إلى القسطنطينية يطالبون فيها بمنع اليهود من دخول فلسطين وشراء الأراضى فيها ، فما كان من الحكومة العثمانية إلا أن أصدرت قوانين تمنع الهجرة اليهودية. ولكن إحتجاجات الدول الأوروبية حدثت من تلك القوانين)) (ص ٢٥٨) .

وعن الموازيك الذى يحكم الشخصية اليهودية ، وبالتالى الخريطة السكانية للمجتمع الإسرائيلى ، تحدث المؤلف عن تقسيمات اليهود داخل إسرائيل : القسم الأول هم مجموعة اليهود (الإشكنازيم) التى هاجرت من أوروبا إلى فلسطين ، وهذه المجموعة ((تحتل قمة الهرم الاقتصادى الاجتماعى . وتسيطر على كل مراكز القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية . وترى ضرورة أن يرتبط تاريخ إسرائيل بتاريخ وثقافة وتراث اليهود فى أوروبا ، بحيث يسود الطابع الحضارى الغربى دولة إسرائيل ، باعتبار أن المؤسسين ينتمون إلى هذا الطابع الحضارى

ويحرصون على استمراره ، رغم موقع إسرائيل في الشرق الأوسط)).

المجموعة الثانية هم اليهود (السفارديم) الشرقيين من عرب ومغربية إلخ وهم لم يُعانوا الاضطهاد كما حدث لليهود أوروبا ، وهاجروا إلى فلسطين تحت تأثير الحركة الصهيونية ، وأملا في مستوى معيشي أفضل من الذي كانوا يعيشون فيه في بلادهم . والملفت للإنتباه كما ذكر المؤلف أن هؤلاء اليهود السفارديم (ومعظمهم عرب) تحولوا - نظراً لثقلهم النسبي في العملية الانتخابية منذ عام ١٩٧٧ - إلى التصويت لصالح اليمين المتطرف الذي يُمثله حزب (ليكود) وأتاحوا الفرصة لليمين الإسرائيلي أن يتولى الحكم لأول مرة في تاريخ إسرائيل ، ولفترتين متتاليتين (انتخابات ٧٧ ، ١٩٨١) وأعطوا الليكود ٧٢٪ من أصواتهم في يوليو ١٩٨٤ . وعن شخصية اليهود العرب ذكر المؤلف ((لقد ترتب على الظروف التي غادر بها اليهود البلاد العربية ، في إطار من التضخيم الإعلامي الصهيوني للكرهية العربية هؤلاء اليهود من ناحية ، ولعدم وجود خطة استراتيجية عربية واضحة بشأن مستقبل اليهود في المنطقة من ناحية أخرى ، ترتب على هذه الظروف أن تولد الإحساس لدى اليهود السفارديم بأن الاختيار المقروض عليهم هو بين الاندماج في المجتمع الإسرائيلي وقبول قيمه ومفاهيمه كما هي ، أو الذبح والطرد على يد العرب في حالة انتصارهم على إسرائيل ، ولذلك فهم أكثر استعداداً لقبول النظرية الفاشية التي تجعل من الفلسطينيين والعرب عموماً كبش فداء . وقد أصبح من الشائع أن السلوك السفاردي يُجسّد الحقد العميق للعرب . وأنهم أكثر من كافة الإسرائيليين تزمناً وحباً للحرب وتجسيداً للروح العدوانية الإسرائيلية وأثر سهم مساندة لمبدأ ضم الأراضي العربية المحتلة. وردّوا أكثر من مرة بأنهم أتوا بمناحم ييجين للسلطة في مايو ١٩٧٧ لأنه هو وجيله يُجسّدون العداء للعرب بأشد ما يكون التصلب والعناد (من ص ٨٩-١٠١) .

ولأن المؤلف عالم كبير ومتمكن من مادته عن الشخصية اليهودية ، لذلك ربط

ما سبق عن شخصية اليهود السفارديم بموقف اليهود الاشكناز منهم ، في تطور دراماتيكي عن هذا المجتمع الموازيكي ، فكتب إن الاشكناز ينظرون إلى اليهود العرب ((باعتبارهم إسفين الحضارة العربية المتخلفة المزروع داخل المجتمع الإسرائيلي . وأنهم سيكونون ، في حالة حدوث سلام مع العرب ، أقدر الفئات الإسرائيلية قدرة على فهم العرب والتعايش معهم . وأن هذا الأمر يهدد أساس الوجود الإسرائيلي كدولة تُعتبر امتدادًا طبيعيًا للحضارة الغربية)).

المجموعة الثالثة هي اليهود (الصباريم) أي الذين وُلدوا على أرض فلسطين ، ولا يعرفون لهم وطنًا آخر سوى إسرائيل بعد قيامها . وأن ارتباطهم بإسرائيل ليس نتيجة اعتقاد أيديولوجي أو إيمان بالصهيونية ، ولكن ببساطة لأنهم وُلدوا على هذه الأرض ، وليس لديهم عقدة اضطهاد مثل آبائهم ، وأنهم يضعون إسرائيل قبل يهوديتهم ، حيث يعتقدون أنهم وُجدوا ، ليس على أرض يهودية وإنما على أرض إسرائيلية . وهذه الشخصية العبرية الجديدة (الصبار) تحترق يهود الجيتو . ويرفضون شخصية (رجل الجيتو) ويشعرون أنهم أقرب إلى (الشعب السليم) في جسده وروحه عن ذلك اليهودي المعقد في الجيتو ، كوصمة عار لليهود أوروبا ((الذين ساروا كالشاة إلى المذبحة)) وفي أدب الأطفال نجده يمتلئ بأوصاف كل من (الصبار) و (اليهودي الجيتوي) حيث صورة الصبار (الراقى) والجيتوي (المنحط) وأن الصبار يعتبر نفسه (ابن البلد) وأنه عبري وليس يهوديًا . والشخصية الصبارية تضيق ذرعًا بتدخل الحاخامات في حياة الناس الخاصة ، لذلك يأكلون لحم الخنزير علانية (من ص ٩١ - ١٢١).

وعن الفرق بين اليهود الشرقيين والغربيين ذكر المؤلف ((كانت هناك تناقضات هامة بين الاثنين . فاليهود الشرقيون كانت حياتهم الجديدة في إسرائيل تُمثل إنجازًا لتراثهم اليهودي ، لكنها بالنسبة لمعظم اليهود الغربيين تُمثل نبذًا لماضيهم اليهودي)) (ص ١٩٨) ولعل ذلك ما جعل المهتمين بدراسة الشخصية

اليهودية داخل إسرائيل ، أن يُفترقوا بين اليهودى المتمسك بالدين واليهودى المتمسك بإسرائيل ، وهو ما عبّر عنه المؤلف قائلا ((اليهود يريدون العيش وفقًا للتوراة. أما الإسرائيليون فهم يؤمنون بالتراث اليهودى اسمًا ، ولكنهم فى داخل أعماقهم يريدون أن يُصبحوا شعبًا جديدًا مختلفًا ، أن يكونوا تابعين للحضارة الغربية ، وتُصبح (أرض الميعاد) مجرد (صدقة تاريخية) وعن اليهودى الغربى المؤمن بإسرائيل الرافض للديانة العبرية كتب إسرائيل هارل ((لقد أصبحت مشكلة الإسرائيليين أنهم لا يؤمنون بأية حقيقة مطلقة.. والإسرائيلى المتأثر بالحضارة الغربية، يؤمن بنسبية الحقيقة وأن لكل عملة وجهين)).

فى داخل هذا الموازيك الذى يُشكل الشخصية اليهودية فى إسرائيل ، نشأت جماعة (الكنعانيين) الذين يرون أن الجنسية الإسرائيلية ليست مرتبطة بالتصور الصهيونى ، ويُطابقون بين الجنسية والمواطنة. ويرون ضرورة تحرير العبريين من يهوديتهم ، والعرب من إسلامهم . وإقامة دولة علمانية واحدة فى كافة منطقة الهلال الخصيب دون فرق بين اليهود والعرب ، بالعودة إلى الأصل الثقافى العبرى القديم ، استنادًا إلى أن العرب سكان البلاد هم أحفاد اليهود القدماء . وأعضاء هذه الجماعة لا يشعرون أنهم يهود . وأن الجيل السابق عليهم جعل الدين مكروهاً لديهم. وأن التاريخ اليهودى عبر ٢٥٠٠ سنة غير مُلزم لهم . ويرون أن اليهود ليسوا شعبًا متجانسًا ، إذ فيهم الآسيوى والإفريقى وما بينهما من اختلاف عن اليهودى الأوروبى . وإذا كانوا يرفضون الدين العبرى ، فإنهم يرفضون أيضًا أن يكونوا صهاينة (ص ٩٣ ، ١١٥ ، ١١٦).

فى فصل ممتع تحدّث المؤلف عن افتقاد الشخصية اليهودية للجذور، لذلك حدث ولع لدى معظم الإسرائيليين بالآثار. والسبب كما ذكر المؤلف ((علماء الآثار فى إسرائيل محترفون وهواة لا يحفرون من أجل الخبرة الفنية والاكتشافات ، بل ليُفَرّقوا من جديد جذورهم التى يرونها فى المخلفات الإسرائيلية العتيقة. ومن هنا

فإن ضمايرهم في أعماق الماضي تتأثر بمصالح الحاضر الإسرائيلي ومشاعره. ولا غرابة في أن يكون أشهر الهواة هو موشيه ديان . وكتب (روى لجثولا) : ((إنني أبحث عن أرض إسرائيل القديمة)) وقال (ييجال يادين) رئيس الأركان الأسبق ((لقد أصبح الإيمان بالتاريخ لدى الشباب بديلا عن الدين . إن علم الآثار الوطني يُكرّس جهوده لتحقيق الماضي العبري للبلاد)) وكتب (جون لافين) إن التنقيب بالنسبة للإسرائيليين هو نوع من تأكيد الذات ، لأنه يُمثل ماضيهم . وأن علم الآثار القديمة يُقدّم لهم الدليل المادي لوجودهم في إسرائيل كشعب . وذكر د. رشاد معلومة مهمة وهي أن الإهتمام بعلم الآثار بدأ عام ١٩٢٠ (أى قبل قرار التقسيم في عام ٤٧ وإحتلال فلسطين في عام ١٩٤٨) وفي عام ١٩٤٧ كان علم الآثار قد نما تماما ، إذ بفضل راعى شاب كان يبحث عن معزة شاردة ، تم اكتشاف برديات بحر الميت . وأن هذه البرديات تم شراؤها من تجار عرب . وقد أعلن رئيس الوزراء آنذاك نبأ شرائها في بيان رسمي في الكنيسة وهي تشتمل على كتابات خطية من القرن الأول لسفر أشعيا ، وهو أقدم من أية نسخة خطية عبرية للعهد القديم . وفي الفترة من ٦٣ - ١٩٦٥ قام البروفيسور ييجال يادين بحفائر شاملة في (متسادا) وقام بمعاورته آلاف المتطوعين من إسرائيل ومن خارجها . وكان هؤلاء يحسون أنهم يقومون بعمل مقدس . وكتب يادين ((إننا لم ننجح في تنفيذ هذه المهمة الصعبة إلا عندما تقدّمت جموع المتطوعين من البلاد)) وقامت إسرائيل بترميم المكان وإعادة بناء (المتسادا) جزئيا . وأصبح من السهل الوصول إلى المكان بالقطار المعلق (التلفريك) وتزوره جموع السائحين كل سنة. وتُقام حفلات دائمة تُمثل الترابط بين السياسة وعلم الآثار في التاريخ الإسرائيلي الحديث . ويصل الأمر لدرجة أن يستعير يادين عبارة نابليون أمام الأهرام في مصر عندما خاطب جنوده قائلا ((إن أربعين قرنا من التاريخ تتطلع إليكم)) يستعير يادين هذه العبارة وهو يتمنى لو أن نابليون قالها في إسرائيل (من ص ١٢٦ - ١٣٢ ، ١٦٠) .

ولكن هذا الولع بالآثار الذي وُحِدَ الإسرائيليّين ، لم يمنع التمزق داخل الشخصية اليهودية ، خاصة وأنّ الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة لم تتمكن من تحقيق السلام ، لامع الفلسطينيين ولا مع الدول المجاورة لها . ولذلك يشعر المواطن الإسرائيلي أنه في حالة حرب دائمة ، خاصة وأنّ نظام التجنيد تسبّب في (عسكرة المجتمع الإسرائيلي) (ص ٢٠٥ وما بعدها) بل إنّ التوراة بصفتها المرجعية الدينية للإحتلال وتبرير شريعة العنف ، تُدرّس في المدارس بوصفها مادة تاريخ قومي (ص ١٩٩) كما أنّ الكثيرين تأثروا بمقولات الزعماء أمثال بن جوريون الذي قال ((لايهم ما تقوله الشعوب الأخرى ، بل المهم هو ما يفعله اليهود)) (ص ١٤٤) وقال أيضًا ((بالدم والنار سقطت يهودا ، وبالدم والنار ستقوم يهودا)) (ص ٢٠٦) أما زائيف جابوتنسكى فقال ((السيف والتوراة قد نزلا علينا من السماء)) (ص ١٨٢) .

وقد عبّرت عالمة النفس الإسرائيلية عاميا لبليخ عن هذا الواقع بقولها ((إنّ الحرب في إسرائيل جزء من الماضي ، ومن الحاضر ومن المستقبل . ويسأل الإسرائيلي نفسه : هل يُسعدني الحظ في الحرب القادمة وأنجو كما نجوت في الحرب السابقة ؟ أما الأديب الإسرائيلي ساميخ يزهار فقال ((كان الإحساس التراجيدي لأبناء هذه الأجيال ، هو أنّ الحروب قد فُرضت عليهم دون أن يُعطى لهم خيار

أو سيعطى لهم)) وعن هذا الكابوس الوجودي الذي حوّل المجتمع الإسرائيلي إلى ثكنة عسكرية ، كتب الشاعر الإسرائيلي يعقوب باسار ((الحرب المقبلة.. نُشئها.. نُربّيها.. ما بين حجرات النوم.. وحجرات الأولاد)) أما الأغنية التي شاعت بعد حرب يونيو ٦٧ فهي التي كتبها الشاعر الإسرائيلي حانوخ لفين وتقول كلماتها ((حين ننتزه نكون ثلاثة : أنا وأنت والحرب القادمة.. وحين ننام نكون ثلاثة : أنا وأنت والحرب القادمة)) (من ص ٢٤٢ - ٢٤٦) .

وسط هذا المناخ المؤسس على شريعة القتال والطمع في أراضي الشعوب

المستقرة منذ آلاف السنين ، تبرز بضعة أصوات إسرائيلية راغبة في تحقيق سلام يضمن الاستقرار . وأنّ هذا الاستقرار لن يتم إلا بعد الاعتراف بالشعب الفلسطيني وتمكينه من إقامة دولته المستقلة بعيداً عن أى تحرش إسرائيلي . من بين هذه الأصوات من يمتلك ضميراً حياً فيكتب مؤكداً أنّ ((الوطن الإسرائيلي لم يقم لا بالحق، ولا بالتاريخ ولا بالهروب من الاضطهاد ، بل بالعنف وحده . نعم بالعنف والدم)) وكتب آخر عن جرائم الجيش الإسرائيلي ضد المدنيين أثناء الاعتداء على لبنان عام ٨٢ فقال : إنّ التركيب النفسى للشخصية اليهودية غير عادى . وما حدث في لبنان أبعد ما يكون عن البطولة التى يحتاج إليها الشخص اليهودى . هل البطولة العسكرية هى صورة هذا الرجل الذى يبحث فى الأنقاض عن حفيده ؟ أو هذا الرجل الذى يفر هارباً من الجحيم حاملاً بين ذراعيه ابنته ذات العشر سنوات ؟ حرام علينا أن نعقد المقارنات بين ما يحدث اليوم هؤلاء العرب وبين ما حدث لنا فى الماضى ، لأننا لو عقدنا هذه المقارنات لانضح أنّ الجرائم التى أرتكبت فى حقنا بالأمس هى نفس الجرائم التى نرتكبها اليوم)) (ص ١٥٤) .

وبعد حرب يونيو ٦٧ صدر كتاب (أحاديث المقاتلين) ورد فيه اعترافات الجنود الإسرائيليين وانطباعاتهم عن الحرب ، فقال أحدهم ((إذا كنتُ فى هذه الحرب قد تذكرتُ نكبة اليهود فى أوروبا ، فلقد حدث هذا الأمر فى لحظة معينة حينما كنتُ فى طريق القدس . كان اللاجئون يتدفقون أمامنا فى إتجاه الأردن . لقد شعرتُ على الفور بالتعاطف معهم ، حينما رأيتُ الأطفال على أذرع آبائهم . رأيتُ فيهم نفسى محمولا بين ذراعى أبى)) وذكر جندى آخر أنه حينما دخل معسكر اللاجئين كى يقوم بعملية تفتيش شعر بأنه ((رجل جستابو)) وعلّق د. رشاد قائلًا ((وهذا يُذكرنا بقول الفيلسوف الألماني هيجل «أنّ تقتل فإنما تقتل نفسك» ففعل القتل ، بقدر ما هو حماية للذات من خطر، لامفر للمقاتل من أن يرى نفسه مقتولا فى ذات القتيل)) وقال كاتب يهودى : ((إنّ القومية اليهودية فى

فلسطين مبنية على أنانية عسكرية وبعيدة كل البعد عن الإنسانية)) (من ص ١٥٥ - ١٥٧).

وإذا كان تاريخ قيام الدولة الإسرائيلية هو عام ١٩٤٨ فإن اليهود استعدوا لذلك اليوم بزمان طويل ، حيث يتبين من مصادر المؤلف الاعتماد على عدد من صحيفة ها آرتس وتعني بالعبرية (الأرض) ويرجع تاريخ تأسيسها إلى عام ١٩١٩ وعلى الإهتمام بعلم الآثار منذ عام ١٩٢٠ بل إن اليهود وصل بهم الأمر لدرجة تأسيس (اتحاد للعمال العبريين) قبل إنشاء دولة إسرائيل بثمانية وعشرين عامًا ، حيث تأسس إتحاد العمال (المستدروت) في ديسمبر ١٩٢٠ .

رغم كل هذه الاستعدادات ، ورغم المستوى المعيشى المرتفع ، ورغم جهود العلمانيين ودعاة السلام الإسرائيليين للاعتراف بحق الشعب الفلسطيني حتى يتحقق الاستقرار لكل سكان المنطقة ، رغم كل ذلك فإن الإسرائيليين ((يعيشون تناقضًا حادًا بين فرضيات العقيدة الصهيونية وبين إفرازات المجتمع الإسرائيلي في صراعه مع الواقع العربى الرافض لوجوده)) (ص ٢٣٦) وأشار المؤلف إلى عامل آخر يزيد من حدة التناقضات ، وهو أن الإسرائيليين يُشكلون مجتمعًا غير متجانس ، حيث أتوا من بلاد عديدة ، ويتحدثون ٧٠ لغة ، ولديهم خلفيات حضارية مختلفة (ص ٢٤٧) ولكن هذا التعدد اللغوى جعل الإسرائيليين يتخلون عن التحية العبرية التى كانت سائدة بينهم (شالوم عليخم) وأصبحوا يُفضلون استخدام تحيات حضارية مثل (بوكر طوف) أى صباح الخير، (عيرف طوف) أى مساء الخير وغيرها من التحيات المتعددة (ص ١١٧) فهل التخلّى عن التحية الواحدة الأحادية الشمولية العبرية (شالوم عليخم) ستجعلهم متحضرين وبالتالي ينبذون العنف ؟ أعتقد أن رفض الأحادية (حتى فى صيغة التحية) يعنى الانحياز للتعددية ، ولعلّ هذا أن يكون أحد المؤشرات التى تؤكد على طبيعة التناقضات داخل المجتمع الإسرائيلى .

وإذا كان اليهود قد تجرّعوا الذل على يد النازي ، فإنهم أعادوا انتاج الذل ومارسوه على غيرهم ، وهو الأمر الذي أكدّه المؤلف قائلا ((إذا جاز لنا القول بأن أولئك الذين «كانوا عبيدًا في أرض مصر» وفق رواية التوراة ، قد تحوّلوا إلى غزاة محتلين لأرض كنعان ، بعد فترة التيه أو الاختيار الطبيعي ، فإن أولئك الذين «كانوا عبيدًا في الجيتو» في العصر الحديث ، قد تحوّلوا هم الآخرون إلى غزاة محتلين لأرض فلسطين ، بعد أن تعرّضوا لسلسلة من الاضطهاد بلغت ذروتها في اللاسامية النازية، التي تركت أثرًا واضحًا على السمات السلوكية للنمط الصهيوني ، ثم على الشخصية اليهودية الإسرائيلية)) وأن اليهود (بعد تجربتهم مع النازي) نراهم ((عندما يجدون الأشخاص الآخرين أضعف منهم ، يُارسون معهم نفس الاستخفاف ونفس القسوة اللذين احتملوهما فيما مضى . وهذه الظاهرة معروفة في علم النفس بـ ((التوحد في المعتدى)) (ص ١٤١) .



الفصل الخامس الروائي الأيرلندي جيمس جويس واليهود

اهتمت الحركة الصهيونية بالدعاية منذ نشأتها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، منذ أن فكرت في احتلال أوغندا وفشلت، وفكرت في احتلال سيناء وفشلت، حتى تمكنت من احتلال فلسطين.

وقد تأثر عدد من الكتاب الأوروبيين بهذه الدعاية، فكتبوا عن الحركة الصهيونية دون أن يكتبوا كلمة مضادة عن الشعب الذي سلبت أرضه. وبالرغم من ذلك فإن تاريخ الفكر والأدب الأوروبي لم يعدم كتاباً لهم وجهة نظر مغايرة تماماً عن الأولى، من بين هؤلاء الكتاب الروائي الأيرلندي الكبير (جيمس جويس).

في روايته المهمة (عوليس) نتعرف على مستر (ديزي) الذي يرجو مستر (ديدالوس) أن ينشر له بياناً في الصحيفة التي يعمل بها. لماذا هذا البيان؟ لأن مستر (ديزي) وغيره من التجار يستشعرون الخطر من ((عصابة ليفربول التي خرّبت مشروع بناء جولوأي)) ليس ذلك فقط، بل إن هذه العصابة - كما ذكر مستر (ديزي) تُهدد ((تجارتنا للماشية ومصير كل

صناعتنا القديمة)) ولكي يُوجج فيه غيرته الوطنية ، فإنه أضاف ((إنهم سيضعون حظراً على الماشية الأيرلندية)) ثم يستعطفه قائلاً ((والآن أحاول اللجوء للدعاية .. إنني محاصر من كل جانب بالمشاكل .. بالمكائد .. بالمناورات الخفية)).

فمن هي عصابة ليفربول ؟ ومن هم الذين يُهدّدون تجارة الأيرلنديين في لندن ، بل ويُهدّدون إنجلترا نفسها ؟

بعد حالة الذعر يبدأ مستر (ديزي) في الافصاح ((رفع سبابته مُلوّحاً بها بطريقة عجائزية قبل أن يتكلم صوته : « خذ بالك من كلامي يا مسترديدالوس .. إنجلترا في قبضة اليهود .. في كل مراكز النفوذ : مراكزها المالية .. وصحافتها . وهم إمارات الاضمحلال لأية أمة ، أينما يتجمّعون يستنفدون طاقة الأمة الحوية . لقد شاهدتُ ذلك يحدث في هذه السنوات . وكنتأكدى من وقوفنا هنا أقول لك : إنّ التجار اليهود بدؤوا عملهم التخريبي . إنّ إنجلترا العجوز تحتضر)).

علّق بطل الرواية قائلاً ((التاجر هو الذى يشتري رخيصةً ويبيع غالياً .. يهودى كان أو ذمى)) فردّ مستر (ديزي) بحزم ((لقد كفروا بالنور.. ويمكنك أن ترى الظلام في عيونهم .. ولهذا فهم مُشرّدون في الأرض حتى يومنا هذا)).

وعلى درجات بورصة باريس ، وصفهم جيمس جويس قائلاً ((رجال ببشرة ذهبية ، يحسبون الأسعار على أصابعهم المرصعة بالجواهر. ثروة الأوز. احتشدوا حول المعبد في جلبة فضة ، ورؤوسهم تزخر بالمؤامرات ، يُدركون الضغائن تتكتل حولهم ، يُدركون أنّ حماسهم عبث ، صبر عقيم للكثرة والتكديس ، سيُعيثُ الزمان كله بكل تأكيد ، كنز مكتنز على قارعة الطريق : يسلب ويُيعثر. عرفتُ عيونهم سنوات التشرد ، وبصبر تحمّلوا مخازي جنسهم)).

وفي نهاية اللقاء ، وبعد أن همّ مستر (ديزي) بالانصراف توقف ليقول للبطل ((أردتُ فقط أن أقول لك هذا : إنّ أيرلندا - كما يقولون - لها الشرف أن تكون

الفصل (الساوس) حنه و ميخائيل : صورة للمصراع داخل المجتمع

«هذه الأرض وطن لشعبين . من الواضح
أنه ليس لديهما وطن آخر ولا خيار آخر»
(عاموس عوز)

إذا كان الأدب الرفيع هو الذي يُعيد صياغة الواقع من
خلال رؤى جمالية ، تُخرج الكامن من أعماق شخصيات هذا
الواقع ، فتعكس أبعادها النفسية والعقلية ، اذا كان هذا هو
أبسط تعريف للأدب رفيع المستوى ، عميق المعنى ، فإن قراءة
رواية (حنه و ميخائيل) للكاتب الإسرائيلي (عاموس عوز)
ترجمة رفعت فوده ، الصادرة عن الدار العربية للطباعة والنشر
والتوزيع عام ١٩٩٤ ، ينطبق عليها هذا التعريف ، خاصة أنه
من خلال شخصيات الرواية قدّم المبدع للقارئ صورة أدبية
لكل تناقضات المجتمع الإسرائيلي ، وأن هذه التناقضات هي
التجسيد الحي للمصراع داخل هذا المجتمع ، وذلك على عدة
محاور:

المحور الأول : هو أن المجتمع الإسرائيلي متعدد الأعراق ، أى مُتعدد الأجناس ، وبالتالي فهو مُتعدد الثقافات واللغات ، لدرجة أن أكثر من شخصية تحدث العبرية بصعوبة وركاكة (ص ٢٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١٧٦ ، ١٩١) ورغم أن هذا التعدد العرقي كان سبباً لافتقار التجانس المجتمعي بين أفراد شعب يعيش على أرض وطن واحد ، وتسبب في نزاعات تصل أحياناً إلى حد الحروب الأهلية إلا أن هذا الافتقار للتجانس في المجتمع الإسرائيلي لم يُخلخل انتماء الإسرائيليين للدولة التي يعيشون على أرضها وللنظام الذي يحكمهم . فما هو السبب ؟ السبب أن الإسرائيليين (غربيين وشرقيين ، علمانيين وأصوليين) يؤمنون أن دولة إسرائيل الوليدة هي حقيقة لا يجب التشكيك فيها ، وبالتالي فإن أى تشكيك في إسرائيل كدولة ، وأى تهديد لهذه الدولة ، فإن (كل) الإسرائيليين يقفون ضد هذا التهديد . أى أن مفهوم (الوطن) هو الذى (وحد) كل الإسرائيليين ، ويكون الاختلاف داخل هذا المجتمع حول الحق الفلسطيني . فالأصوليون ينكرون أى حق للفلسطينيين ويُشجعون على استخدام العنف ضدهم ، وكان الكاتب موفقاً وهو يجعل عين البطلة (حنه) تقرأ على أحد الجدران في مدينة القدس ((كتابة جمراء غير واضحة من أيام منظمات العمل السرى اليهودى هذه العبارة « بالدم والنار سقطت يهودا . وبالدم والنار ستنهض يهودا »)) وكان تعليق (حنه) هو : ((لم أحب الفكرة التي وراء هذا الشعار. بل أحب ترتيبها الداخلى . نوع من التوازن الخطر لا أستطيع أن أشرحه)) (ص ٨٤ ، ٩٠) وفي المقابل نجد ميخائيل يقول لابنه عن حرب عام ١٩٤٨ ((هنا كان العرب، ونحن هنا)) (ص ١٧١) ووالد ميخائيل يحكى لابنه عن ((عرب أشرار وعرب أخيار)) (ص ١٠٧) و(حنه) تتكلم في مونولوج داخلى عن ((فلسطين البعيدة)) (ص ١٨٨) أى أن الرواية تعكس صورة التيارين الرئيسيين في المجتمع الإسرائيلي : تيار الأصوليين الذين يرفضون أى حق للفلسطينيين في إقامة دولتهم ، تأسيساً على مرجعيتهم الدينية ، والتيار العلماني (وكذلك فصائل اليسار الإسرائيلي) الذين

البلد الوحيد الذي لم يضطهد اليهود . ألا تعرف ذلك ؟) .

وعندما سأله مستفسراً ، قال مستر (ديزي) : ((لأنها لم تسمح لهم بدخولها أبداً .. قال ذلك بافتخار)) وظلَّ يُردّد جملته وهو يبتعد ((لأنها لم تسمح لهم بدخولها أبداً)) .

كتب جيمس جويس هذه الرواية ، في أوائل القرن العشرين ، أى قبل احتلال اليهود لفلسطين والضفة والقدس والجولان وسيناء (لعدة سنوات قبل تحريرها) وقبل غزو جنوب لبنان وضرب المفاعل الذرى العراقى ، وقبل فرض كلمتهم على المنطقة بأكثر من خمسين سنة . فإذا قارنّا ما كتبه جيمس جويس فى رواية (عوليس) بما حدث على أرض الواقع ، تكون أمامنا صورتان : الأولى لروائى أيرلندى ، لم يحتل اليهود وطنه ، ومع ذلك يصفهم بأنهم ((عصابة)) وأنهم ((إمارات الاضمحلال لأية أمة ، وأينما يتجمعون يستنفدون طاقة الأمة الحوية)) ليس ذلك فقط ، وإنما هم أيضاً ((بدأوا عملهم التخريبى)) .

وفى لهجة ساخرة دالة كتب ((إنَّ أيرلندا لم تشملهم . ولم تسمح لهم بدخولها أبداً)) والصورة الثانية المقابلة هى ما حدث من تطبيق عملى للمخطط الصهيونى على أرض الشعب الفلسطينى ، وتهديد باقى دول المنطقة ، فهل يكمن سبب المقارنة فى أنَّ الدول الأوروبية أخرجت مفكرين ومبدعين انتبهوا للمخطط الصهيونى مبكراً ، واستشعروا خطر هذا المخطط وهو جنين فى أحشاء الآباء الأول للصهيونية ، بينما الدول التى كانت مستهدفة لإحتلال أراضيها ونهب ثروات شعوبها ، لم تُخرج مفكرين ومبدعين على مستوى المفكرين والمبدعين الأوروبيين ، فيما يتعلق بالمشروع الصهيونى الذى يستهدف تحقيق الحلم التوراتى وتنفيذ مشيئة الإله العبرى لبنى إسرائيل ، باحتلال (أرض الميعاد) ؟ مجرد سؤال . وأياً كانت الإجابة ، فإننى أعتقد

أنّ ما قاله الفيلسوف الألماني (نيتشه) لشعبه مازال صالحًا وقابلًا لترديده اليوم وكل يوم ، بل وطوال ساعات اليوم . ومن واجب كل مفكر وكل مبدع حر أن يقتبسه ويُوّجهه إلى شعبه ، كما فعل (نيتشه) الذي قال ((عليكم أن تستشعروا الخطر دائماً حتى تتقدّموا ولا تتخلفوا)).



يدافعون عن حق الفلسطينيين في إقامة دولتهم .

هذا الموقف الذي جسده الكاتب في الرواية هو تعبير صادق عن قناعاته الشخصية ، إذ قال في حديث صحفي : ((إنّ النزاع العربي الإسرائيلي على الأرض هو نزاع ، ليس بين حق وباطل ، وإنما بين حق وحق)) وفي كتابه (هنا وهناك في أرض الميعاد) قال ((إنّ هذه الأرض وطن لشعبين . ومن الواضح أنه ليس لديهما وطن آخر ولا خيار آخر ، لذا فإنّ عليهما أن يتقاسماها بشكل ما)) (ص ١٣ ، ١٥ من مقدمة المترجم) .

المحور الثاني : في الرواية هو تقديم صورة للأصوليين داخل المجتمع الإسرائيلي في مقابل صورة العلمانيين . فتذكر (حنه) أنها وهى طفلة ((كنا نتجول في شوارع بعيدة . نجوب الغابات . جوعى . نركض لاهثين نُعذب الأطفال المتدينين)) (ص ٢٢) وحنه أثناء فترة الخطوبة مع ميخائيل رفضت أن تدعوه إلى غرفتها والسبب ((أنّ أصحاب المنزل متدينون)) (ص ٢٩) بل إنها بعد الزواج ، وعندما كانت مريضة وزوجها في جبهة القتال ، اطمأنت عندما زارها رجلان من الجيران للاطمئنان عليها . وتخشى لو أنّ رجلا واحداً هو الذى زارها . والسبب كما تقول حنه ((لو جاء واحد منهما بمفرده ، سيفتح الباب للأقاويل الشريرة)) (ص ١٥٣) ووالد ميخائيل عند زيارته للمرة الأولى لابنه بعد الزواج ، وعندما سأل على عنوان بيت ابنه ، ضلّله الأطفال المتدينون)) (ص ٦٤) بل إنّ عمات ميخائيل الأربع تتعجب في حيرة وتساءلن ((لماذا يعيش ميخائيل بين المتدينين ، بدلا من العيش في مناخ ثقافي متحضر)) (ص ٨١) .

هذه الصورة التي تُركز على أنّ الأصوليين في المجتمع الإسرائيلي غير متحضرين ، يؤكد عليها الكاتب في مواضع عديدة . إذ بينما تسير (حنه) وميخائيل في مدينة القدس ، ينقض على ميخائيل رجل يهودى ضخّم أمسك بزر معطفه وقال في وجهه ((ويلٌ لك يا مُعكر صفو إسرائيل . إنّ شاء الله تموت)) اندهش ميخائيل ،

فهو لا يعرف الرجل الذى أضاف ((فليكن الموت من نصيب كل أعداء الرب . آمين يا رب العالمين)) وعندما تهيأ ميخائيل ليقول للرجل : إنه ليس من أعدائه ، أنهى اليهودى الضخم الموقف قائلاً ((تفو عليك وعلى كل عائلتك إلى الأبد .. آمين .. آمين)) (ص ٨٥) .

واليهود المتدينون فى إسرائيل المدافعون عن الديانة العبرية يرون أن ((البنات كلهن من عمل الشيطان الرجيم)) (ص ٥٦) والسيدة (هاداساه) صديقة حنه تنتقد الجامعة العبرية ((فهى جامعة حديثة العهد ، ومع ذلك يديرونها بأكثر الطرق أصولية)) (ص ٥٧) وإذا كان الأصوليون فى كل دين يُحاولون إثبات أن كتابهم المقدس سبق العلم فى الاكتشافات العلمية ، فإن والد ميخائيل يتكلم عن ((شك الخبراء فى الآية التوراتية التى تقول «أرض حجارتها من حديد . ومن جبالها يُقطع النحاس» الموجودة فى سفر التثنية (ص ١٠٨) وميخائيل بعد حرب سنة ٤٨ يفرض الذهاب إلى أية مستوطنة (كيوتز) فى النقب . وترى عمته (جينييه) أنه بذلك أحسن صنعاً ، لأنه توجه للدراسة فى الجامعة لىخدم الشعب والدولة بعقله ومواهبه وليس بعضلاته)) (ص ١٠٩) والسيد قاديشمان الأصولى المتعصب يقول ((سنقوم بإحتلال القدس . الخليل . بيت لحم ونابلس . خيراً فعل الرب بشعبنا جين منع الحكمة عن الذين يدعون الزعامة فىنا . وجعل على قلب أعدائنا غشاوة . بيده يأخذ ويده الأخرى يُعيد . ما لم تستطع تحقيقه حكمة اليهود ، يتحقق بفضل غباء العرب . قريباً ستندلع حرب كبيرة وستعود لنا الأماكن المقدسة)) (ص ١٣٤) .

على الجانب الآخر يُبرز الكاتب الوجه المضاد للأصوليين ، فرغم وجود ظاهرة التعصب الدينى داخل المجتمع الإسرائيلى ، فإن العلمانيين لهم حق الدفاع عن أنفسهم وإعلان معتقداتهم . وأكثر من ذلك فإن والد ميخائيل ((تعود أن يصف نفسه بأنه يمارس الإلحاد)) (ص ١١٢) وميخائيل مثل والده . تقول حنه ((نحن لأنشعل شموع السبت ، لأن ميخائيل يرى فى ذلك نفاقاً من جانب الذين

لا يتمسكون بالمبادئ الدينية)) وفي نفس المشهد يقول ميخائيل ((أبى لم يعرف ماهو مدى الصدق في المبادئ الدينية. وحين انضم أخى عمانوئيل لحركة شباب يسارية، حينذاك فقط توقفت العادات الدينية في بيتنا يوم السبت. (إنّ) تمسكنا بالقواعد الدينية كان واهناً للغاية. كان أبى رجلاً مُتشككاً)) (ص ١٢٠).

والتعصب الدينى يصل لدرجة أن يقول أحد الشخصيات الثانوية ((جميع أبناء إسرائيل متساوون أمام الرب، إلا أولئك الذين حلّت عليهم اللعنة منه سبحانه)) (ص ١٢٢) أى أنّ التعصب الدينى يُكرّس لإقصاء كل مختلف والدعاء عليهم باللعنة من منظور الإيثار العبرى. وإذا كان هذا الإقصاء يشمل الفلسطينيين، فهو يشمل أيضًا الإسرائيليين الراضين للمرجعية الدينية العبرية. وهذا أحد أهم بؤر الصراع داخل المجتمع الإسرائيلي. وهو ما اهتمت الرواية بإبرازه. وتكتمل الصورة عندما يرفض ميخائيل أن يلحق ابنه بأية مدرسة دينية، وشاركته زوجته حنه في ذلك وقالت ((ميخائيل مُصمم تمامًا على أن يكون ابنه تقدميًا في آرائه)) (ص ١٦٩) وحنه تكتشف في ابن جيرانها الفتى (يورام) موهبة كتابة الشعر، ولكنه يكتب شعرًا يستمد مادته من التوراة، فتقول ((حين تكون السيطرة التامة في يدى، أنوى أن أقنع يورام بأن يختار حياة متهورة، بمعنى أن أشجّعه على أن يكون شاعرًا، وليس مدرّسًا للتوراة)) (ص ١٦٢) وتصف تلاميذ المدرسة الدينية للذكور (تحكمونى) بأنهم ((بدوا إلى أكثر همجية. أكثر عنفًا من السنين السابقة)) (ص ١٧٥) والسيدة (دوباه جليك) تجد أساسًا مضحكًا للتزامن بين التراثين الدينيين وبين المطر، ولهذا انفجرت في ضحك أجش)) (ص ١٨٨).

المحور الثالث: هو الموقف من مصر، استنادًا إلى الإيمان العميق بحرفية ما جاء في التراث الدينى العبرى المعادى لمصر. تدور أحداث الرواية (دون أن ينص الكاتب على ذلك صراحة) في أجواء حرب عام ١٩٥٦. قال د. أورباخ ((هذه أيام مهمة. ومن الصعب جدًا فيها الابتعاد عن الأفكار التوراتية. حسنًا. بالأمس احتل الجيش

الإسرائيلي بالدبابات جبل سيناء ، تقريبًا كما توقع سفر الرؤيا . تقريبًا يوم القيامة)) (ص ١٥٠) وقال السيد قادي شمان ((في هذا الوقت قواتنا تُطارَد جيش فرعون الهارب . والبحر لم يتغلق لمجرى مصر)) (ص ١٥٥) وكما ذكرتُ في المحور الأول ، فإنَّ الإسرائيليين (أصوليين وعلمانيين) يُوحِّدُهم الدفاع عن بقاء إسرائيل ، لذلك نرى ميخائيل (رغم رفضه للمرجعية الدينية) يقول ((هناك قاعدة معروفة وضعها المستشار الألماني بسمارك ، مفادها أنه حين يُهاجمك حلف من القوات المعادية ، عليك أن تبحث عن أقواهم وتضربه أولاً . وهذا ما سيحدث هذه المرة أيضًا . سنُخيف الأردن والعراق حتى الموت ، وبعد ذلك نستدير فجأة لنضرب مصر)) وكان تعليق حنه ((أنا حلقْتُ في زوجي كأنه يتحدث إلى باللغة السانسكريتية)) (ص ١٣٥) وذكر الكاتب على لسان حنه أنَّ التلاميذ في المدارس يتعلمون ((لِقصة الخروج من مصر ، والضربات العشر . أبدى معظم الأولاد فرعًا شديدًا ، ربما مُشوَّشًا من قسوة المصريين ومعاناة العبريين . أما جونين (ابنها) فقد سأل أسئلة تتعلق بانشقاق البحر الأحمر . كان لديه اعتراض منمق على أقوال التوراة)) (ص ١٨٤) وأثناء الحرب أذاع الجيش الإسرائيلي البيان التالي ((توغلت قوات جيش الدفاع الإسرائيلي هذا المساء إلى داخل صحراء سيناء واحتلت الكونتيتلا ورأس النقب وسيطرتُ على مواقع بالقرب من نِجْل على بُعد ٦٠ كم شرق قناة السويس . صحراء سيناء هي المهد التاريخي للأمة الإسرائيلية)) (من ص ١٤٦-١٤٧) .

المحور الرابع يتناول علاقة الإسرائيليين بالفلسطينيين . وهذا المحور مُجسِّده (حنه) التي تدور أحداث الرواية على لسانها . حنه شخصية مركبة شديدة التعقيد . تُهاجمها الأحلام الكابوسية دائمًا . فرغم استقرار حياتها الزوجية . ورغم تقدم زوجها في أبحاثه وفي وضعه الاجتماعي ، ومع ذلك تشعر دائمًا بأنها على حافة الخطر . هل هو خطر ذاتي أم خطر عام ؟ طوال صفحات الرواية يختلط الذاتي بالعام ، فهي في طفولتها كانت تلعب مع صغليْن عريَّين (توأم) عن هذا التوأم قالت ((كنتُ

أميرة وهما حارسى . كنتُ قائدة مغوارة وهما الضابطان . كنتُ القبطان وهما الملاحان . جاسوسة وهما العيانان)) (ص ٢٢) ولكن العلاقة بينها وبين الطفلين العربيين تتعقد فتقول ((أحياناً كنتُ أحثهما على التمرد وبعد ذلك أخضعهما بيد حديدية)) (ص ٢٩) ورغم ذلك فهي تحكى لميخائيل ((وأنا في الثانية عشرة من عمري وقعتُ في حبهما معاً . كانا ولدَيْن جميلَيْن)) وفجأة تراهما ((ذُبَيْنَ رماديين . همجيين . قرصانين بحريين)) (ص ٣٦) وبعد أن تزوّجت تراهما دائماً في أحلامها المخيفة . وأن أحدهما أخرج لها من عباءته سكيناً كبيراً ذا بريق)) (ص ٤٨) وفي حلم آخر يتدرّب التوأم العربى على استخدام القنابل اليدوية (ص ٨١) ورغم ذلك فهي في يقظتها تتمنى أن يكون هذا التوأم العربى ضمن المعسكر العربى الذى يسعى للسلام (ص ١٥٧) .

في الصفحات الأخيرة من الرواية ، عندما قرّرت الانفصال عن زوجها (رغم أنه زوج مثالى) فإنها ترى التوأم العربى في أحلام يقظتها ومعها صندوق متفجرات ورشاشات محشوة ومصوّبة ، وأنّ زناد الأمان مسحوب منها . رغم ذلك فإنّ الخطر في حلم يقظتها الكابوسى مازال مُشوّشاً فتقول ((أصابع تلمس طريقها إلى الزناد . تجمعات صراير مُحتبئة . فجأة يُدوى انفجارٌ مُرّوق . وهجٌ من الضياء في الأفق الغربى . بقايا أصداء منخفضة تُجلجل في كهوف الجبل . على وجه الأودية ندى ثقيل . نجمة . كتل من الجبال الصماء . ريحٌ هادئة ، تلامس وتداعب أشجار الصنوبر . الأفق البعيد يصير باهتاً ببطء . وعلى الوادى الفسيح تهبط سكينه باردة (من ص ١٩٤ - ١٩٦) وحنه إذا كانت ترى التوأم العربى في أحلامها الكابوسية وهما ينقضان عليها ، فإنها ترى أيضاً سائق التاكسى الإسرائيلى (رحاميم رحيموف) وهو يُطوّق خاصرتها كإنسان همجى متوحش (ص ١٣٨) أى أنّ إحساسها بالخطر نابع من إحساس عام بتركيبية المجتمع الإسرائيلى ، فهي ترى أنّ مدينة القدس ((أوهام وليست مدينة)) (ص ٣٤) والقدس ((مدينة تبعث على

الحزن . في كل ساعة وفي كل موسم تُثير القدس حزنًا مختلفًا)) (ص ٦٣) والقدس قلعة أشباح يسكنها أصحاب الأرواح الشريرة (ص ٨٢) وتقول أيضًا ((من الذي بإمكانه أن يستوطن القدس ؟ أتساءل أنا . حتى لو عاش هنا مائة عام . إنها مدينة الألفية المغلقة . مخنوقة خلف جدران كثيفة . تعلوها قطع زجاج مكسور . حاد . لاقدس . بل فتات متساقط عمدًا كي يُضلل الأبرياء . قشور داخلها قشور . إنني أسجل هنا أنني من مواليد القدس . أما أن القدس مدينتي ، فهذه لا أستطيع أن أكتبها)) (من ص ٨٤ - ٨٥) وأكثر من ذلك قالت ((كانت القدس بعيدة . ولم تستطع أن تتعقب أثارى . ربما تحولت في النهاية إلى غبار . فهي تستحق . لم أحب القدس من بعيد . أضمرت لى الشر . أردتُ لها سوءًا)) (ص ١٩٢) .

إن شخصية (حنه) من الشخصيات المهمة في الأدب العالمي ، والكاتب برع في تضفير همومها الخاصة بالهم العام . فهي مشغولة بفلسفة الوجود وتسأل زوجها ((من أجل ماذا نعيش ؟ قل لي من فضلك يا ميخائيل)) (ص ١٧٨) وهي تعترض على زوجها عندما تلاحظ أنه يُردّد كلمات محفوظة عن أبيه فتقول له ((إن أباك هو الذي يتحدث الآن من حلقك)) وعندما يرد عليها ((لم أفكر في ذلك . لكن الأمر ممكن وطبيعي . فأنا ابن أبي)) ولكنها ترفض منطقه فتقول ((القطيع ليس في أنك ابن أبيك . القطيع أن أباك يبدأ الحديث فجأة من حلقك . وجدك زلمان ، وجدى وأبى وأمى . وبعدنا يكون يائير (ابنها) كلنا كأننا نتعاقب شخصًا إثر شخص . كلنا مسودات . نسخة جديدة تظهر بعد الأخرى . مسودة طبق الأصل . بعد أن تتلف بالكرمشة تُلقى في سلة المهملات . وتظهر مسودة أخرى بتغيير بسيط . يا له من انعدام للجدوى . يا له من فتور . يا لها من نكتة سخيفة)) (ص ١٨١) حنه ترفض أن يكون مجتمعها عبارة عن نسخ كربونية ، لذلك يتفهم القارئ هواجسها وكوابيسها عن الذين يُهددون حياتها . تخشى من التوأم العربى ومع ذلك تحن لطفولتها معها ، وتتمنى أن ينضم إلى العرب المناصرين للسلام . تعشق الحياة

بطريقتها الخاصة ، لذلك كان الكاتب موفقاً وهو يُقدّمها في السطور الأولى من الرواية وهو يقول ((أكتب لأنّ أناساً أحبهم قد ماتوا . أكتب لأنني حين كنتُ صبية كانت لديّ القدرة على الحب . أما الآن فإنّ قدرتي على الحب تموت . أنا لا أريد أن أموت)) لذلك جاء قرارها بالانفصال عن زوجها بشكل فني بديع ، ومُتسقاً مع شخصيتها .

الدفاع عن بقاء دولة إسرائيل ، رغم اختلاف التيارات السياسية والثقافية ، الدعوة إلى السلام ، إدانة الأصوليين اليهود ، الصراع بين الأصوليين والعلمانيين ، هذه المحاور التي تناولتها الرواية ، هي أيضاً مواقف الكاتب الذي قال للناقد الأمريكي (ديفيد سباتر) : ((على السطح في إسرائيل هناك ثقة في النفس هائلة . رصيد ضخّم من اللامبالاة . ومن إجابات سخيفة تدور في أي ذهن وتتمثل في «لا تنزعج . نحن نستطيع أن نحل كل شيء . ونتغلب على كل صعوبة » ولكن هذه الثقة تطفح على السطح فقط ، بينما في العمق ، وفي داخل طيات الضمير والعقلية الإسرائيلية ، هناك شعور قديم بالفزع اليهودي التقليدي . هذا الفزع يُبرهن عن نفسه في الشعور بالذنب تجاه العرب . ويؤدي في حالة بطلة هذه الرواية إلى نزوات انتقامية)) وفي حديث آخر سأله أحد النقاد الأمريكيين : هل لازال يأمل أن دولة علمانية ديموقراطية تستطيع البقاء في إسرائيل ؟ فقال ((التطرف الديني والتعصب حقاً ارتفاعاً هائلاً ، ليس فقط في القدس ، ولكن في أماكن كثيرة أخرى من العالم تحت سيطرة الإسلام ، المسيحية ، وبالتأكيد اليهودية . سيؤدي ذلك إلى سيطرة الدينيين الأصوليين على القدس . إنني لن أعتبر موجة التطرف الديني في إسرائيل ظاهرة عابرة . إنها ثابتة وقائمة)).

وعاموس عوز مؤلف الرواية اشترك في حركة السلام الآن . واشترك في لجنة السلام الفلسطينية الإسرائيلية . ومع إقامة الدولة الفلسطينية . وخلال الاعتداء على لبنان عام ١٩٨٢ قاد مظاهرة ضد مناحم بيجين رئيس الوزراء الأسبق ، مُذكراً إياه

أن هتلر قد مات . ونشر قصة قصيرة في مجلة اليوم السابع تدور حول أم تشعر أن احتلال القدس في حرب ١٩٦٧ ، لا يساوى إصبعًا واحدًا من أصابع ابنها الذي فقدته في تلك الحرب (من مقدمة المترجم) .

تبقى ملحوظة خاصة بالمترجم : فإذا كان ابن ميخائيل عندما سمع قصة خروج اليهود من مصر ((كان لديه اعتراض منمق على أقوال التوراة)) وإذا كان من حق أى مترجم التعليق على أية أخطاء تاريخية تتعارض مع لغة العلم ، وهو ما فعله العديد من المترجمين ، لذلك كنتُ أتوقع من مترجم رواية (حنه وميخائيل) أن يستشهد بأقوال العلماء الذين فتّدوا افتراءات بنى إسرائيل ضد جدودنا المصريين القدماء ، أمثال جيمس فريزر الذى نفى أن يكون قد صدر أمر من أحد الفراعنة بطرح كل أطفال العبريين فى الماء (الفولكلور فى العهد القديم - ترجمة د. نبيلة إبراهيم - هيئة الكتاب المصرية - عام ١٩٧٤ - ج ٢ ص ١٢) أو سيجموند فرويد الذى كتب أن القصة التى تروىها التوراة عن موسى والخروج ليست أكثر من أسطورة دينية (موسى والتوحيد - ترجمة د. عبد المنعم الحفنى - ص ٨٤ ، ١٠٩ ، ١٣٥) أو د. محمد بيومى مهران الذى كتب ((انتهت الأمور باليهود أن نسوا مصر أنها أطعمتهم وآوتهم ، فردوا لها الجميل نكرًا ، وكانوا عليها للفرس أعوانًا وفى حاميتهم جنودًا . وهم أعوان الهكسوس وخونة وجواسيس وأذئاب لأعداء البلاد)) (تاريخ الشرق الأدنى القديم - دار المعارف بمصر عام ١٩٧٦ - ج ٣ ص ٣٢٥ ، ٣٨٤) وكتب أ. شفيق مقار أن ((اليهود كانوا رعاة رحل جياح تسلّلوا عبر حدود مصر ليأكوا وينهبوا)) (قراءة سياسية للتوراة - رياض الريس للكتاب والنشر - ص ٩٢) وكتب جورج هربرت ويلز ((إن قصة استيطان بنى إسرائيل مصر واستعبادهم فيها وخروجهم منها قصة صعبة للغاية. ففي تاريخ مصر ذكر لأقوام من الرعاة الساميين سُمح لهم بالإقامة فى أرض جاسان (الشرقية حاليًا)

بإذن من الفرعون رمسيس الثاني . وفي هذا السياق قال التاريخ إن جعل أولئك الناس يلجأون إلى مصر كان الجوع ، إلا أنه لا ذكر هناك إطلاقاً في أى شيء مما سجله تاريخ مصر لشخص اسمه موسى ، أو أى ذكر لسيرته ، كما أنه لا ذكر هناك لأيّة ضربات أو كوارث طبيعية حلّت بمصر أو لأيّ فرعون غرق هو وجنوده في البحر الأحمر)) (نقلا عن شفيق مقار - المصدر السابق - ص ٣١١) .

لم يُقدّم مترجم الرواية هذه الخدمة لقارئه ، وإنما اكتفى في الهامش رقم (٤١) بأن لخص قصة الخروج كما وردت في سفر الخروج . واعتصرني الألم (أثناء القراءة وبعدها لعدة سنوات) وأنا أقرأ في الرواية على لسان الأصولي اليهودي ((في هذا الوقت قواتنا تُطارد جيش فرعون الهارب . والبحر لم يغلق لمجرمى مصر)) (ص ١٥٥ من الرواية) واستدعيْتُ كل قراءتى في علم النفس لأعرف الحالة الشعورية للمترجم وهو يُترجم افتراءات بنى إسرائيل ضد جدودنا المصريين القدماء وضد المصريين المعاصرين . طبعاً فشلت محاولتى واستبعدتُ أن يكون المترجم من المؤمنين بالتراث العبرى المعادى للحضارة المصرية ، ولكن ألتنى أكثر أن المترجم الذى قرأ العهد القديم ، لم يكتشف أن المجرمين الحقيقيين من واقع معظم أسفار العهد القديم هم اليهود ، وبالتالي كانت أمامه فرصة للرد على أكاذيب الأصوليين اليهود من واقع كتابهم الذى يُقدّسونه . وكمثال واحد فإنّ إله العبريين يُحرّض بنى إسرائيل على سرقة المصريين ، فيقول لهم ((حينما تمضون أنكم لاتمضون فارغين . بل تطلب كل امرأة من جاريتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين)) (خروج ٣ : ١٨ - ٢٢) وأكثر من ذلك تحويل أرض مصر ونيلها وحقولها وبيوتها إلى دم . وإصدار الأوامر للبعوض والذباب والقمل لهلاك المصريين والقضاء عليهم ، بما يُعرف باللعنات العشر . بل إنّ هذا الإله العبرى ينزل بنفسه في منتصف الليل ليقتل كل بكر في أرض مصر (انظر : أسفار الخروج والتثنية والعدد على سبيل المثال) .

الفصل السابع

جدل العلاقة بين مصر وفلسطين وإسرائيل وقضية حدود الدولة والدفاع عن الوطن

ترتب على الصراع الفلسطيني / الإسرائيلي بعض المقولات المتعلقة بمصر، مثل أن تصدى مصر لإسرائيل هو في مصلحة مصر قبل مصلحة فلسطين . وأن كل الحروب التي خاضتها مصر ضد إسرائيل ، كانت دفاعاً عن أمن مصر، وليس دفاعاً عن فلسطين . أما أخطر تلك المقولات فهي (حصر) حدود مصر عند الحدود الشرقية ، وهي مقولات في حاجة للمناقشة .

المقولة الأولى صحيحة ولكن بشرط أن تكون مصر محتلة أو مهددة بالاحتلال من إسرائيل . فهل كانت مصر عام ١٩٤٨ محتلة أو مهددة بالاحتلال من إسرائيل ؟ بالطبع فإن الإجابة بالنفي ، لأن العصابات الصهيونية كانت تستهدف احتلال فلسطين ، ومع ذلك دخلت مصر في حرب ضد هذه (العصابات) ، انتهت بهزيمة الجيش المصري وهزيمة جيوش خمس دول عربية. والسؤال المسكوت عنه هو : هل يستطيع العقل الحر إنكار أن دخول مصر في الحرب ضد (الصهاينة) عام ٤٨ ترك أثراً في نفوس وعقول اليهود الذين احتلوا فلسطين ؟ وأنه منذ ذلك التاريخ اعتبرت إسرائيل أن مصر

عدوة عا ، طالما أنها تُساند الفلسطينيين ، وترفض كل عروض السلام التي اقترحتها إسرائيل على مصر، منذ عام ١٩٥٣ ، خاصة أن العلاقة بين اليهود والفلسطينيين عكس الصورة التي رَوّج لها الإعلام العروبي ، من ذلك ما ذكره المؤرخ أ. عبدالله عنان ، إذ إنه عندما زار القدس عام ١٩٢٦ ((لفت نظري اتصال الفلسطينيين في بيت المقدس باليهود اتصالا عاديا في الحياة العامة والخاصة. ومعرفة الكثير من شبابهم للغة العبرية. وتحديثهم بها مع اليهود . وتزوج الكثير منهم بزوجات يهوديات في غاية الحسن والجمال)) (ثلاثا قرن من الزمان - كتاب الهلال - يناير ٨٨ ص ٨٧ ، ٨٨) وأين كان الفلسطينيون عندما تم إنشاء مدينة باسم (تل أبيب) عام ١٩٢٦ ؟ (المصدر السابق ص ٨٩) وأين كان الفلسطينيون عندما تم إنشاء صحيفة ها آرتس (ومعناها الأرض) عام ١٩١٩ ؟ إلى آخر الترتيبات والإجراءات التي تمت على أرض فلسطين من قبل الصهاينة منذ أوائل القرن العشرين ، على النحو الوارد في الفصول السابقة ؟ المهم أنه بعد حرب ٤٨ اعتبرت إسرائيل أن مصر عدوة لها طالما استمرت في رفع شعارات تحرير فلسطين من العدو الصهيوني ، والكثير من الشعارات (التي لا تمتلك قوة التنفيذ من جهة ، وتستفز إسرائيل من جهة ثانية) مثل إلقاء إسرائيل في البحر. ووصل الأمر لدرجة أنه في محضر جلسة (القيادة السياسية الموحدة) المنعقدة في القاهرة في الفترة من ١٩ - ٢٥ مايو ١٩٦٥ وبرئاسة عبدالناصر، تم الاتفاق على عدة أهداف لمواجهة (الأخطار التي تواجه الأمة العربية) كان من بينها أن ((الهدف القومى العربى هو القضاء على إسرائيل)) (أنظر نص محضر الجلسة في كتاب «عبدالناصر وتحرير المشرق العربى» تأليف فتحى الديب - مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام - عام ٢٠٠٠ ص ٦٨٨) أى أن مصر - رغم أنها لم تخض إلا حرباً واحدة ضد إسرائيل لصالح الشعب الفلسطينى - فإن استمرار الدعم السياسى والمادى للفلسطينيين (بالإضافة إلى الشعارات الجوفاء المستفزة لإسرائيل) كل ذلك تسبّب في تعقيد العلاقة بين مصر

وإسرائيل ، لذلك فإنني أعتقد أن دخول مصر في حرب ٤٨ هو المدخل لفهم علاقة مصر في الصراع الفلسطيني / الإسرائيلي . ولعل السؤال بمفهوم المخالفة : ما هو موقف إسرائيل لو أن مصر رفضت الدخول بجيشها في حرب ٤٨ ؟ كما طالب بعض السياسيين المصريين ومن بينهم ، نيس الوزراء آنذاك محمود باشا فهمي النقراشي ؟ ولو طبقنا علم الاحتمالات ، فإن السؤال هو: أليس عدم اشتراك الجيش المصري عام ٤٨ (فرضاً كما طالب بعض المصريين) كان سيغير موقف إسرائيل من مصر ؟ خاصة لو وضعنا في الاعتبار ما قاله الحاج أمين الحسيني (مفتي فلسطين) حيث ذكر أن سياسة مصر كانت ((مؤيدة وموافقة كل الموافقة لرغبة المسئولين من الفلسطينيين في ألا تدخل الجيوش العربية إلى فلسطين بل يقوم الفلسطينيون أنفسهم بالدفاع عن بلادهم وأن تقدم لهم المساعدة بالسلاح والذخائر والأموال وكل الوسائل الممكنة)) (انظر محمد حسنين هيكل - العروش والجيوش - دار الشروق - عام ٩٨ ص ٤٤١) كما ذكر هيكل أن الجيوش العربية تخلت عن مساعدة الجيش المصري في معارك النقب في شهرى نوفمبر وديسمبر ٤٨ (المصدر السابق ص ٤٤٥) وقال بن جوريون ((إذا تجرأت مصر على القتال فلا بد أن تضرب بورسعيد والاسكندرية وحتى القاهرة)) (يوميات بن جوريون بتاريخ ٤٨ / ٥ / ٢٤ - نقلاً عن هيكل - المصدر السابق ص ١٣٦) كذلك علينا أن نتخيل مسار السيناريو الذى تم عرضه على عبدالناصر بعد شهور من استيلائه على السلطة، أى محاولات التفاوض المباشر مع إسرائيل ، لوضع تصور لمستقبل الصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين ، وإمكانية التوصل إلى اقتراحات عملية تحقق الاستقرار بالطرق السلمية وترضى الطرفين (الفلسطيني والإسرائيلي) رفض عبدالناصر (الجلوس) مع الإسرائيليين في أوائل عام ١٩٥٣ ، ولكنه بعد أن تسبب في كارثة بؤونة / يونيو ٦٧ وبعد أن استباح الطيران الإسرائيلي سماء مصر في السنوات التى تلت هذه الكارثة / المذبحة وقتل (= الطيران الإسرائيلي) أطفال

مدرسة بحر البقر في محافظة الشرقية وعمال مصنع أبوزعبل وضرب مدينة الفيوم وحى المعادى إلخ ، بعد هذه الجرائم الإسرائيلية اضطر عبدالناصر أن يقبل المبادرة الأمريكية المعروفة باسم (مبادرة روجرز) يوم ٢٥ / ٦ / ١٩٧٠ وكان عبدالناصر يتوقع الهجوم عليه من الفلسطينيين ومن العربيين ، فقال في تبريره لقبول هذه المبادرة الأمريكية ((إنّ المضي في حرب الاستنزاف ، في حين أنّ إسرائيل تتمتع بتفوق جوى كامل ، معناه - بيساطة - أننا نستنزف أنفسنا)) (انظر د. عبد العظيم رمضان - حرب الاستنزاف بين الحقيقة والافتراء - هيئة الكتاب المصرية - عام ٩٨ ص ٤٨) وأعتقد أنّ العقل الحر هو الوحيد القادر على تخيل واقع مصر وفلسطين والمنطقة كلها ، لو أنّ عبدالناصر وافق على مفاوضات السلام عام ١٩٥٣ ، وبالتالي فإنّ هذا العقل الحر له أن يسأل : لماذا كان الانتظار حتى عام ١٩٧٠ ؟ أليس من المحتمل (وهو افتراض مشروع) أنّ مفاوضات السلام لو تمتّ في عام ٥٣ كانت ستُجنّب مصر وفلسطين ولبنان والأردن شر الحروب التي يدفع ثمنها البشر من الفلاحين والعمال والموظفين إلخ بينما الرؤساء والزعماء يتابعون الأخبار من قصورهم ؟

كما أنه يصعب الدفاع عن موقف مصر عام ١٩٥٦ فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية ، فالعدوان الثلاثي ضد مصر الذي اشترك فيه إسرائيل ، كان بسبب تأميم قناة السويس . ولكن هل أجرى عبدالناصر ، وهو يتخذ قرار التأميم بالإرادة المنفردة كعادته ، رد فعل الدول التي تعتبر نفسها مضارة من هذا القرار ؟ إنّ صاحب أية منشأة صغيرة (حتى ولو كانت «سوبرماركت» يطلب من الخبراء إجراء «دراسة جدوى» لكل الظروف المحيطة بالمشروع ، لقياس درجات النجاح ودرجات الفشل) فهل طلب عبدالناصر إجراء دراسة علمية تقول له في نهايتها : إن ردود أفعال (الدول الاستعمارية) التي لم يتوقف لحظة واحدة منذ كارثة يوليو ٥٢ عن الهجوم عليها ، سوف تكون كذا وكذا ؟ وكيف سيكون تصرف هذه الدول

((الاستعمارية) ؟ وكيف غاب عن وعى عبدالناصر أن إسرائيل هي ((رئيسة الاستعمار)) كما كان يقول دائماً ؟ والأخطر من ذلك ما ورد في خطاب التأميم ، إذ قال عبدالناصر ((إن الاستعمار أقام إسرائيل من أجل تفكيك الوحدة العربية. سنناضل ضد الاستعمار وضد إسرائيل التي أقيمت على يديه والتي تطمح إلى احتلال المنطقة من الفرات إلى النيل)) إنني أرجو العقل الحر أن يسأل : ما علاقة تأميم القناة ، بالنضال ضد الاستعمار وإسرائيل ؟ لماذا لم يكتف بإعلان قرار التأميم بشكل حضاري ؟ أليس ذكر الاستعمار وإسرائيل في قرار التأميم هو بلغة أولاد البلد المصريين (جر شكل) وكانت النتيجة (التي كان يجب أن يتوقعها أي زعيم يحرص على مصلحة شعبه) اشتراك إسرائيل في الحرب ضد مصر بعملية (قادش) كما ترتب على قرار التأميم تدمير مدن القناة وقتل آلاف المصريين المدنيين والعسكريين . وقامت بريطانيا بتجميد الأرصدة المصرية بالجنيه الاسترليني ، وتجميد ممتلكات قناة السويس . وذكر عبداللطيف البغدادى في مذكراته أن عبد الناصر طلب من د. عبدالمنعم القيسونى أن ((يعمل على تحويل أكبر قدر ممكن من هذه الأرصدة من بنوك كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا إلى دول أخرى . ولضيق الوقت لم يتمكن القيسونى من تحويل كل أرصدتنا التي كانت لدى بنوكهم)) هذا غير التعويضات التي دفعتها مصر لأصحاب الأسهم عند إغلاق بورصة لندن في اليوم السابق للتأميم)) (المكتب المصرى الحديث عام ٧٧ ج ١ ص ٣٢٠ ، ٣٢٨) كما ترتب على ذلك ضياع فرصة استرداد مبلغ ٤٠٠ مليون جنيه وهو المبلغ الذى كانت بريطانيا مدينة به لمصر ، ووفق ما ذكره أ. طارق البشرى فإنه لم يُفرج عن هذه الأرصدة (الديون) إلا بمقادير ضعيفة مما أفقد السداد أهميته في بناء الاقتصاد المصرى (الديموقراطية ونظام يوليو ٥٢ - كتاب الهلال - ديسمبر ٩١ ص ٥٦ ، ٥٧) انسحبت الجيوش المعتدية ، بفضل الانذار الأمريكى ، لتحقيق مصلحة أمريكية ، وليس حباً في سواد عيون المصريين ، لأن أمريكا قرّرت أن تحل محل

الاستعمار القديم . وفي تحليله لسنوات ٥٥ - ١٩٦٥ ذكر د. جلال أمين أن قادة يوليو اتخذوا بعض الاجراءات التي تتفق مع مصالح أمريكا مثل مساعدة ثوار الجزائر ضد فرنسا ، والعراق ضد بريطانيا ، والأردن ضد القائد البريطاني جلوب ، ولبنان ضد كميل شمعون وممثلي النفوذ الفرنسي (مجلة الهلال - يوليو ٢٠٠٢) أما أخطر (فخ) نصبته أمريكا لتوريط الجيش المصري ، فكان فخ اليمن ، أو (البالوعة) أو (المصيدة) وفق تعبير الرئيس الأمريكي جونسون . المهم انسحبت الجيوش المعتدية بفضل الإنذار الأمريكي ، وكان ثمن الانسحاب باهظاً ، حيث ضغطت إسرائيل على الأمم المتحدة بأن الانسحاب الإسرائيلي سيتم من منطقتي شرم الشيخ وقطاع غزة بشرط حرية الملاحة الإسرائيلية في خليج العقبة ومضائق تيران . وهذا الشرط هو ما وافقت عليه الأمم المتحدة بقرار مجلس الأمن رقم (١) لسنة ٥٧ هذا بالإضافة إلى تمركز قوات الأمم المتحدة في غزة وشرم الشيخ .

كان عقد امتياز شركة قناة السويس ينتهى في عام ١٩٦٨ أى بعد ١٢ سنة من تاريخ قرار التأميم . وكان بوسع أى زعيم سياسى يضع مصلحة شعبه في المرتبة الأولى من توجهاته ، أن ينتظر انتهاء المدة القانونية احتراماً لقواعد القانون الدولى ، كما فعلت الصين التى استردت مستعمراتها بعد انتهاء سنوات الامتياز أو انتهاء سنوات السيطرة الاستعمارية . فعلت الصين ذلك بشكل حضارى ، ولم تنل حقها في أراضيها فقط . وإنما نالت احترام الشعوب المتحضرة . وإذا كان عبدالناصر لم يهتم بإجراء دراسة علمية عن ردود أفعال الدول الاستعمارية ، فإن الأخطر هو رفضه العمل بنصيحة البكباشى ثروت عكاشة الذى أرسل خطاباً من فرنسا (وكان يشغل منصب الملحق العسكرى بفرنسا) يوم ١٥ / ٥ / ٥٦ إلى عبد الناصر قال فيه : إن فرنسا مستاءة من هجوم إذاعة (صوت العرب) عليها . وتأييد مصر لشوار الجزائر منذ عام ٥٤ وإمدادهم بالمال والسلاح بل وتدريبهم على القتال في معسكرات مصرية . وحذر ثروت عكاشة من أن فرنسا سوف تتخذ عدة مواقف ضد مصر لو

استمرت القيادة المصرية في سياستها ضدها ، من بين هذه المواقف (التي تمت بالفعل) امتناع فرنسا عن شراء القطن المصري ، الأمر الذي تسبب في خسارة مصر ١٥ مليون جنيه إسترليني . ولكن أهم ما ورد في خطاب ثروت عكاشة ، ووفق تعبيراته بالنص ((تجنب الصدام مع فرنسا لتفادي تأييدها لإسرائيل ومساعدتها ضد مصر (بسبب تأييد مصر لشوارالجزائر) (فتحى الديب - مصدر سابق - ص ٨٦ ، ٢٤٠) وبعد عدة شهور تحققت نبوءة ثروت عكاشة ودفعَت مصر الثمن عندما اشتركت فرنسا في حرب السويس عام ٥٦ ضد مصر، متضامنة (فرنسا) مع إنجلترا وإسرائيل . أى أن كارثة العدوان الثلاثي عام ٥٦ والدمار الذي لحق مدن القناة ، وقتل آلاف المصريين (مدنيين وعسكريين) وتدمير الاقتصاد المصري إلخ ، لا يمكن عزل كل هذه الكوارث عن شعارات العروبة وتحرير فلسطين والقضاء على إسرائيل .

كذلك كارثة بؤونة / يونيو ٦٧ ليس لها علاقة مباشرة بقضية فلسطين ، بينما علاقتها وطيدة بأفة (القومية العربية والوحدة العربية) فهذه الكارثة كان من الممكن تجنبها لو كان يحكم مصر سياسة يُفكرون في مصر قبل أوام العروبة ، فإذا كان سبب حشد الجيش المصري في سيناء ، وطرد بعثة الأمم المتحدة إلخ هو ((وجود تحركات إسرائيلية على الحدود السورية)) فإنَّ عبدالناصر رفض تصديق التقارير المصرية التي أكدت أنه لا توجد حشود إسرائيلية على الحدود السورية ، كما ذكر د. مراد غالب في مذكراته وكثيرون غيره . وذكر المشير محمد عبد الغنى الجمسى في مذكراته أن أحداث هزيمة يونيو ٦٧ ((بدأت بمعلومات غير صحيحة عن حشد للقوات الإسرائيلية على الحدود السورية للاعتداء عليها)) وزاد من تضليل شعبنا المصري ((أنَّ التقارير (الموثوق بها) أفادت خلال الأيام الماضية منذ بداية مايو ٦٧ أن هناك حشدًا إسرائيليًا ضخمًا على حدود سوريا ، بغرض القيام بعمليات داخل الأراضي السورية ، بهدف إسقاط حكم (تحررى) عربى ، وإيجاد حكم رجعى

عميل في سوريا ، وإيقاف حركة التحرر من أجل فلسطين)) وأضاف المشير الجمسى ((ومن معرفتنا الكاملة بجميع الظروف العالمية والملابسات الدولية المحيطة بالموقف ، وكذا بموقف القوى الاستعمارية التي تساند إسرائيل ، ومع تقديرنا لما قد يتصوره أعداؤنا من أننا قد (نتورط) في معركة في وقت غير ملائم لنا ، فإنه بعد دراسة جميع الاحتمالات ، قررنا الوقوف موقفاً حاسماً من تهديدات إسرائيل العسكرية بالتدخل الفوري في حالة قيام أى عدوان إسرائيلي على سوريا)) ولكن هل حدث تهديد إسرائيلي على الحدود السورية ؟ يعترف المشير الجمسى بأن ذلك لم يحدث ، وكتب ((وبتكليف من المشير عامر سافر الفريق أول محمد فوزى رئيس الأركان إلى سوريا في نفس اليوم (١٤ مايو) للتأكد من حشد القوات الإسرائيلية على الحدود السورية ، وإجراء التنسيق العسكرى بين سوريا ومصر. تفقد الفريق أول فوزى قيادة جبهة سوريا ، وبحث مع المسؤولين العسكريين في رئاسة الأركان (السورية) الموقف لمعرفة مدى صحة المعلومات التى وصلت إلى مصر من سوريا والاتحاد السوفيتى ، وكانت النتيجة كما ذكر الفريق أول محمد فوزى في كتابه (حرب السنوات الثلاث ٦٧ - ١٩٧٠ ص ٧١ ، ٧٢) : «إننى لم أحصل على أى دليل مady يؤكد صحة المعلومات ، بل العكس كان صحيحاً ، إذ أننى شاهدتُ صوراً فوتوغرافية جوية عن الجبهة الإسرائيلية ، التقطت بواسطة الاستطلاع السورى يومى ١٢ ، ١٣ مايو ٦٧ فلم ألاحظ أى تغيير للموقف العسكرى العادى» . انتهى كلام الفريق أول محمد فوزى ، وكان تعقيب المشير الجمسى ((عاد الفريق أول فوزى للقاهرة يوم ١٥ مايو، وقدم تقريره للمشير عامر، وهو التقرير الذى ينفى وجود حشود إسرائيلية على الجبهة السورية ، وسجل انطباعه قائلاً « لم ألاحظ أى ردود فعل لديه (= لدى المشير عامر) عن سلبية الوضع على الحدود السورية / الإسرائيلية . ومن هنا بدأتُ أعتقد أن موضوع الحشود الإسرائيلية على حدود سوريا ، هو من وجهة نظر المشير عامر ليس سبباً وحيداً أو رئيسياً في إجراءات

التعبئة والحشد في سيناء بعد الزيارة « كان هذا هو كلام الفريق أول محمد فوزي بعد عودته من سوريا ، وكان التعقيب الأخير للمشير الحمصي ((وبرغم هذه الحقيقة التي أوضحتها زيارة الفريق أول فوزي لسوريا ، فقد استمر الحشد في سيناء بعد الزيارة)) (انظر مذكرات الحمصي - حرب أكتوبر ١٩٧٣ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - عام ١٩٩٨ - ص ١٩ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠) في الحثيات السابقة نلاحظ أنّ التقرير المصري تحدث عن أنّ هدف إسرائيل من التحرش بسوريا هو ((إسقاط حكم (تحرري) عربي)) فإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم يتم تحرير الجولان السورية منذ عام ٦٧ وحتى كتابة هذه السطور في عام ٢٠٠٩ أي أنّ الجولان محتلة من إسرائيل لأكثر من ثلاثين عامًا ، وبعد كارثة بؤونة / يونيو ٦٧ وبعد حرب ٧٣ انشغلت سوريا بالتدخل السافر في شئون لبنان ، التدخل الذي وصل لدرجة السيطرة الكاملة ، بما يشبه الاحتلال ، ولدرجة أنّ شوارع ومطارات لبنان كانت تمتلئ بالصواريخ المضخمة للرئيس حافظ الأسد . ولكن الدرس المهم - فيما يتعلق بمصر - هو : ما مغزى كلام الفريق أول محمد فوزي بعد عودته من سوريا ((بدأتُ أعتقد أنّ موضوع الحشود الإسرائيلية على حدود سوريا ، هو من وجهة نظر المشير عامر ليس سببًا وحيدًا أو رئيسيًا في إجراءات التعبئة والحشد في سيناء بعد الزيارة)) ؟ لماذا أصرّ عبدالناصر على حشد القوات المصرية في سيناء وطرد بعثة الأمم المتحدة إلى آخر الإجراءات التي اتخذها في شهر مايو ٦٧ ومهدت لكارثة بؤونة / يونيو التي أطلق عليها الاعلام العربي اسم الدلع (نكسة) ؟ لماذا أصرّ عبدالناصر على حشد القوات المصرية في سيناء ، رغم أنّ تقرير الفريق أول محمد فوزي أكد أنه لا توجد حشود إسرائيلية على الحدود السورية ، وباعتراف السوريين أنفسهم ؟ وما مغزى حشد قوات مصرية في سيناء ، رغم أنّ هذه القوات لم تتلق أية تدريبات سابقة للدخول في حرب مع إسرائيل ؟ (إرسال آلاف الفلاحين المصريين من احتياطي الجيش إلى سيناء بالجلابيب " نموذجًا « كما أنّ أكثر من ثلث الجيش

المصري كان لا يزال موحولاً في بالوعة اليمن «نموذجاً ثانياً» وباختصار: ما مغزى إعلان الحرب على إسرائيل والقوات المسلحة المصرية ليست مؤهلة للدخول في هذه الحرب ، والدليل على ذلك حجم الخسائر المصرية التي فاقت كل تصور؟ فهل كنتُ مغالياً عندما ذكرتُ في دراساتي أنَّ عبدالناصر هو مهندس هزيمة يونيو ٦٧ ؟ خاصة أنه اعتمد على قيادات عسكرية م تتلقأ أية تدريبات ، ويسلم لهم أية دراسات عسكرية ، وكان معظمهم يقضون أوقاتهم ويخصصون كل اهتماماتهم بفرق كرة القدم ، أو بقضاء الوقت مع الراقصات والممثلات في سهرات ماجنة . كما اعتمد عبدالناصر على بعض القيادات المعروف عنها تلفيق التقارير الكاذبة ، من ذلك ما ذكره أحد السفراء المنسربين في مذكراته من أنَّ شمس بدران مدير مكتب المشير عبدالحميم عامر، ووزير الحربية قبيل هزيمة بؤونة / يونيو ٦٧ والذي كان عبدالناصر ينوئ تسليمه الرئاسة بعد الهزيمة ، عاد شمس بدران من موسكو التي أرسله إليها عبدالناصر، قبل الحرب بأيام ، وصرح في مجلس الوزراء بأنَّ ((الاتحاد السوفيتي معنا ، وأنهم مستعدون لضرب الأسطول الأمريكي السادس ، وسيشفونه عظماً ولحمًا ، أى سيمزقونه)) ولكن السفير الفقى (وكان عضواً في الوفد المرافق لشمس بدران) كذب هذا القول ، وقال : إنَّ الاتحاد السوفيتي لم يعد بشيء إطلاقاً من هذا القبيل ، وأنَّ شمس بدران كان مشغولاً كل الوقت بشراء أثاث ولوازم لمنزله)) (انظر التفاصيل في كتاب « أول الحكاية - حكايتي مع الدبلوماسية» تأليف الأستاذ جميل مطر - سلسلة كتاب الهلال المصرى - العدد رقم ٦١٦ - إبريل ٢٠٠٢ ص ١٧، ١٨) كما ذكر السفير أحمد الفقى في مذكراته ، أنَّ عبدالناصر برز أمامه عدم قدرته على التعليق على تقرير كتبه أحد السفراء المصريين عن أحوال مصر قائلاً ((لأننى وأنا رئيس الجمهورية كنتُ مغلوباً على أمرى من المشير وعصابته)) (المصدر السابق ص ١٩) فإذا صدقنا هذا التبرير، فإنَّ النتيجة هى أنَّ رئيس الدولة الذى اعتقل المواطنين الشرفاء ، من كل التيارات - لمجرد أنهم كانوا

يُعبرون عن آرائهم الفكرية والسياسية والاقتصادية - كان (أى عبدالناصر) مغلوبًا على أمره من المشير وعصابته ، فلماذا رضى بالذل لنفسه ، من أذل المصريين جميعًا ؟

وفى شهادته عن هذه الفترة الخالكة من تاريخ مصر الحديث ، كتب المؤرخ المستشار طارق البشري ((بلغ من ابتعاد عبدالناصر عن معرفة أوضاع الجيش ، أنه فى صميم أزمة مايو ١٩٦٧ التى انتهت بحرب يونيو وهزيمتها المعروفة ، لم يكن عبدالناصر على بينة من حالة سلاح الطيران المصرى ، ولا كان قادرًا على سؤال المشير فى هذا الشأن ، وذلك حسبما يُفهم من مذكرات محمود رياض وزير الخارجية (آنذاك) وفى صميم هذه الأزمة كذلك طلب المشير من عبدالناصر أن ينقل إلى وزارة الخارجية عشرة من قيادات الضباط الذين فوجئ محمود رياض بأسمائهم ، لسابق معرفته بأنهم من القادة الأكفاء ، وكان فى مقدمة هؤلاء اللواء أحمد إسماعيل الذى قاد - فيما بعد - حرب ١٩٧٣ . وقد سلم عبدالناصر طلب المشير وقائمة الأسماء إلى محمود رياض دون اعتراض واضح منه . كما (ذكر) محمد فوزى أن عبدالناصر لم يكن على معرفة بشؤون الجيش على مدى أعوام سابقة ، حتى أسماء القادة الكبار ومنهم (دفعته .. إلخ)) (لزيد من التفاصيل انظر الديمقراطية ونظام ٢٣ يوليو - ١٩٥٢ - ١٩٧٠ تأليف طارق البشري - كتاب الهلال - العدد ٤٩٢ - ديسمبر ٩١) أما الأستاذ أمين هويدى (الذى شغل عدة مناصب قيادية ومنها المخابرات) فذكر فى مذكراته الكثير من الأمثلة عن أوجه تقصير ((القيادة العسكرية ، فى تجهيز الخطط وتعديلها بالسرعة المطلوبة ، وفى التدريب المستمر ، وقت السلم لتكون مهينة لعملها وقت الحرب ، وفى تفرغ الوحدات لمسرح العمليات ووضع خطط التعبئة وتجربتها وإجراء المناورات وتدريب الرئاسات . وذكر أن الثابت أنه لم يُخصص من الوقود (البنزين) لأغراض التدريب أكثر من ٥ ٪ من حجم الوقود المخصص للقوات المسلحة . كما أن القوات الجوية عجزت عن تدريب الطيارين ، فلم يُجاوز عددهم ١٥٠ طيارًا ، بينما كانت الطائرات القاذفة والمقاتلة الصالحة يبلغ

عددها ١٥٤ طائرة ، ويُقارن ذلك بالوضع في إسرائيل حيث كان لديها ألف طيار للعمل على ٣٧٦ طائرة . وينتهي من ذلك إلى أن قيادة الجيش ((قرطت في الأمانة التي وضعتها البلاد بين يديها ، فأهملت إعداد قواتها ... تفريط في الأمانة ، واستهانة بمقدرات الشعب وعدم تقدير الأمور)) ثم أشار إلى المعلومات داخل الجيش المصرى عن العدو، فيصفها بأنها لم تكن متيسرة ، سواء عن مطارات العدو أو أرضه أو مستودعاته. ولم يكن في المقدور تمييز طائرات العدو)) (المصدر السابق - ص ٣٥١).

أما حرب ٧٣ فكانت من أجل تحرير سيناء ، وهى قضية ليست محل خلاف .

يتبقى أخطر المقولات وهى (حصر) حدود مصر فى الحدود الشرقية ، وكأن مصر ليست لها حدود أخرى ، وكأن الخطر على أمن مصر القومى ، لا يأتى إلا من الحدود الشرقية .

إن مساحة مصر ١٠٤١١١٥ كم مربع . وتقع فى الركن الشمالى الشرقى من قارة إفريقيا . يحف بها من الشمال البحر المتوسط . وفى الشرق فلسطين وخليج العقبة والبحر الأحمر . وفى الجنوب خط عرض ٢٢ درجة شمالا ، ويمثل الحدود بينها وبين السودان . وفى الغرب خط طول ٢٥ درجة شرقا ، وهى إلى حد كبير بينها وبين ليبيا . وتنقسم أراضى مصر جغرافيا إلى ثلاثة أقسام كبرى : الصحراء الشرقية ويلحق بها جزيرة سيناء ، وأراضى النيل ويدخل فيها منخفض الفيوم . ثم الصحراء الغربية . أما الصحراء الشرقية فمساحتها ٢٢٣٠٠٠ كم مربع تشمل الهضبة الممتدة من وادى النيل إلى البحر الأحمر . أما الصحراء الغربية فتشمل أكثر من ثلثى مساحة مصر .

هذه هى حدود مصر الجغرافية . كما أنها ملتقى ثلاث قارات . والبحر الأبيض المتوسط يُفَرِّق ويصل بين مصر وأوروبا . والبحر الأحمر يصل مصر بصفة خاصة

بالشرق والشرق الأقصى . فإذا أضفنا إلى ذلك أرضها الخصبة بسبب وجود طمي النيل (قبل بناء السد العالي بالطبع) لدرجة أن ابن عبدالحكم في سرده لوقائع الغزو العربي لمصر وصف النيل بأنه ((نهر العسل في الجنة)) (فتوح مصر وأخبارها- مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر عام ١٩٧٤ ص ١٠٣) وكثرة خيراتها واعتدال مناخها ، ترتب على ذلك أن أصبحت مصر ضحية لموقعها الجغرافي المتميز، فتعرضت- على مر التاريخ- لعدة غزوات . ولم تكن الحدود الشرقية وحدها هي سبيل الوصول إلى مصر، وإنما الحدود الغربية أيضًا مثلما حدث مع الغزو الليبي في العصور القديمة .

والكتابة عن (الحدود والغزوات) في حاجة لدراسة خاصة وفي كتاب مستقل، لذلك فإنني سأقصر الحديث عن الغزوات ضد مصر، عندما كانت الإسكندرية هي (بوابة) الاحتلال . تقع الإسكندرية على ساحل البحر المتوسط غربى فرع رشيد . أنشأها الإسكندر الأكبر عندما غزا مصر ٣٣٢ ق . م وهي أكبر ثغور مصر . وكان اسمها عند جدودنا المصريين القدماء (راكوتى) وعند اليونان (راكوتيس) وأطلق العرب عليها (راقوده) وكانت مسرح الأحداث عندما جلست كليوباترة السابعة على عرش مصر عام ٣٧ ق . م عندما تزوجت أنطونيوس وحرّضته على محاربة أوكتافيوس . ولكن هزيمتها في أكتوم عام ٣١ ق . م قضت نهائيًا على كل آمالها . وبالرغم من ذلك ظلت الإسكندرية عاصمة مصر حتى تاريخ الغزو العربي ، إذ إن عمرو بن العاص قبل أن يصل إلى مدنها المختلفة ، ومنها ما أطلق عليه الفسطاط (القاهرة فيما بعد) اختار أن تكون الإسكندرية هي مدخله لاحتلال مصر . ودعا عمرو بن العاص إلى غزو الإسكندرية مرتين : الأولى عام ٦٤١ والثانية عام ٦٤٥ وذكر ابن عبد الحكم أن الإسكندرية فتحت عنوة (أى بالقوة) بغير عهد ولا عقد ولم يكن لهم صلح ولا ذمة . وفي وصف عمرو بن العاص للإسكندرية في كتابه إلى عمر بن الخطاب قال ((ما رأيتُ مثل مصر قط وكثرة ما فيها من أموال))

(المصدر السابق - ص ٤٦ ، ٦٣) .

وأثناء الصراع بين الملك الناصر والأمراء ، كانت الإسكندرية هي مسرح الأحداث للسيطرة على مصر (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - لابن تغرى بردى - ج ١٢ - هيئة قصور الثقافة عام ٢٠٠٨ من ص ١٨٠ - ٢٣٠) وعندما غزا الفاطميون مصر فإن المعز لدين الله الفاطمي اختار أن يكون دخوله (= غزوه) عن طريق الإسكندرية (بدائع الزهور في وقائع الدهور - لابن إياس - هيئة الكتاب المصرية - عام ١٩٨٢ - ج ١ ص ١٨٦) وكانت الإسكندرية - أيضًا - مسرح الأحداث أثناء الغزو العثماني على مصر عام ١٥١٧ (د . حسين فوزى - سندباد مصرى - مكتبة الأسرة عام ٩٧ ص ٤٣ ، ٤٤) .

وقبل أن يحتل جيش نابليون بونابرت الإسكندرية عام ١٧٩٨ سبقتها محاولة من الإنجليز، إذ ذكر الجبرتي أنه وردت إلى القاهرة المكاتب بأن عمارة إنجليزية (يقصد الأسطول) من نحو ثلاثين مركبًا وقفت بعرض البحر أمام الإسكندرية. وحاول الإنجليز استرضاء السيد محمد كريم ، وإقناعه بأنهم جاؤوا للمدافعة الفرنسية الذين يتهددون مصر. وأن محمد كريم لم يقبل العرض وردّ عليهم بكلام خشن ((هذه بلاد السلطان . وليس للفرنسيين ولا لغيرهم عليها سبيل)) ولكن بعد هذا التاريخ بعدة أسابيع ، جاء الأسطول الفرنسي إلى مصر، وكانت الإسكندرية هي مدخل الاحتلال ، حيث دخل عن طريق جزيرة العجمى . وبعد خروج الجيش الفرنسي من مصر عام ١٨٠١ حاول الإنجليز احتلال مصر. وكانت الإسكندرية - أيضًا - هي مدخلهم في هذه المحاولة. إذ أنه في أول مارس ١٨٠٧ دخلت سفينة إنجليزية إلى مياه الإسكندرية. وفي يوم ١٤ دخلت سفينة أخرى ، وفي مطلع يوم ١٧ وصل عدد السفن الإنجليزية ٢٥ سفينة. وذكر المؤرخ عبدالرحمن الرافعي ((أنه في ليلة ٢١ دخل الإنجليز الإسكندرية دون أن تُطلق رصاصة واحدة)) والسبب أن ((محافظ الإسكندرية (أمين أغا) شغل منصبه

بفرمان من الحكومة التركية. وكان متواطئاً مع الإنجليز على أن يُسلمهم المدينة)) وبعد تفاصيل كثيرة، زحف فريزر على رشيد لاحتلالها واتخاذها قاعدة للجيش البريطاني. وفي يوم ٢٩ مارس تحركت القوات الإنجليزية من الإسكندرية لاحتلال رشيد. ثم وصف المقاومة الباسلة لأهالي رشيد حتى تم جلاء القوات الإنجليزية (لمزيد من التفاصيل: انظر عبدالرحمن الرافعي - مصر المجاهدة في العصر الحديث - من ولاية محمد على إلى نهاية حكم سعيد - ج ٢ كتاب الهلال - عام ١٩٨٩ من ص ٢٨ - ٣٦).

تكرر الاعتداء على هذه المدينة (الجميلة / المنكوبة) مرة أخرى، إذ في شهر مايو ١٨٨٢ عندما تفاقم الخلاف بين الخديو توفيق وأعضاء الوزارة، أعلنت الصحف الأوروبية أن إنجلترا وفرنسا عازمتان على إرسال أسطوليهما إلى الإسكندرية. وبالفعل تحققت توقعات تلك الصحف. وفي يوم ١٢ مايو قال اللورد (جرانفيل) وزير خارجية إنجلترا للمسيو (تيسو) سفير فرنسا في لندن ((إنَّ الحاجة ماسة إلى القيام بمظاهرة بحرية في مياه الإسكندرية)) وذكر عبدالرحمن الرافعي أن تلك المظاهرة البحرية كانت الثانية التي قامت بها الدولتان. وأن الأولى كانت في أكتوبر ١٨٨١ والثانية كانت أشد خطراً من الأولى، إذ أنها لم تكن مظاهرة فحسب، بل كانت مقدمة لضرب الإسكندرية والاحتلال البريطاني. فقد وصلت البوارج إلى مياه الإسكندرية يوم ١٩ مايو ١٨٨٢ وفي يوم ١١ يونيو وقعت مذبحة الإسكندرية بسبب الشجار الذي وقع بين أحد المالطين من رعايا الإنجليز والمصري السكندري (السيد العجان) الذي أجّر حماره للمالطي ولم يعطه إلا قرش صاغ بعد أن استغل الحمار طوال النهار إلى آخر الواقعة المشهورة التي انتهت بمذبحة راح ضحيتها ٤٩ قتيلاً منهم ٣٨ أجنبياً والباقي من السكندريين. واستمر التوتر حتى كانت الذروة يوم ١١ يوليو ١٨٨٢ عندما ضرب الأسطول الإنجليزي مدينة الإسكندرية (لمزيد من التفاصيل انظر: عبدالرحمن الرافعي في

كتابته «مصر المجاهدة في العصر الحديث - الثورة العربية والاحتلال الإنجليزي والسودان» ج ٤ - كتاب الهلال - عام ١٩٨٩ من ص ٧٢ - ١٢٦) .

هكذا كان قدر هذه المدينة الجميلة ، أن تكون مدخل الغزاة لاحتلال مصر . إذن فإنّ حدود مصر لا تقتصر على الحدود الشرقية ، وأنّ الغزاة يختارون الدخول (= الغزو) إلى مصر من أية جهة (= حدود) وفقاً لحساباتهم . وإذا كان عام ١٨٨٢ المحطة الأخيرة بالنسبة للإسكندرية مع الغزاة ، فإنّ عبدالناصر والقيادة العسكرية أثناء حرب السويس بعد تأمين القناة ، توقع أنّ بريطانيا في حالة استخدامها القوة العسكرية ، فإنها ستقدم أساساً بقواتها نحو مصر من ناحية الإسكندرية ورشيد . لذلك بُنيت الخطة الدفاعية على أساس هذا الاحتمال . وعندما أبلغ خالد محيي الدين عبدالناصر بالمعلومات التي حصل عليها من أحد أصدقائه بياريس ، وتُشير إلى أنّ فرنسا تعمل متعاونة مع إسرائيل لمهاجمة مصر ، فإنّ عبدالناصر لم يأخذ هذه المعلومات مأخذ الجد ، واعتقد هو وعبدالحكيم عامر أنّ الغرض من هذه المعلومات دفع مصر إلى حشد قواتها الدفاعية تجاه إسرائيل ، تاركين الإسكندرية ورشيد (وهي طريق تقدم القوات البريطانية وفق رأى عبدالناصر وعبدالحكيم عامر) دون قوات دفاعية (مصرية) للتصدى لها . وأكثر من ذلك أنّ ضباط الاتصال (المصريين) كان تقديرهم أنه من الصعوبة بمكان إنزال قوات معادية في بورسعيد أو السويس . وإنّ كانت هناك محاولة من العدو فستكون من غرب الإسكندرية ، ولذلك لم تُعط أهمية قصوى لتقوية الدفاعات في منطقة القناة ، وذلك رغم أنّ الإنذار البريطاني / الفرنسي كان قد حدّد المنطقة التي هدّداً باحتلالها وهي منطقة قناة السويس التي هي موضع الخلاف بعد قرار التأميم (لمزيد من التفاصيل انظر: مذكرات عبداللطيف البغدادى - مصدر سابق - ج ١ ص ٣٢٧ ، ٣٥١) .

والسؤال المسكوت عنه في مسألة حدود مصر هو: هل استباحّت إسرائيل المدن المصرية عن طريق الحدود الشرقية فقط ، أم أنّ طيرانها استباح كل الحدود

المصرية واستطاع تدمير الطائرات والممرات المصرية في كارثة بؤونة / يونيو ٦٧
التي أطلق عليها الإعلام العروبي المعادي لمصر (شعبًا وحضارة) اسم الدلع
(نكسة) وأن إسرائيل فعلت ذلك في ثلاث ساعات ونصف ، ضربت فيها ١١
قاعدة جوية مصرية في وقت واحد من العريش إلى الأقصر؟ (هيكل - حرب
الثلاثين سنة - الانفجار ١٩٦٧ من ص ٧٠١ - ٧١٣) فهل يجرؤ الإعلام العروبي
تكذيب هذه الحقائق؟ خاصة وأنها منشورة في كتاب عروبي كبير هو الأستاذ
هيكل . وأثناء السنوات التي أطلق عليها هذا الإعلام (حرب الاستنزاف) فإنه (أى
هذا الإعلام) لم يسأل - حتى لا تنتقل (عدوى) السؤال إلى المصريين الذين يدفعون
ثمن الحروب ، كيف استباح الطيران الإسرائيلي حدود مصر ، ف ضرب مصانع
(أبوزعبل) ومدرسة بحر البقر بمحافظة الشرقية ، وضرب مدينة الفيوم وحى
المعادي بالقاهرة إلى آخر الجرائم التي ارتكبتها إسرائيل ضد مصر؟ ولم تتوقف هذه
الاعتداءات إلا بعد الاستعانة بالطيران الروسى والطيارين الروس ، وهى حقيقة
أخرى مسكوت عنها ، مثلها مثل حقيقة أخرى مسكوت عنها أيضًا ، عندما وجّه
عبدالنصر النداء إلى الرئيس الأمريكى نيكسون يوم ١ / ٥ / ١٩٧٠ للتدخل لوقف
الاعتداءات الإسرائيلية داخل الحدود المصرية ، فترتب على هذا النداء من
عبدالنصر إلى الرئيس الأمريكى المبادرة الأمريكية المعروفة باسم (مبادرة روجرز)
في ٢٥ / ٦ / ٧٠ وكان تبرير عبدالنصر لقبول هذه المبادرة ، فى رده على العروبيين
الذين اتهموه بالخيانة ((إن المضى فى حرب الاستنزاف ، فى حين أن إسرائيل تتمتع
بتفوق جوى كامل ، معناه - ببساطة - أننا نستنزف أنفسنا)) (د. عبدالعظيم
رمضان - حرب الاستنزاف بين الحقيقة والافتراء - هيئة الكتاب المصرية - عام ٩٨
ص ٤٨) .

إذن فإن حدود مصر - مثلها مثل أية دولة - متعددة . وأن الخطر قد يأتى من
أية جهة ، وبالتالي فإن مقولة العروبيين والإسلاميين أن الحدود الشرقية هى الحدود

الوحيدة التى تُشكل الخطر على أمن مصر القومى ، وأنّ مقاومة مصر لإسرائيل ليس دفاعاً عن فلسطين بل عن حدود مصر، هى مقولة باطلة . والسؤال الذى يتجاهله هؤلاء وأولئك هو: لو أنّ إسرائيل لم توجد من الأصل ، ولم تحدث كارثة احتلال فلسطين ، أليس من واجب القيادة المصرية حماية حدودها ؟ أو ليس من واجب أى نظام سياسى فى أية دولة حماية حدوده ؟

إنّ العقل الحر - وحده - هو القادر على الفصل بين تعاطفنا نحن المصريين مع الشعب الفلسطينى ، وإيماننا بقضيته ، وأملنا فى تحرير أرضه وإقامة دولته المستقلة ، وبين توريط مصر فى حرب جديدة مع إسرائيل . وصدق الراحل الجليل لؤيس عوض فى قوله الحكيم ((أليست فلسطين صليبا الذى نحمله جميعاً إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً ؟ فما بال مصر تحمل العبء الأكبر من المال والرجال ، وهى أفقر عضو فى المجموعة العربية ؟)) (انظر كتابه : لمصر والحرية - مطابع الأهرام التجارية - دارالقضايا - عام ٧٧ ص ١٢٦) .

أعتقد أنّ مأساة مصر تتجسّد فى الإعلام العربى الذى يُصر على إلغاء خصوصية الثقافة القومية لكل شعب من شعوب المنطقة ، وعدم الاعتراف بأى تمايز بين دولة ودولة ، وبين شعب وشعب ، وأنّ الجميع متشابهون كأنهم نسخ كربونية . بالإضافة إلى تلك المقولة (غير العلمية) التى ردّدها هذا الإعلام الناصرى / العربى ، وهى (أنّ مصر لا شىء بدون العرب ، والعرب لا شىء بدون مصر) وأرى أنّ هذه المقولة إهانة للعرب ، بقدر ما هى إهانة لمصر . وبعد كل الكوارث التى جلبها النظام الناصرى على الشعب المصرى ، مازال أ. محمد حسنين هيكل (الصحابى الأول لنبيى العربية عبدالناصر) يُردّد تلك المقولات الخاطئة والمضللة ، من ذلك ما فعله فى قناة الجزيرة فى شهر يونيو ٢٠٠٩ إذ ذكر أنه ((يستحيل الدفاع عن الأمن الوطنى المصرى بدون حزام قومى عربى)) ونال هذا الكلام إعجاب

القناة التى تستضيفه ، فأصرت على إعادة هذه الفقرة (بالذات) ضمن فواصلها الإعلانية لعدة أيام . فما مدى صدق هذا الكلام ؟ وهل هو اكتشاف جديد ؟ إن بداية التوجه العربى كانت منذ يناير ٥٣ باعتراؑ ضابط المخابرات المصرى فتحى السديب المولع بالعروبة (انظر كتابه : عبدالناصر وتحرير المشرق العربى - مصدر سابق - ص ١٢ ، ٣٠) أى أن ما ذكره أ. هيكى فى ٢٠٠٩ ليس اكتشافاً ، وإنما هو بيع بضاعة قديمة حفظتها شعوب المنطقة بفضل الإعلام الموجه وبفضل الكتاب المدرسى . إذن هى رسالة لتكريس التوجه الأيديولوجى العربى المعادى لأية خصوصية سواء لأية دولة عربية أو لمصر ، حتى فيما يتعلق بقدرة مصر فى الدفاع عن حدودها الوطنية ، يؤكد ذلك أن ما ذكره هيكى فى ٢٠٠٩ هو تكرار لما كتبه عام ٧٣ إذ قال ((إن طاقة مصر وحدها لا تستطيع إحراز النصر المزمجى فى الصراع الراهن فى أزمة الشرق الأوسط)) (أهرام ٦ / ٧ / ٧٣) أى قبل حرب أكتوبر ٧٣ بثلاثة شهور . ولم يكتف هيكى بإنكار قوة مصر الذاتية ، وإنما وصفها فى نفس المقال بأنها ((شظية اسمها مصر)) ونظرًا لإيمانه ب (الوحدة العربية) رغم فشل الوحدة المصرية السورية ، قال ((لا مستقبل للكيانات الشظايا . شظية اسمها السعودية . وشظية اسمها ليبيا .. إلخ)) وفى الأسبوع التالى كرر نفسه ولكن بمزيد من الهدم لمبدأ الاعتماد على القوة الذاتية لأية دولة فذكر لو أن ((كل بلد عربى وجد الوسيلة لتنمية مستقلة ، فمعنى ذلك أننا سندخل فى عصر من المنافسة الطاحنة بين الضعفاء)) فما هى النتيجة فى رأى الأستاذ الكاتب الكبير كما تصفه الثقافة السائدة وكل تلامذته البؤساء ؟ كتب ((شظايا تصطدم مع الشظايا . فتات يأكل الفتات)) ولشدة ولعه باللعب بالألفاظ أضاف ((أننا إذا لم ننجح فى التنمية المستقلة وقعنا فى الخطر . وإذا نجحنا فى التنمية المستقلة وقعنا فى الأخطر)) فهل ينكر أى عاقل أن هذا الكلام يصب فى مصلحة الرأسمالية العالمية ؟ لقد أضحكنى أ. هيكى عندما سمعت أحاديثه فى قناة الجزيرة ، وربطتها بمقالاته فى الأهرام ، فهو إذ يرى فى

٢٠٠٩ أن مصر لا شيء بدون العرب ، كتب في عام ٧٣ أن ((الأمة العربية أمامها فترة محدودة - ثلاث سنوات أو خمس على أكثر تقدير - فإذا لم تستطع خلالها أن تبدأ بنوع من العمل العربى وتختتم بنوع من الوحدة العربية ، فإن هذه الأمة سوف تفقد مكانها على الخريطة السياسية للعالم الجديد . بل أكاد أقول إنها مُهددة بفقد مكانها على الخريطة الجغرافية لهذا العالم أيضًا . وسوف تكون عاجزة عن مواجهة التحدى الإسرائيلي القائم فعلا)) (أهرام ١٣ / ٧ / ٧٣) فإذا أخذنا الحد الأقصى الذى حدّده أ. هيكل لفقدان الأمة العربية لمكانها (والأدق لغويًا مكانتها) فإن المدة تنتهى في عام ١٩٧٨ ، فما هى حالته العقلية في ٢٠٠٩ وهو يبيع بضاعته القديمة لقناة الجزيرة ، عندما أصّر على أهمية العرب لمصر لحماية أمنها القومى ، بعد أن فقدوا مكانتهم حسب قوله ؟

وسبب العروبة التى يرى هيكل أنها الحامية لمصر، تم قتل المصريين واليمنيين في (بالوعة) اليمن حسب وصفه (أهرام ١ / ٦ / ٧٣) وأن إيمان عبدالناصر بالعروبة جعله يستهين بحديث الحبيب بورقيبة الذى ذكر له أن الأمير فيصل قال ((إذا لم ينسحب الجيش المصرى من اليمن ، فنحن على استعداد لأن نجعل منها مقبرة كبيرة له)) (نقل عن كتاب هيكل - الانفجار ص ٦٢) وبالطبع فإن المقبرة كانت للمصريين الشرفاء الذين ماتوا في كوارث اليمن وفي عام ٥٦ ، ٦٧ وليست (المقبرة) لعبدالناصر الذى استمر حتى يُجهّز لمقبرة الجيش المصرى في بؤونة / يونيو ٦٧ . وبسبب العروبة تم تبديد موارد مصر على سوريا واليمن والجزائر إلخ (لمزيد من التفاصيل أنظر كتاب فتحى الديب - مصدر سابق - أكثر من صفحة) .

وهيكل ٢٠٠٩ يتجاهل ما كتبه على لسان عبدالناصر الذى قال يوم ٢٩ / ٨ / ٦٥ إن العرب يُتاجرون بالشعارات ((وبالتالى فإن ج.ع.م (أى مصر) ستجد نفسها مضطرة إلى الانسحاب من مؤتمرات القمة لتحل مسئوليتها التاريخية وحدها)) وعن فلسطين قال عبدالناصر ((نحن جميعًا لا نملك خطة لتحرير

فلسطين ولانملك الوسائل لتحقيق ذلك)) (هيكل - الانفجار - ص ٢٠٧ ، ٢٠٨) وهيكل يتجاهل أنه أثناء العدوان الثلاثي على مصر ، فإن الطائرات البريطانية كانت تضرب بورسعيد من مطار الحبانية بالعراق (صحيفة الشعب ٥٦ / ١١ / ٢٥) ويتجاهل أن نبي العروبة (عبدالنصر) قال لإيدن ((إذا اعتديتم علينا سنستعين بالاتحاد السوفيتي)) (صحيفة الشعب ٥٦ / ١١ / ٢٩) فلماذا لم يقل سنستعين بالعرب ؟ هل لأن نبي العروبة أكثر واقعية من الصحابي الأول ؟ وهيكل ٢٠٠٩ يتجاهل ما كتبه هيكل ١٩٩٨ إذ ذكر أن الجيوش العربية سلّمت قيادتها للجنرال جلوب الإنجليزى . وأن بعض الجيوش العربية تخلّت عن مساعدة الجيش المصرى فى معارك النقب وغيرها فى شهرى نوفمبر وديسمبر ٤٨ (هيكل - العروش والجيوش - دار الشروق - عام ٩٨ ص ٤٤٥) وهيكل الذى يُرَوِّج لمقولة: إن مصر بدون العرب مجرد (شظية) هو الذى كتب أن ((الصراع العربى الإسرائيلى فى جوهره صراع بين (الكم) العربى و(الكيف) الإسرائيلى . قد يكون العرب مائة مليون ولكنهم بعيدون عن روح العصر ولهذا لا يلحقون به)) (أهرام ٧٣ / ٦ / ٨) لذا لم تكن مفاجأة أن يقوم الطيران الإسرائيلى يوم ٧ / ٦ / ٨١ بتدمير المفاعل العراقى (رغم محطة الإنذار المبكر فى الأراضى السعودية) ويقوم فى العام التالى (يونيو ٨٢) بغزو لبنان . فإذا كانت الميديا العروبية تُرَوِّج لمقولة اعتماد مصر على العرب ، يكون من المشروع السؤال : بماذا قدّم العرب للعرب ؟ فعندما غزا جيش صدام دولة الكويت ، فإن الكويت استعانت بأمرىكا لتحرير أراضيها . وذكر فتحى الديب أن قاعدة الظهران الأمريكية التى أقامتها أمرىكا بالسعودية ، كانت بديلا مأمونا وبعثق المشرق العربى)) (مصدر سابق - ص ١٨١) ولكنه لم يذكر الهدف من إقامة هذه القاعدة العسكرية الأمريكية. وأن إقامتها ضد من ؟ وباعتراف هيكل فإن السعودية بها ١٦٠٠ خبير عسكري بريطانى وأمريكى (الانفجار - ص ٢٤١) وهيكل الذى كتب كثيرا عن (الاستعمار الأمريكى) وعن (الكيان الصهيونى) فى

وصفه لإسرائيل ، يتحدث في فضائية الجزيرة التي تقع على بعد عدة أمتار من أكبر قاعدة عسكرية أمريكية في (الخليج العربي) وعلى بعد عدة أمتار من المكتب التجارى الإسرائيلى بالدوحة . فكيف تصوّر أن يُصدّقه أحد غير البلهاء حسنى النية ؟ أم أنه يعتمد على المشاهدين العربيين ودراويش الناصرية وحدهم ؟

ويتجاهل هيكل أن نبى العروبة (عبدالناصر) هو مهندس هزيمة بؤونة / يونيو ٦٧ . ولم تكن أكذوبة الحشود الإسرائيلية على الحدود السورية ، إلاّ (الشّاعة) التى علّق عليها نوريث مصر فى هذه الكارثة التى يصعب محو آثارها من نفوس المصريين ، والتى تبدو وقائعها أغرب من الأساطير ومن خيالات كتاب ألف ليلة وليلة ، خاصة وأنّ التقارير المصرية أكّدت له (أى لعبدالناصر) أنه لا توجد حشود إسرائيلية على الحدود السورية. فكانت النتيجة كارثة الهزيمة التى أطلق عليها الصحابى الأول اسم الدلع (النكسة) رغم أن إسرائيل دمّرت كل الطائرات والممرات المصرية فى مدة قدّرها هيكل نفسه ب ((ثلاث ساعات ونصف)) (هيكل - الانفجار - ص ٧١٠) وإسرائيل التى كتب هيكل أنه ((للمستقبل لها فى المنطقة)) (أهرام ٨ / ٦ / ٧٣) والتى قرّر العرب فى بيان القيادة السياسية الموحدة فى شهر مايو ٦٥ أن ((الهدف العربى القومى هو القضاء على إسرائيل)) (فتحى الديب - مصدر سابق - ص ٦٨٨) إسرائيل (المزعومة) فى الميديا العروبية ضربت ١١ قاعدة جوية مصرية فى وقت واحد من العريش إلى الأقصر (هيكل - الانفجار - ص ٧١٣) ونحمت شعار القومية العربية أتاح نبى العروبة لإسرائيل ، ليس احتلال سيناء فقط ، وإنما أيضًا القدس والضفة الغربية وغزة والجولان السورية. والأكثر فداحة ما ذكره ماكنارا وزير الدفاع الأمريكى من أنّ ((دولة عربية طلبت كمية من الأسلحة لمواجهة السوفيت ، وأننا وافقنا بشرط أن لا تستخدم أسلحتنا ضد إسرائيل)) (الانفجار - ٢٤١ - ٢٤٢) وهيكل الذى نقل هذا الحديث لم يُعلّق عليه بكلمة واحدة .

يُفرّق هيكل والميديا العروبية بين أنظمة رجعية وأخرى (تقدمية) وأنّ الأمل في الاعتماد على الأخيرة (الانفجار - ص ٦٦) وليس لدى تعليق أبلغ من الواقعة التي ذكرها المؤرخ المرحوم د. رؤوف عباس الذي ترجم كتاباً عن جريمة أمريكا ضد الشعب الياباني في هيروشيما وناجازاكي في أغسطس ١٩٤٥ . كان الكتاب بعنوان (اليوميات والشهادات) طبع د. رؤوف الكتاب على نفقته الخاصة وكان ذلك في عام ١٩٧٥ . تعاقد د. رؤوف مع الأهرام لتوزيعه ، فقال له صلاح الغمراوي مدير التوزيع آنذاك (أنّ الوقت غير مناسب لصدور هذا الكتاب) طاف د. رؤوف على مكاتب القاهرة يعرض عليها توزيع الكتاب ، فكتشف أنّ هناك تعليمات شفوية من المباحث العامة بعدم طرح الكتاب للبيع . دلّه صديق على مكتبة الخانجي التي قبلت الكتاب لتصديره إلى دول (جبهة الرفض : العراق ، سوريا ، ليبيا ، الجزائر) كانت القاعدة المعمول بها تقتضي إرسال عدة نسخ إلى البلد المعنى للحصول على موافقة الرقابة. كانت النتيجة أنّ ((الرقابة في البلاد الأربعة رفضت السماح بدخول الكتاب)) وكان تعليق د. رؤوف على هذه الكوميديا السوداء ((اكتشفتُ زيف تشدق النظم العربية (التقدمية) بشعارات معاداة الامبريالية (الأمريكية) ومدى ارتباط أجهزتها المعنية بالولايات المتحدة الأمريكية)) (مشيناها خطى - كتاب الهلال - ديسمبر ٢٠٠٤ (من ١٨٣ - ١٨٦) فهل هناك تضليل إعلامي وثقافي أكثر من ذلك ؟ وهل صحيح أنّ مصر (أو أية دولة أخرى) لا تستطيع أن تعتمد على قواها الذاتية أو تحمي حدودها إلّا بعد الاعتماد على دول أخرى ؟ ألا يؤدي هذا الكلام إلى كسر القوة الذاتية لأي شعب ؟ وبالتالي يصب في صالح الرأسمال العالمي ؟ وألا يعني أنّ شعار العروبة الذي باركته بريطانيا ثم أمريكا هو ضد العرب مثلما هو ضد مصر ؟ وصدق الشاعر الكبير نزار قباني في قوله الحكيم ((سقط الفكر في النفاق السياسي / وصار الأديب كالبهلوان / تستبد الأحران بي .. فأنادي / آه يا مصر من بنى فحطان)).

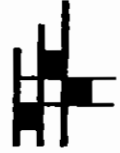
أعتقد أنّ العقل الحر لا ينكر أنّ لغة العلم تختلف عن لغة الخطابة ولغة المشاعر - سواء عاطفية أو دينية أو عرقية - لأنّ هذه اللغة - وبغض النظر عن البحث وراء أهدافها - هي التي جعلت عبدالناصر يرمى بالجيش المصري في (بالوعة) اليمن حسب وصف هيكمل ، وهي البالوعة التي راح ضحيتها آلاف الأرواح المصرية وملايين الجنيهات المصرية. وباعتراف عبد الناصر أنّ الخزينة المصرية كانت تتحمل ٤٥ مليون جنيه مصرى (بسرالستينيات) كل سنة. وكتب هيكمل أنّ ((حرب اليمن كلّفت الخزينة المصرية كل سنة ما بين أربعين إلى خمسين مليون جنيه ، أو ما يوازي مائة مليون دولار وقتها)) (الانفجار - ص ١٨٥) واعترف عبد الناصر أنّ القبائل اليمنية (التي تظاهرت أنها مع النظام الجمهورى) كانت تأخذ المال والذهب من مصر ومن السعودية في نفس الوقت (فتحى الديق - مصدر سابق من ص ٥٢٠ - ٥٢٢) ووصل عدد الجنود المصريين في اليمن وفق تقدير عبدالناصر أربعين ألفاً (نقلا عن هيكمل - الانفجار - ص ١٦٨) وذكر أ. ياسين سراج الدين أنّ عدد الشهداء من أبنائنا المصريين في اليمن بلغ خمسة عشر ألفاً ، أى بنسبة ٣٧,٥ ٪ من إجمالى العدد السنوى لقواتنا في اليمن (صحيفة الدستور المصرية - الإصدار الأول ٢٣ / ٧ / ٩٧) وعبدالناصر وهو يُمهّد لهذه المجزرة التي راح فيها الآلاف من المصريين واليمنيين ، لجأ إلى اللغة الدينية فقال ((إنّ جبال اليمن تحمل قبساً من نفس الشعلة المقدسة التي يحج إليها المسلمون في عرفات)) (نقلا عن أ. عبدالحليم قنديل - الناصرية والإسلام - مركز إعلام الوطن العربى - صاعد - ١٩٩١ - ص ٢٢) .

وبسبب هذا التوجه العربى الذى أهدر دماء المصريين وأموالهم ، لم يراع أية خصوصية لمصر ، وحتى بعد كارثة بؤونة / يونيو ٦٧ التي كان من المفترض أنّ تكون وقفة مع الذات لمراجعة كل أخطاء الحقبة الناصرية / العروبية / الإسلامية ، فإنّ عبدالناصر أصرّ على تنفيذ مخطط شطب أية مصلحة قومية تخص مصر فقال

((إنّ سيناء بكل ما فيها من بترول ومعادن ، لاتهمنى بقدر اهتمامى بالضفة الغربية)) وقال أيضًا ((إنّ القدس أهم من سيناء)) لذلك كانت الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان صادقة مع نفسها عندما قالت ((الله في السماء وعبدالناصر في الأرض)) (نقلا عن أ. رجاء النقاش - أهرام ٤ ، ١١ يناير ٢٠٠٤).



صدر للمؤلف



- * مدينة طفولتي : مجموعة قصص قصيرة - هيئة الكتاب المصرية - عام ١٩٩٠ وأعيد طبعها ضمن مشروع مكتبة الأسرة عام ٢٠٠١ .
- * أبعاد الشخصية المصرية بين الماضي والحاضر - هيئة الكتاب المصرية . عام ١٩٩٩ . وأعيد طبعها ضمن مشروع مكتبة الأسرة في نفس العام .
- * الثقافة السائدة ومقاومة الميديا الصهيونية بالعبري - عام ١٩٩٩ على نفقة الكاتب بالتعاون مع الجمعية المصرية للتوير .
- * أنساق القيم في الإبداع المصري - مجموعة دراسات في النقد الأدبي - هيئة قصور الثقافة - سلسلة كتابات نقدية عدد رقم ١٠٣ - مايو ٢٠٠٠ .
- * العسكر في جبة الشيوخ : الأصولية الإسلامية قبل وبعد ١٩٥٢ - مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان - عام ٢٠٠٣ ، وأعيد طبعه باسم (الثقافة المصرية والأصولية الدينية - قبل وبعد يوليو ١٩٥٢) مع المزيد من الإضافات . وصدر عن «الدار للنشر والتوزيع» عام ٢٠١٠ .
- * ترنيمة عشق : رواية - هيئة الكتاب المصرية - عام ٢٠٠٦ .
- * هديل الحمام : مجموعة قصص للأطفال - هيئة قصور الثقافة - العدد رقم ١٧٤ عام ٢٠٠٨ .
- * موسيقى من السماء - مجموعة قصص للأطفال - هيئة الكتاب المصرية - عام ٢٠١١ .
- * الليبرالية المصرية قبل يوليو ١٩٥٢ - مكتبة الأسرة - عام ٢٠١٠ .
- * العلمانية والطريق إلى الاستقرار الاجتماعي - دار الدار للنشر عام ٢٠١١ .

الفهرس

الإهداء	٣
مقتبسات	٥
مقدمة	٧
القسم الأول : مصر وإسرائيل	١١
الفصل الأول : الثقافة السائدة في مصر والتراث العبرى	١٣
الفصل الثانى : مصر والتراث العبرى	٥٥
الفصل الثالث : أولاد حارتنا بين الإبداع الأدبى والنص الدينى	٦٧
الفصل الرابع : سرقة الآثار المصرية مع غياب الحس القومى	٧٩
الفصل الخامس : أبوحصيرة : من الضريح إلى المستوطنة	٨٥
الفصل السادس : الحضارة المصرية : صراع الأسطورة والتاريخ	٩٣
القسم الثانى : مصر وفلسطين والأصولية الدينية	١٠٣
الفصل الأول : العلاقة بين اليهودية والصهيونية	١٠٥
الفصل الثانى : نبوءات الليبراليين المصريين حول المخطط الصهيونى ...	١٢٣
الفصل الثالث : أخطر شرخ فى جدار المجتمع الإسرائيلى	١٣٣
الفصل الرابع : الشخصية اليهودية والتراث العبرى	١٥١
الفصل الخامس : الروائى الأيرلندى جيمس جويس واليهود	١٦٥

الفصل السادس : حنه وميخائيل : صورة للصراع داخل المجتمع الإسرائيلي ..	١٦٩
الفصل السابع (ختام) جدل العلاقة بين مصر وفلسطين وإسرائيل وقضية حدود الدولة والدفاع عن الوطن ..	١٨١
صدر للمؤلف ..	٢٠٦
الفهرس ..	٢٠٧

